لن تجد الشمس في غرفة مغلقة

إيمان أسعد



منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

إيمان أسعد

لن تجد الشَّمس في غرفة مغلقة

رواية





t.me/soramnqraa

26 3 2024

الكاتب: **إيمان أسعد**

عنوان الكتاب: **لن تجد الشَمس في غرفة مغلقة**

تصميم الغلاف: حسين المطوع

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-94-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2021

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com takweenkw

takween_publishing TakweenPH

www.takweenkw.com



بابٌ يُفتح على الحكاية الوحيدة. بابٌ يُغلق على سرٍّ مدَّخر إلى اللحد. بيبانٌ أزلجَها مسافرون وأخرى خلعها الانتظار. مصاير تتلو مصاير، والأبواب شواهد. الأبواب رجاء.

علي محمود خضيّر، *كتاب باذبين*

قصيدتي حجرٌ يطير إلى أبي حجلاً.
أتعلم يا أبي ما حلَّ بي؟

محمود درويش، *حجرٌ كنعانيٌّ في البحر الميّت*

كُنْ موقنًا أنَّ التوق الذي يحمله العاشقان بعضهما لبعض لا يختلف في طبيعته عن الصداقة - بل لك أن تصف العشق صداقةً فلتت من عقال المنطق وهوت في الجنون.

سينيكا، *رسائل من المنفى*

أيمن صبي حبُّوب
عيناه عسليتان واسعتان
راحتا يديه
بيضاوان باردتان
عقله قويٌّ مكين
وفي صدره..
في صدره يخفق قلبٌ رقيق.
هذا الصباح
بعد أن أيقظته أمه من المنام
وقبل أن يجرَّ نعاسه معها إلى الحمَّام
فرك عينيه
مطَّ ذراعيه
وسألها سؤاله المعتاد:
ماما اليوم عطلة أو دوام؟
فأتاه جواب أمه المخيب للآمال:
اليوم دوام ابني،
اليوم دوام.
* * *

الأربعاء

(١)



عبَّ أيمن الحليب بالشوكولا عبًّا.

قطرة واحدة ما تبقت في العلبة، ومع ذلك، ظلَّ أيمن يشفط ويشفط ويشفط حتى أفرغ العلبة من الهواء، العلبة تنكمش بين يديه، وبفمٍ مكتوم، تجشأ هواءها من بطنه. عيناه تحدقان إلى أمه، جالسة قبالته، تسند رأسها إلى راحة يدها اليسرى، وبيدها اليمنى تتعبث بمنقوشة الزعتر المفرودة على صحنها. عيناها ذابلتان، جبينها متعرق، وجنتاها متوردتان، توردهما يتوهج على وجهها الحنطاوي الشاحب، شعرها الأسود الخفيف مشدودٌ إلى الوراء في ذيل حصانٍ مبتور، المساحات البيضاء بين خصل شعرها المشدودة، حوالي الصدغين وقمة رأسها، اتسعت عن ذي قبل. ما إن أفاقت من غيبتها على صوت تجشئه حتى رفعت رأسها ورنت عيناها الذاهلتان إليه، وعلى مرأى عينيها تبسَّم لها، يمعن في محياها بحثًا عما يبتغيه، وها هي، ليست بابتسامة، بل لمحة ابتسامة، واللمحة باتت تكفيه. تنهَّد مرتاحًا، وضع علبة الحليب المتغضنة

جانبًا، ومد يده كيما يتناول منقوشة الزعتر التي يشتهيها قلبه، بيد أنه تراجع.

تراجع خوفًا أن يتسخ قميصه الأبيض بقطرة زيت وحبات زعتر تتناثر من أصابعه وفمه فتغضب أمه وإذا ما غضبت أمه فستصرخ في وجه أبيه لأنه ملتهي بالجريدة ولم ينتبه على ابنه وببرود دونما يلتفت إليها يعلِّق أبوه: إنت إمه، ومن المفترض أن تنتبه هي لابنها لا هُوَ فتقذفه بفطيرة الزعتر وينتفض هو عن كرسيه على رأس المائدة راميًا الجريدة على الطاولة فينسكب إبريق الشاي على المفرش ومنه على بنطال أيمن ويعلو زعيق أمه وهي تخلع عنه قميصه وبنطاله بيدين مرتعشتين مهددةً الاثنين بمغادرة البيت الذي سيضحو مكب زبالة من دونها وأبوه واقفٌ عند النافذة يشفط سيجارته يدمدم لاعنًا الساعة التي اشتهى بها قلبه منقوشة زعتر وفطيرة جبنة مساء البارحة فترجَّى بنت الكلب أن تعدها له باكرًا كي يفطر بطمأنينة هو والجريدة.... وكاسة الشاي.

وهكذا، تقهقهرت أصابع أيمن عن منقوشة الزعتر الدائرية وتناولت عوضًا عنها فطيرة الجبنة المثلثة. حرارة الفطيرة لسعت أنامله، ليته أخذ محرمة ورقية معها، علبة المحارم أمامه جانب صحن التقديم، لكن أباه بدأ يلمحه، عيناه الثاقبتان تحدجانه بين قلب الصفحة والصفحة، فآثر عدم الإتيان بحركة، إذ تكفيه المخاطرة التي أخذها بتجشئه. بعد كل تقليب صفحة يقضم هو بسرعة، فتات جبنٍ تناثر، بيد أنَّ لا قلق ساوره بشأنها، إذ سينفضها

عنه ولن يتبقى منها أثرٌ يُرى. ذي الميزة الوحيدة لفطيرة الجبنة التي يمقتها. استرق نظرة بلحظ عينه نحو الكرسي على يمينه، حيث تتكئ حقيبته جانبه، تنتظره بفارغ الصبر الانتهاء من ازدراد فطوره فيحملها على ظهره ويذهب بها إلى حيث الجميع يريد. لا حيث قلبه يريد.

إلى مجاهل الغابة حيث القرية المخفية عن أعين الجميع.

(٢)

على الرصيف المقابل للبِناية، وقف أيمن ملاصقًا عمود الإنارة، في انتظار الباص البرتقالي رقم ٦. والداه في الأعلى، إلا أنه يعلم يقينًا، في قلبه، أن من يرقبه من النافذة هي أمه. متى حطَّت قدماه على الرصيف استدار لا يرفع رأسه إليها، رغم القبضة التي تعتصر أحشاءه، رغم الدمع المترقرق في عينيه، الذي سرعان ما سيمسحه لحظة يلمح ضوء الباص الأمامي مقبلًا عليه من أول الشارع، لأنها إن رأته فستعلم، وأيمن لا يريد لقلب أمه أن يحزن.

جفل على صرير مكابح الباص؛ يرى من جديد هلهول تدهسه العجلات في هذه العتمة الخانقة، مواؤه الحاد يخترق أذنيه في نهاية الصرير. الباب المستطال شرَّع دفته، أمسك بالقضيب الجانبي وهمَّ بالصعود لكن ولدًا كبيرًا هرع من خلفه، نتره من حقيبته وتجاوزه، زيح هيك. حقيبة الولد الكبير لكمت أنفه، يده ما زالت متشبثة بالقضيب لذا، وإن اختل توازنه بعض الشيء، فلم يقع. عاد وصعد الدرجات، انسلَّ نحو أول مقعد طوليّ على جهة الشباك الأيسر،

خلف مقعد السائق، نزع الكمامة الزرقاء عن وجهه ودسَّها في جيبه، خلع حقيبته عن ظهره، ضمَّها إلى صدره، ورمى رأسه عليها.

«ابني أيمن، كيف حالك؟».

همسًا أجاب دون أن يرفع رأسه:

«منيح عمو عادل... منيح».

أغلق عمو عادل باب الباص وواصل دربه نحو المحطة المقبلة حيث ينتظره صبيٌّ آخر... وآخر... وآخر. على مرِّ الأعوام العشرين الماضية أقلَّ عمو عادل آلاف الطلبة؛ في الصباح الباكر يراهم قططًا ناعسة، رؤوسهم مترنحة من سكرة النوم، وفي الظهيرة يراهم قرودًا مشاغبة تأبى الجلوس على مقاعدها. يعرف معظمهم مذ دخولهم الصف الأول الابتدائي. الوجل يغلب الواحد فيهم، تجره أمه جرًّا داخل الباص، زعيقه أعلى من الزمور، وبأصابعه العشر يتشبث بدفَّة الباب حتى لا يغلق عليه. لكن يومًا فيوم يتلاشى الخوف ويعتاد الصبي منهم الذهاب إلى مدرسته، وسرعان ما يضحو قطًّا وقردًا. لكن أيمن ما زعق قط، وما اضطرت أمه يومًا إلى جره خطوة واحدة نحو الباص، بل دائمًا ما كان صورة الولد الهادئ الذي لو ترك الأمر له لما خلق أي مشكلة على الإطلاق. ولغفل عمو عادل عن وجوده لولا جلوسه في المقعد خلفه، بطلب منه، حتى يتسنى له، بين الفينة والأخرى، استراق نظرات اطمئنان سريعة على صفحة المرآة. وما كان عمو عادل ليدرك عاقبة انشغال باله بالصبي إلا صباح اليوم حين

سيخرق، للمرة الأولى والأخيرة، القاعدة الذهبية لكل سائقي الباصات:

شغلك توصل اللي قاعد قدام واللي قاعد ورا، مو شغلك تقول مين يقعد قدام ومين يقعد ورا.

وأخيرًا وصل عمو عادل بالباص إلى محطته الأخيرة في شارع ٥ فيلا ٢٦ حيث ينتظره طالبٌ جديد، طالبٌ في الصف الثالث متوسط، انتقل الأسبوع الماضي إلى المدرسة، واليوم يومه الأول. هو سائق الباص الوحيد من بين سائقي المدرسة الذي يؤم القادسية، فطالبٌ واحد يقطن فيها اعتاد أن يقله منها منذ أعوام، وها قد انضم إليه طالبٌ آخر، يقطن نفس الشارع، عند نهايته. ما إن تمكَّن من رؤيته، عبر عتمة السديم السخاميّ، في بقعة الضوء المتهدج، حتى استفزته وضعية وقوفه وهيئته: متكئًا على عمود الإنارة، قدمه اليمنى تعتلي حزمة كتبه المرمية على الرصيف، قميصه الأبيض الثائر لم تلمسه المكواة، أزراره العلوية مفكوكة، ياقة قميصه مرفوعة، كماه مرفوعان حتى كوعيه استعدادًا لخناقة شارع، عيناه شاردتان في السماء، يدٌ متوارية في جيبه ويدٌ متوارية خلف العمود، خصل شعره مبعثرة، خيوط حذائه فلتانة دون حساب. لا شيء... لا شيء في هيئته، لا شيء البتة، يبشر بخير على الإطلاق.

أوقف الباص أمام باب البيت، على بعد أقدام من عمود الإنارة حيث يقف الطالب الجديد جامدًا بلا حراك. ضرب له الزمور. ضرب له الزمور ثانية. زعيق الزمور هذه المرة عال وحانق.

وإذ، على انعكاس المرآة الجانبية، تتراءى له ابتسامة ساخرة ترتسم على وجه الولد، وطيف يمناه المتوارية خلف العمود كشفت عن نفسها، حاملةً بين أصابعها سيجارة، والسيجارة لثمها بحرارة بين شفتيه، في نفسٍ طويل، يتلذذ رشفتها الأخيرة، ينفث دخانها منتشيًا نحو السماء الرمادية قبل أن تهوي من بين أصابعه ويدعسها بقدمه. لا مباليًا انتشل رزمة كتبه من الرصيف ومضى نحو الباص؛ عمو عادل لم يشرع له فورًا الباب المستطال، وكاد ألا يفعل لكنه فعلها لأن لا خيار أمامه سوى أن يفعلها.

وقبل أن ينغلق الباب انطلق عمو عادل بالباص فترنح الطالب الجديد وتشبث بالقضيب. خزر عينيه في عمو عادل مَنْ عيناه تحدقان أمامه في استقامة، وما قال شيئًا؛ أهلس وحسب. ثم صعد الدرجتين متباطئًا، دلف نحو المقعد الطولي في الصف الثالث حيث يجلس طالبٌ آخر، كاد يجلس جانبه، لكن فجأة استدار ومن مكانه قذف بحزمة كتبه صوب المقعد الطولي الأمامي وانسل بجانب أيمن المصعوق من صوت الارتطام المفاجئ، من جلوس الطالب الجديد ملاصقًا له، كتفًا بكتف، فخذًا بفخذ، رافعًا ساقًا على ساق مع قدمه اليسرى على حزمة كتبه، فاردًا ذراعه اليسرى على ظهر المقعد من خلفه، واليد متدلية.

كبح عمو عادل الفرامل واختض كل من في الباص، رؤوس القطط المترنحة تيقظت من سكرة أحلامها، أعناقها اشرأبت نحو السائق خرفان، نحو المقعد الأمامي حيث الصبي غريب جالسٌ جانب الصبي غبي، كل قطٍّ عيناه مفتوحتان على أشدها.

السائق **خرفان**، في نبرةٍ متوترة غير معهودة منه في توصيلة الصباح:

«ابني لو سمحت قوم اقعد ورا، في محل فاضي».

الصبي **غريب** يلتفت نحو الصبي **غبي** مجيبًا بكل برود:

«أنا مرتاح هون».

السائق **خرفان** ينهره بصوتٍ أعلى ونبرةٍ أحدَّ:

«يلَّا قوم مكانك ورا».

أنامل اليد المتدلية تلهو بعقص شعر الصبي **غبي**:

«التهي بشغلك.. ويلَّا سوق».

وكما الثور الهائج ينتفض السائق **خرفان** من مقعده منتزعًا مفاتيح الباص:

«قوم قوووووم!».

الصبي **غريب**، بنفس البرود، لا يشيح نظره ولو للحظة عن الصبي **غبي**، أنامله تنحدر على خصل شعره وتمسد قذاله:

«منِّي قايم... وأعلى ما فْباصك اركبه».

السائق **خرفان** يشد الصبي **غريب** بياقة قميصه، المفاتيح فلتت من يده وانسلت أسفل مقعده:

«والله لاربيك يا حيوان!».

الصبي **غريب** يحدق إلى وجه السائق **خرفان** بلا ذرة خوفٍ ولا وجل:

«منِّي ... قايم».

جن جنون السائق **خرفان** وانتزع الصبي **غريب** ودفع به في الممر، المخبولان يقفان وجهًا لوجه ورعشة حماس اعترت القطط على عراك بالأيدي سيجعل من هذا الصباح صباحًا يُروى، كاد يروى، لولا أن الصبي **غبي** فعلها كرةً أخرى. رائحة القيء هذه المرة لا تطاق إذ فاح قرفها مع رائحة الحليب بالشوكولا عوضًا عن رائحة عصير الكوكتيل الخفيفة التي اعتادوها. الكل سد أنفه من الرائحة، دمدمة من التأفف والامتعاض انبعثت مِن كل مَن في الباص خلا السائق **خرفان**، الصبي **غريب**، والصبي **عملاق** الجالس وحده على المقعد الطولي الأخير.

* * *

مرتبكًا سارع عمو عادل إلى تناول علبة المحارم الورقية فرمى بها خلفه وجثا على ركبتيه محاولًا انتشال المفاتيح المحشورة أسفل مقعده ويده علقت. الصبي **غريب** دنا من أيمن الواقف على قدميه، جسده الضئيل يرجف أعلى الحقيبة والحزمة المتسختين بقيئه، ذراعاه النحيلتان تطوِّقان صدره كأنما يتوقع لكمة قاضية توقعه أرضًا.

خطا نحوه، أزاح حزمته بقدمه أسفل المقعد وألحق الحقيبة بها. جثا على ركبتيه غير عابئ برذاذ القيء المتناثر على الأرض وأمسك

بأيمن من كتفيه وأدناه إليه، ومن كتفيه ارتحلت أصابعه إلى ساعديه مرفقيه رسغيه واندسَّت خلف كل كفٍّ من كفيه. مال برأسه، أرنبة أنفه لامست أذن أيمن غير آبهة برائحة القيء المنبعثة من فمه، وهمس. رعشات الجسد الضئيل همدت، الذراعان المتشنجتان حول القلب خضعتا لمشيئة يدي الصبي **غريب** واستقرتا على جانبيه. الأصابع الآمرة ارتفعت وأمسكت بطيئيٍّ ياقة أيمن وبشَدَّة واحدة كل الأزرار انفكَّت والقميص انسلخ عنه وسقط، والآن، دونما يفك زرًّا آخر، كما لو كان يرتدي بلوزة، خلع الصبي **غريب** قميصه عنه *ارفع إيديك* وألبسه أيمن، والقميص، على الجسد الضئيل، بدا معطف مختبر كفيلًا بتغطية بقع القيء على بنطاله.

الأصابع عادت وارتفعت، وظن أيمن أنها ستبتعد وتنأى بنفسها عنه، لكنها عادت واندست في جيبي بنطاله بحثًا عن محارم ووجدت كمامته، وبالكمامة، راحت تمسح برفق رذاذ القيء عن فخذيه. لكن بغتة، الأصابع أُنتشلت عنوة، الصبي **غريب** طار بعيدًا وبباب الباص ارتطم رأسه.

شريط الزمن تجمد. الصبي **غريب** ملقىً على الدرجات، ساقاه على الدرج هامدتان، حالهما من حال سائر جسده. فوقه يقف عمو عادل مشدوهًا، صدره يزفر لاهثًا، قبضتاه شبه المفتوحتين ما تزالان على وضعية الانقضاض. أما أيمن فكأنما الأمر لا يعنيه بشيء، بهدوء عاد وجلس، عيناه ترنوان خارج النافذة، ذراعاه مرةً أخرى تطوقان صدره.

الصبي **عملاق** تحرك، ومعه عاد شريط الزمن إلى الدوران. نهض من مقعده في الصف الأخير وهرع نحو الصبي **غريب** دافعًا عمو عادل عن طريقه. انحنى على رأسه، جبينه يدمي بغزارة، عيناه مغمضتان وشفتاه مفتوحتان. وضع كفه أمام فمه، أنفاسه باردة على راحة يده، حاول أن يوقظه بهدوء لكن لم يفق، حاوط وجهه بكفيه يربت على وجنتيه. والصبي**غريب** أخيرًا فتح عينيه، كما لو من سبات عميق، عيناه الذاهلتان تتأملان الوجه الهادئ المنحني فوقه، القابض على روحه بيديه، كلماته تصل إلى مسامعه صدى.

«حاسّ بعَوار؟».

لا جواب.

«زين، تقدر تحرك ريولك؟».

ساقاه! أجل ساقاه! إن كان لا يزال يملكهما، فما يزال بوسعه الفرار. وها هما تتحركان، يشعر بهما، متأهبتين للانطلاق إلى حيث يريد وقتما يريد، أبدًا لن تخذلاه، وأبدًا لن تتوقفا عن الركض به، متى ما عرفتا إلى أين يريد الرحيل.

هبَّ الصبي **غريب** عن الأرض محاولًا الوقوف لكن ترنح، وبذراعه اليسرى التقطه الصبي **عملاق**.

«شوي شوي، خلني أساعدك».

أقحم يمناه في علبة المناديل المرمية وانتزع ملء قبضته ثم

انتصب يساعد الصبي **غريب** على النهوض. ما إن وقفا حتى طوَّقه من أسفل إبطه واستدار نحو عمو عادل:

«بو محمد لازم نروح الطواري، بس بالأول نوصّل الأولاد المدرسة».

وأفاق عمو عادل من شروده. سارع نحو مقعده وأدار المحرك، انتظر ريثما يساعد **عملاق** الصبي **غريب** على المشي ويجلسه على المقعد الأمامي جانب أيمن، حيث جلس هو الآخر جانبهما، يضغط على الجرح بكفه الضخمة المبطنة بالمناديل الورقية.

منقبض القلب، استرق عمو عادل نظرةً أخيرة على صفحة انعكاس مرآته، نحو الصِّبْية الثلاثة الجالسين خلفه، وفي أقصى سرعته، انطلق بالباص نحو المدرسة.

(٣)

صباحات أيلول أجمل الصباحات في الكويت. شمسها الحنون مشرقة. تتبسم لابنها وبكفيها تمسح رأسه. بين عينيه تنفخ نسيمها العليل وتباركه. تسلك النهار تسبِّح باسم الرحمن، ترجوه وتستعطفه، أن يحفظه لها من سابع سماء كلما أدارت ظهرها مجبرة على قيد الأفلاك، أن يعيده إليها تالي صباح سالمًا معافى فيطمئن قلبها وتقرُّ عيناها بمرآه.

لكن صباح هذا الأربعاء، الحادي عشر من أيلول ٩١، ما كان بالصباح الجميل. فالشمس مختنقة في سديم من قار، عبثًا تحاول مد أناملها عبر أحجبة الدخان نحو ابنها الواقف وحيدًا في انتظار الباص البرتقالي رقم ٦، قلبه ينتفض بردًا، عيناه جامدتان حزنًا لا تدمعان.

هو ضائعٌ في سرابه الخانق لا يراها.

وهي عالقة خلف السحب السود تراه.

ومع ذلك، مع ذلك، ورغم تكالب السحب الدخانية عليها، ظلت عينا الشمس تلاحقان الباص رقم ٦، تلاحقان نقطة اللون البرتقالي البشع الذي تمقته من بين كل ألوان الكون غير مدركة أنه احتفاءٌ بلونها هي متى ما أطلَّت على أبناء الكويت كل صباح.

لكن كيف للشمس العظيمة أن تعرف لونها؟

هي التي لم ترَ نفسها يومًا على شاشة التلفاز.

فجأة توقف الباص وانقبض قلبها. تيقنت أنَّ ضرًّا مسَّ ابنها. ذعره يسري صاعقًا في عروقه المتجمدة ويحرق فؤادها الملتهب بأتون نيرانها. آلاف براكين الغضب تفجرت في عروقها. ألف ألف جهنم توعدت بها من مس ابنها بضرٍّ وأشقاه. ألف ألف دمعة من ماء نارها تسيل على وجهها تحرق وجنتيها المتوردتين كزهرتي برتقال. لكن ما بيد الشمس العظيمة أن تصنع حتى تنتشل ابنها من براثن النقطة البرتقالية الشنعاء؟

لا شيء،

لا شيء،

لا شيء على الإطلاق!

(٤)

كان مكتبًا صغيرًا بلا شباك. جدرانه خضراء باهتة، جلدها المتآكل يكشف عورة جسدها الخرساني للعيان. أرضيته مربعات بلاطٍ عفا على رقطها الزمان. حجرةٌ يدلف إليها الهواء متثاقلًا، أمواجه الكسلى تحركها مروحة في الزاوية تتنقل بعينها الضخمة بين طاولة المكتب والباب، لكن، ليس دون أن تجمد هنيهة في منتصف دربها للتحديق إلى أيمن والاطمئنان أنه جالس هناك على المقعد دون حراك. لمبة النيون المثبتة في السقف تشع، نبضها المتقطع يهوي بالرأس نحو هوة الصداع.

وحيدًا جلس أيمن في الانتظار. على الأرض جانب مقعده كيسا قمامة أسودان: كيس يحوي كتبه ودفاتره وأقلامه ومسطرته وممحاته ومبراته وألوانه وكرَّاس أحلامه، وكيس يحوي قميصه وبنطاله وسرواله وحقيبته المتسخة بقيئه. للمرة الثالثة يجفل أيمن عند سماعه رنين الجرس يقرع منذرًا. الرنين الأول كان جرس إعلان طابور الصباح، تلاه فورًا الرنين الثاني، جرس بداية الحصة

الأولى، إذ لا طابور هذا الصباح. لدى سماعه الرنين الأول، من باب إيمانه بالالتزام بالواجب، تحت أي ظرفٍ كان، ردد في قلبه كل أركان الطابور وكأنما واقفٌ في الساحة هناك: سورة الفاتحة، تحية العلم، والنشيد الوطني. لكنه عاد وأخطأ في تحية العلم، ما ينفك يزل لسانه فيردد دون وعي: «تحيا الأمة العربية» رغم إلغائها. لم يقتنع أيمن أن هذا الزلل خطؤه أيضًا، فهو تعوَّد عليها منذ الروضة: *تحيا الكويت* ثلاث مرات، *عاش الأمير* ثلاث مرات، *تحيا الأمة العربية* ثلاث مرات. فكيف له أن يُذكِّر نفسه كل صباح -مع كل الأمور التي عليه أن يذكر نفسه بها كل صباح- أنَّ ما عاد ما يسمَّى بالأمة العربية، وإن كان لا يزال للأمة العربية من وجود فهي، كما وضَّح أبوه، حتمًا لا تستحق شرف الحياة.

رنين الجرس الثالث أعلن نهاية الحصة الأولى. أطول فترة انتظار خبرها أيمن سمع فيها رنين الجرس خمس مرات. هو اعتاد طول الانتظار ولم يمانعه. بل العكس، هو يغتنم كل فرصة يسمح له فيها الكبار بالجلوس منزويًا، منسيًّا في ركن بعيد عن الأنظار، فيهدأ قلبه ويرتاح عقله من تخيل ما سيكون عليه الحال إن كان: ما كان سيحدث لو تناول الزعتر لا الجبنة، لو جاوب اثنين بدلًا من سبعة، لو ردَّ بأهلين لا أهلًا.

«أهلين».

الصبي غريب واقفٌ عند الباب، شعره الأسود أشعث، عيناه الرماديتان تبرقان، على وجنته وصفحة عنقه أثر لطخة حمراء باهتة،

في قميص أبيض باهت؛ خيوط حذائه مربوطة، خطٌّ أسود متقطع يشق البقعة البنفسجية المتورمة أعلى عينه اليمنى، لا رزمة كتب يحملها في يده ولا كيس قمامة ينتظره، وعلى ثغره ابتسامةٌ فاتنة في مكرها لم يلمحها أيمن هذا الصباح.

«أهلًا».

عينا أيمن إلى عيني الصبي غريب، ما فارقتاه وهو يطأ عتبة الباب، يدخل المكتب، يجلس على الكرسي قبالته. الدقائق تمر، والصبي **غريب** ما يزال على تبسمه، لم يشتكِ من النيون الساطع، لم يشتكِ من الهواء الثقيل، لم يُلمِّح بالتصريح عن الرائحة المنبعثة من أيمن ومن الكيس فيتأفف بعدها دون انقطاع، كأن *الأووف* هي التي ستعطر الأجواء. وما كاد قلب أيمن يطمئن إلى جدار الصمت القائم بينهما حتى مال الصبي **غريب** نحوه، يداه تتدليان بين ركبتيه، يسأله بصوت خافت:

«مرعوب؟».

انتفض أيمن. كيف عرف الصبي **غريب** بهذه السرعة كيف يسخر منه كبقية الناس. أيٌّ من معلميه أخبره، أيٌّ من زملاء فصله وباصه أسرَّ إليه باللقب، أوَ يعقل أن يكون أمه أو أباه؟

«معروف.. اسمي أيمن معروف!».

عاد الصبي **غريب** واستقام على مقعده ما إن سمع حدة الجواب. ابتسامته تلاشت، على صفحة عينيه نظرة حيرة، تلتها نظرة اعتذار. وهلة وعاد الصبي **غريب** إلى تبسمه، باسطًا كفه اليمنى إلى الأمام:

«كيفك أيمن معروف. اسمي غسان.. غسان منصور أبو العز».

دون تخيل ما سيكون عليه الحال إن كان، مد أيمن يده وصافح غسان. كم جذلًا كان بهذه المصافحة، كم ممتنًّا كان لعقله لإيثاره، على غير عادته، التزام السكينة في هذه اللحظات، تاركًا له العنان في التصرف على سجيته مع الصبي المدعو غسان.

«شو رأيك نخلع قمصانَّا المسروقة؟».

ضاحكًا سأله غسان ما إن عاد بظهره إلى الوراء، ينتر حاشية الأزرار العلوية في ازدراء، وأطرق أيمن برأسه. كان نسي أمر ارتدائه قميص غسان الواسع والبنطال الطويل المستعار، إذ حتى البنطال اضطر إلى تغييره لدى وصوله المدرسة؛ فمع القيء هناك البول الذي تلاه. ألهذا الحد أصبح متأقلمًا مع ارتدائه الملابس المستعارة التي كانت يومًا ملك طلبة آخرين مجهولين ولسبب ما سلخوها عن أجسادهم وهجروها في المدرسة؟ ألهذا الحد اعتاد عليها فما عاد يشعر بها: لا بضيقها ولا اتساعها ولا حتى رائحتها العطنة؟ لكن ها هو لأول مرة يعي من الصاحب الأصلي لما يرتديه، ويعي لمن تعود رائحة القميص، والرائحة ليست عطنة بل نفاذة. وها صاحب القميص جالسٌ قبالته، يلمِّح إلى استعادة عطيَّته. لذا، ودون أن يجيب، فك أيمن الزر الأخير من القميص صعودًا إلى الأعلى. لكن وقبل أن ينتقل بأنامله الصغيرة إلى الزر الذي يعلوه، يد غسان امتدت وغطت أنامله:

«يا زلمة عم بمزح معك، ولو، أنا واياك هلق صرنا أصحاب. إللي إلِي إلَك، واللي إلَك إلِي».

«يعني...» رفع أيمن عينيه، مدهوشًا يتأمل عيني غسان، لا أثر فيهما لما يجده في أعين الصبية الآخرين.

«أنا وإنت.. أصدقاء؟»

«آه *أصدقاء!*» استقام غسان على كرسيه ساحبًا يده، «والأصدقاء لازم يعرفوا أشياء كتيرة عن بعض. مو هيك؟ مثلًا.. أنا فلسطيني من فلسطين، من بلد اسمها يافا. وإنت أيمن من وين؟».

بحماسٍ عارم أشار أيمن إلى نفسه، رأس سبابته تخز عظمة القص في صدره، عيناه تتسعان بهجة كونه يملك الإجابة المثالية على السؤال:

«أنا كمان فلسطيني من فلسطين!».

وكأنما عدوى الحماس انتقلت إلى غسان.. ضرب كفًّا بكف:

«آآآه عن جد.. يعني طلعنا من نفس البلد.. طب من وين في فلسطين؟».

«آآه.. ما بعرف.. آه.. بابا يقول نفس المكان اللي بيعملوا فيه الكنافة النابلسية».

«نفس المكان اللي يعملوا فيه الكنافة النابلسية... آه الخليل.. لا.. آه.. رام الله.. لا مش هاي.. آآآه نابلس؟».

«صح! صح! هيَّ نابلس».

«طب عمرك شفت نابلس؟».

«لا ما شفتها».

«ولا أنا شفت يافا. شفت يا صاحبي.. شكلنا نشبه بعض كتير. لهيك راح نفهم على بعض منيح».

ويقهقه أيمن ضاحكًا من قلبه، غير واثق إن كانت فورة بهجته تعود إلى وجود صديق له في المدرسة أخيرًا، أو لاحتمال أن في هذه الحياة ثمة حقًّا من سيفهم عليه منيح.

أخذ نفسًا عميقًا. أرخى جسده على المقعد. ومتجاهلًا الفحيح الهامس في عقله، توجه بالحديث إلى صديقه الوحيد غسان:

«أنا ناطر ماما.. إنت ناطر إمك والّا أبوك؟».

غسان ما يزال على ابتسامته، لكن لم ينخدع أيمن بها، إذ تنبه إلى خطئه في السؤال ما إن لمح الحزن في عينيه. وها هي! ها ذي اللحظة التي ما يفتأ أيمن يخشاها متى تجاهل الفحيح.

يتفادى غسان النظر إليه، يلتفت يمينه حيث الباب، خصل شعره تهتاج إثر هبوب الريح من المروحة. وعلى عظمة وجنته اليسرى -يشعُّ باهتًا تحت إضاءة النيون الساطع المتقطعة- لمح أثرًا بنفسجيًّا أزرق. لا بد سينهض الآن ويعصف خارج المكتب غاضبًا، نادمًا على إهدار وقته في محادثة صبيّ غبيّ مثله. لكن غسان ما زال ثابتًا على كرسيه، عنقه يشرئب صوب الباب المفتوح وكأنما يستكشف وجود معلم في الممر يحول بينه وبين مغادرته. لكن ما من أحد، لا صدى لصرير حذاء ولا خبطة قدم.

نهض غسان من على كرسيه؛ لا يتوجه نحو الباب بل نحوه. على ركبته اليمنى جثا أمامه، يطوي ثنيتيَّ البنطال المستعار حتى يتناسب طوله مع ساقيه. ورغم انتهائه لا ينهض عن الأرض ولا يرفع رأسه، كأنما انتقل لحظتها إلى عالم آخر لا وجود فيه لأحد.. لا وجود فيه لأيمن ولا حتى لغسان. لا يدري أيمن من أين تملَّك الشجاعة ليفعل ما فعل.. لكنه فعلها. مد يده، وراح يمسح على رأس صديقه كما اعتادت أمه أن تفعل كلما أفاق مذعورًا من المنام.

«أنا آسف.. ما كان قصدي أزعلك».

وها غسان يعود إلى مكتب المشرف الخانق حيث يوجد كلاهما، وبرفق، تناول يد أيمن التي مسحت على رأسه وقبَّلها.. وفورًا نهض من الأرض وعاود الجلوس على كرسيه:

«لا تتأسف يا صاحبي.. أنا مو زعلان منك.. أنا زعلان من حالي».

قلب أيمن يخفق ويرف؛ بسرعة غطَّى كف يده اليمنى براحة يده اليسرى علَّ المروحة لا تنفخ عليها فتخطف القبلة وتطير بها. قلبه، في رفرفة خفقه يسأله: متى آخر مرة مست جسده قبلة؟

«وليش زعلان من حالك؟» سأل في لهفة.

«ما بعرف.. لأني ولد مو منيح».

«يعني.. يعني أبوك ما راح يجي ياخدك لإنه زعلان منك.. مو هيك.. لإنك ولد مو منيح؟ لهيك إنت زعلان من حالك؟! أنا كمان

بزعل لَمَّا بابا يزعل مني، وبابا يزعل مني كتير. وماما صارت تزعل مني كمان.. بس مو متل بابا... ماما تعيّط لَمَّا تزعل.. تعيّط وصوتها يصير عالي.. عالي كتير يوجع لي راسي.. بس بابا.. بابا لَمَّا يزعل مني يبطّل يحكي معي.. يبطل يتطلع فيني وقلبي يصير يوجعني أكتر.. تعرف غسان.. تعرف إنه بابا شاطر كتير.. كتير شاطر ويعرف أشياء كتير ويقرأ كتير ويكتب كتير.. عندنا في البيت كتب كتير.. بابا أكتر واحد عنده كتب في الدنيا كلها.. وأكتر واحد عنده أوراق وأقلامٌ في الدنيا كلها.. بس لَمَّا أشوف بابا وماما زعلانين لأنه عندهم ولد متلي.. لَمَّا أسمعهم يتخانقوا باسأل حالي.. ما بعرف.. يعني ما بعرف.. ما بعرف ليش.. بس.. ليش.. ليش بابا الله بعت له مع الملاك ولد غبي.. والله يعرف إنه بابا ما يحب الأولاد الأغبيا.. فإذا الله عن جد يعرف كل شي.. وعن جد يحب الأولاد الصغار كتير أكتر من أي شي.. ليش بعتني إِلُه؟ ليش عذب بابا وعذبني معه؟».

وها لاهثًا أفصح عن سرِّه الدفين: علمه.. رغم غبائه.. أنه ولدٌ غبي. كان واثقًا بأن غسان الوحيد الذي سيقدِّر شجاعته باعترافه بما هو معروف لدى الجميع؛ الوحيد الذي لن يفسر شجاعته محض غباء. ولأنه يقدر شجاعته لن يستعلي عليه ويؤكد له أنه ليس بغبي، لن يكذب عليه ويطمئنه أن أمه وأباه يحبانه كثيرًا وأن لا داعي لمثل هذا الحديث والتخيلات، وثقته جاءت في محلها. صاحبه الوحيد ما اكترث لهذا الاعتراف النابع من قلبه الموجوع ولم تأخذه به شفقة، وكأنما لا يعنيه في شيء. فغسان غير معنيّ بوضع أيمن، غبيًّا يكون أم ذكيًّا، محبوبًا لدى والديه أم لا، غسان معنيّ فقط بصداقته لأيمن.

أيمن من يعنيه ولا شيء آخر. لذا ما إن عاود غسان الحديث، في نبرته اللامبالية، همدت نار الألم في قلب أيمن، وفي عقله سكنت عواصف القلق الهائجة.

«بابا مو زعلان مني.. بابا ما راح يجي ياخدني لأنه مات».

«مات! كيف مات؟».

بجذعه مال غسان إلى الأمام، وبأصابع يده اليمنى ميَّم مسدسًا وصوَّب فوهته تجاه رأس أيمن:

«برصاصة وحدة بين عيونه».

أيمن ما جفل. عيناه واثقتان، متشوقتان:

«ومين قتله؟».

بوووه..ومرةً أخرى لم يجفل، عيناه حتى ما طرفتا. مال غسان إلى الوراء على مقعده رافعًا المسدس مع فوهته إلى الأعلى. نفخ عليه مثلما يفعل أبطال الكاوبوي في الأفلام، وأعاد كف يده إلى صورتها الأولى، مفرودةً فارغة.

زفر نفسًا عميقًا وألقى برأسه إلى الخلف. عيناه تحدقان إلى لمبة النيون المثبتة في السقف:

«ما بعرف».

حذا أيمن حذو صديقه وألقى برأسه هو الآخر إلى الخلف وحدق إلى لمبة النيون المتقطعة. كان يعلم أن غسان يكذب عليه،

أن غسان يعرف تمامًا مَن قتل أباه. لكن أيمن سمح لصاحبه بهذه الكذبة، سمح لصديقه الوحيد بتأجيل اعترافه بما هو معروف لدى الجميع.

(٥)

في الدور الأول من مبنى المدرسة، في مكتب الوكيل الواقع أعلى مكتب المشرف الخانق في الدور الأرضي، وقف الأستاذ عاصم عند النافذة المسفوعة يمعن النظر بين نتف اللصاق الأصفر المتصالب على صفحتها في الساحة الخلفية حيث تقف الباصات وتفرغ حمولتها من الطلبة. هي عادته ارتشاف قهوته الأولى وقوفًا، يتأملهم يندفقون إلى يومه الواحد تلو الآخر. لكن اليوم لم يكن كباقي الأيام. اليوم استيقظ مع وخز مؤلم في عينيه، ودون أن يكلف نفسه عناء النهوض عن فراشه وفتح الستائر، أدرك أن قراره الأول لهذا اليوم سيكون إلغاء طابور الصباح.

«خير أستاذنا... ما شربتش قهوتك».

دون أن يستدير بظهره، التفت نحو سطح مكتبه، بالفعل، فنجان القهوة لم يمسه؛ شذرة ضوء عالقة فيها، تبرأرأ، عاجزة عن الفرار من السواد الثخين.

«بعدين.. شيلها من هون.. وخبِّرني متى ما وصل وليّ أمر الطالب غسان أبو العز».

في خطىً متسارعة، تقدم السكرتير نحو طاولة المكتب وعلى سطحها ترك ورقتين مطبوعتين. انتظر ثواني علَّ الأستاذ عاصم يجلس إلى مكتبه ويطلب منه شيئًا آخر، بيد أنه ظل واقفًا على حاله، فحمل فنجان القهوة وتقهقر عائدًا إلى الوراء وأغلق الباب خلفه. رفع الأستاذ عاصم نظارته، حكَّ عينيه، يضغط بإبهامه وسبابته على مقلتيه؛ لا فائدة، أعاد نظارته وراح يمعن النظر من جديد في الساحة الترابية، في رتل الباصات البرتقالية الهامدة.

في العشرين عامًا التي قضاها الأستاذ عاصم في التعليم، مدرسًا فوكيلًا، تكوَّنت لديه حاسة سادسة نحو طبيعة كل طالب. هو لا يمانع وجود الطالب الكسول فلعنة كسله تقع عليه وعلى والديه، ولا الطالب المشاغب ما دام شغبه لا يتجاوز تأثيره الترفيه عن رفاقه ورفع ضغط مدرسيه والدفع بهم بين الفينة والأخرى إلى الدخول في نوبات من الصراخ الهستيري. الطالب الذي يخشى وجوده في أي فصل من فصول مدرسته هو الطالب المضطرب، فهؤلاء لا يملكون سوى طعن أرواحهم مرةً تلو المرة، عبقريتهم أنهم لا يحملون السكين بأيديهم بل يقحمونها في أيدي الآخرين، مشرعين لهم صدورهم، رافعين في حميَّة رؤوسهم، منتظرين.

كان مرَّ أسبوعٌ منذ استلامه ملف غسان منصور أبو العز. وما إن فتح الملف حتى وجد أنَّ أول ورقة رسمية قرارٌ من وزارة

التربية بفصل الطالب من مدرسته الحكومية وحرمانه من التسجيل في أي مدرسة حكومية أخرى، في أي منطقة تعليمية. اقشعر بدنه لدى قراءته تقرير الحادث الذي بني عليه القرار: في اليوم الثاني من الأسبوع الأول من سنة الدمج الدراسية، خمسة طلبة كويتيين انقضوا عليه في ساحة المدرسة وانهالوا عليه ضربًا بأقدامهم حتى فقد وعيه وجرى نقله إلى المستشفى. لدى استدعاء الطلبة الخمسة ادَّعوا أن غسان سبَّ الكويت وأميرها وراح يهلل تمجيدًا في صدام حسين، صارخًا بأعلى صوته أنه عائدٌ لا محالة لاحتلال الكويت ثانية وتحرير فلسطين والأخذ بثأر أبيه. الطلبة الخمسة فُصِلوا ثلاثة أيام لأن الضرب -وإن كان مُستحقًّا- زاد عن حده مع وجود ضلع مكسور، عدا الرضوض القوية المنتشرة على أنحاء جسد غسان ووجهه. كذلك، لم تثبت صحة مزاعمهم، مع وجود معلم كويتي شهد أنَّ غسان لم ينطق لسانه بأيٍّ من هذا.

لكن من يدري أين هي الحقيقة؟ وعلى كلٍّ ارتأت المصلحة التربوية العليا في وجود غسان، بريئًا كان أم مذنبًا، تهديدًا لاستقرار العملية التربوية في المدارس الحكومية، حيث وجود طالب أبوه منصور أبو العز لن يكون مقبولًا لدى أي كويتي. ثلاثة أسابيع ونيِّف مرَّت على الحادث، ومع كل ما يجري الآن -مع ستة شهور وحسب مرَّت على التحرير- لم يعِ الأستاذ عاصم كيف لصاحب المدرسة أن وافق على القبول به طالبًا لديه.

سرعان ما وصله الجواب من الأستاذ نايف -ناظر المدرسة

الكويتي- الجالس خلف مكتبه يتأمله في انتظار ردة فعله لدى قراءته ملف غسان، مترقبًا اللحظة المناسبة لإعطائه المعلومة.

إنت تدري إن الولد نصه كويتي وتدري سالفة أبوه الله لا يرده، أكيد تدري! أصلًا هو واحد من ربعكم! على كلٍّ أنا والعم بو جاسم نعرف خاله عبدالعزيز زين. وخاله توسط لولد إخته عند وزير التربية حتى ما يشمل قرار الفصل المدارس الخاصة. وقبل كم يوم زار العم بو جاسم وطلب منه يدخل ولدهم مدرستنا، والعم وافق بعد ما درى إنه قبل الغزو الولد كان متفوق والأول على مدرسته ومثال في الأخلاق،ههه، الظاهر انه تعقد من عمايل أبوه في الغزو، وزادت عقدته بعد ما بطّوا المقاومة راسه. بعد، لا تنس إن خاله تاجر عقار معروف أبًا عن جد وخير جده وأفضاله على أهل الديرة وغيرهم محَد ينساها، عايلة أصيلة والنعم فيها، بس آه يا القهر، لولا بنتهم اللي خذت هالغريب، وهذي تاليتها. فأمر العم بوجاسم نعطيه فرصة طالما عيالنا في الحكومة أدّبوه، ونخليه تحت المراقبة، ومهمة المراقبة.. عليك انت.

بالطبع تقع مهمة المراقبة عليه، فمن غيره يحمل همَّ ضمان استقرار المدرسة وعدم تعكير نظامها بأحداث الغزو والتحرير. من غيره يحمل على رأسه إدارة هذه المدرسة ومسؤولية كل ما يقع فيها. فالمدرسة ليست حكومية بل عربية خاصة، ومعظم الطلبة مقيمون: فلسطينيون وأردنيون وسوريون ولبنانيون ومصريون، أما الكويتيون فيعدّون على الأصابع. لكن يبقى مزيجًا خطرًا سريع

الاشتعال إن جاء أحدهم بصاعقٍ كالذي فجّره غسان في مدرسته الحكومية. فحتى الطلبة العرب منقسمون: المصريون والسوريون واللبنانيون من دول التحالف، الأردنيون والفلسطينيون من دول الضد. وما زاد من صعوبة الوضع تعرض مبنى الابتدائي نهاية الغزو العراقي لحريق كامل على يد المقاومة أجهز على المبنى ومحتوياته، إذ اتخذ الجيش العراقي من المدرسة ثكنةً عسكرية شهدت اعتقال وتعذيب العديد من الكويتيين. والكل الآن -طلبة الابتدائي والمتوسط والثانوي والمعلمون- يتشاركون فصول وساحة المبنى الثاني. الازدحام وحده من شأنه أن يرفع عامل التوتر. وينبغي عليه بذل أقصى ما يستطيع لحماية مدرسته وطلبته من الصاعق الآتي عن قريب.

أول إجراءٍ اتخذه يومها لدى خروجه مكفهرًّا محمرَّ العينين من مكتب الناظر كان استدعاء رؤساء الأقسام العلمية إلى اجتماعٍ عاجل يشرح فيه وضع الطالب غسان أبو العز وحساسية التعامل معه. لم يكد يستهل حديثه بذكر مسألة كونه فلسطينيًّا من أبناء الكويتيات -وقبل أن يذكر اسمه- حتى قاطعه الأستاذ توفيق رئيس قسم اللغة العربية وأحد المعلمين الفلسطينين القلائل الذين تمسكوا بالبقاء في الكويت: «يعني يا أستاذ عاصم إنت مغلبنا ومصعدنا الدرج ومجمعنا حواليك لحتى تحكيلنا إنه جاينا طالب فلسطيني مصدق حكي إمه آخر الليل وعامل حاله كويتي، يا أخي هالأشكال مروا علينا من قبل وربك يعينهم على الهبل اللي عايشين فيه». أهلس رؤساء الأقسام فيما بينهم، أما الأستاذ عاصم فالتزم

الصمت حتى انتبه لصمته الجميع وعمَّ الهدوء الحجرة، وأجاب، شاخصًا في السائل المتبرِّم: «اللي راح نشوفه أنا وإنت يا أستاذ توفيق أزفت من هيك بكثير،

اللي جاينا فلسطيني،

عامل حاله فلسطيني!».

هذا الصباح، ما إن وصله خبر الحادث الذي تعرض له غسان في الباص، حتى أيقن الأستاذ عاصم بأن ما وقع لا بد رحمة إلهية اخترقت سحب السموات وبيدها انتشلت طير الشؤم عن قمة رأسه. فور أن تطأ أمه عتبة الباب لن يهدر لحظةً واحدة يصغي فيها إلى عبارات التوسل والرجاء بمنحه فرصةً أخرى. سيبلغها بأخذ خيارها الآن، إما تقديم طلب نقل غسان إلى مدرسة أخرى، وإما استلام قرار فصله لافتعاله مشكلة كادت تودي بسلامة الطلاب. بعد حادث كهذا حتى العم بوجاسم -واسطتها المتكئة عليها- لن يعارضه في قراره.

مطمئنًا إلى خطته، أخذ الأستاذ عاصم نفسًا عميقًا وفي تنهيدة طويلة زفره ثم عاد يجلس إلى مكتبه. خلع عنه نظارته، حمل بين يديه ورقتي النقل والفصل، يدنيهما إلى عينيه، يراجعهما، في انتظار وصول الناظر الصوريّ للتوقيع عليهما. ليته فقط يصل قبل وصول الأم كي لا تطول المسألة. ما كاد ينتهي من مراجعة القرارين وإذ بطرقٍ مستعجل يقرع باب مكتبه ويندفع السكرتير داخلًا، شاحب الوجه، دون انتظار سماع الأمر بالدخول.

«ولي أمر الطالب غسان أبو العز وصل».

«خليها قاعدة بره، لا تدخلها إلا لمَّا».

نظرة واحدة، مغبشة، على وليِّ الأمر ينحي السكرتير جانبًا بيده ناهرًا إياه ويصفق ببابه ويجلس بصفاقة على الكرسي أمام مكتبه، كانت تكفيه كي يدرك إلى أي مدى أضحى غسان شبيهًا بحال وطنه المزعوم.

مخلبٌ في العين لا يزول.

(٦)

كانت تجرُّه خلفها لدى هبوطهما الدرج المؤدي نحو بوابة المدرسة حين اصطدمت بضابط عسكري، لا اصطدامها به ولا قحبة التي سمعتها منه هدَّأتا من شدة عصوفها. التفت أيمن إلى الوراء، محاولًا الاعتذار ولو همسًا نيابةً عن أمه، لكن الضابط ما اكترث وفي خطىً ثابتة أكمل طريقه صعودًا. منهك القوى، بذل أيمن أقصى جهده علَّه يجاري سرعة أمه، عقله يصمُّ أذنيه عن شكاوى الألم الصادرة عن سائر أعضاء جسده، أعلاها رنين ضرب المطرقة على عينه اليمنى. فالأولوية المطلقة الآن لدى عقل أيمن ألا يشعل غضب أمه أكثر مما هو مضطرم. حتى أنه لم يتسنَّ له مشاركة أمه الخبر السعيد:

إمي إمي.. اليوم صار عندي صديق.

فعقله شكم لسانه قبل أن ينطق الخبر، عارضًا عليه ما سيحدث إن أفشى خبر صداقته، وما رآه أيمن ما كان بالمشهد اللطيف.

أما ما سيحدث بعد خروجه من المدرسة، فما كان من داع لعقل

أيمن أن يريه إياه، فقد عاشه من قبل. ستدفع به أمه نحو المقعد الخلفي لسيارة الجارة التي استجابت مرة أخرى لندائها، وعلى أرضية السيارة تلقي بكيسي القمامة الأسودين، تقذف أحدهما مباشرةً على ساقيه، وتصفق الباب. ما إن تستقر على المقعد الأمامي حتى تبادر فورًا بالاعتذار محرجة من رائحة ابنها، شاكيةً لجارتها حيرتها في إيجاد حل لمشكلته. *كله من هالغيوم السودا الله يلعنها*. لن يصغي أيمن إلى نقاشهما المستفيض عنه *وعن الغيوم السودا الملعونة*، بل سيدع عينيه تسرحان يتأمل السحب خارج النافذة المفتوحة، مزقٌ داكنة بالية تتمزَّع في زرقة السماء. *السحب السوداء تنقشع عن الأمل*، سمعها مرةً في حكاية من حكايا أمه قبل المنام، لكنه بات أدرى من تصديق ذلك، هي تنقشع عن الأمل هناك، في الغابة، لا هنا في الصحراء. وما إن تصل بهما الجارة إلى البيت، حتى يوقظه عقله من سرحانه ويعود به خلف أمه. وأمه ستفتح الباب، ستتناول كيسي القمامة وترمي بهما على الرصيف، ثم ستنشب أصابعها في ساعده وتنتره عن المقعد، مكررة اعتذارها لجارتها دون منحها فرصة إكمال عرض مساعدتها. ستجره خلفها على درجات سلالم العمارة، حاملةً بيدها الأخرى الكيسين. فخيار استخدام المصعد غير متاح إثر شكاوى السكان من الرائحة التي تعلق في المصعد إن دخله وهو على هذه الحال. ما إن يصلا باب الشقة تفك قبضتها عن ساعده، تقحم المفتاح في الباب وتدفعه. لن تدفعه بقوة، لكن بوكزة على كتفه كي يعلم أنها ليست سعيدة بوجوده معها الآن. سترمي بالكيسين عند الباب إلى أن يحل عليهما الدور،

وتعود تقبض على ساعده وتجره إلى الحمام. ستخلع عنه ملابس *الشحادة* التي ألبسوه إياها. وتلك الملابس لن تغسلها، فالمدرسة لا تود استعادتها، لذا ستخلعها عنه وترميها في القمامة. لكن.. لكن اليوم ليس كباقي الأيام. ثمة تفصيلٌ صغير يجعل مشهد اليوم مختلفًا عن سابقه. فالقميص الأبيض معروفٌ صاحبه وستضطر إلى غسله وإعادته إليه، كذا أخبرها مدرس البدنية -مشرف الساحة- الذي رافق أيمن حتى باب مكتب سكرتير الوكيل كي تستلمه، مشيرًا إلى أن طالبًا آخر صاحب القميص الذي يرتديه ابنها. وهكذا، بعد أن خلعت عنه كل ملابسه، أقحمت يديها تحت إبطيه ورفعته إلى حوض الاستحمام وبقوة فركت جلده وبالماء البارد رشت جسده لأنها من عجلتها نسيت تشغيل السخان.

مرةً أخرى أقحمت يديها تحت إبطيه الزلقين ورفعته عن الحوض حتى تنشفه بسرعة قبل أن *ياخذ* برد، لكنها أدركت أنها نسيت إحضار المنشفة، فطفقت تعوي ملء رئتيها، تلعن والده، تلعن الساعة التي تزوجت فيها، الساعة التي تركت فيها الجامعة، الساعة التي لم تغادر فيها هذه الأرض برفقة أهلها، الساعة التي أنجبت فيها طفلها الغبي الواقف أمامها، والذي يومًا لن يكون سندًا لها. وفي عويل صراخها ولعناتها، وجهها يترقرق في عينيه، هرعت خارج الحمام تاركةً طفلها وراءها عاريًا، جسده النحيل يرجف بردًا، من رأسه إلى أخمص قدميه.

لكن لا، ليس اليوم.

لن يبكي أيمن على أمل أن يفر حزنه من قلبه بانتظار الدفء على يد والدته ومنشفتها التي ستحضرها بعد دقائق تمر عليه سنوات، فعقله الآن بات يعرف ما يصنع في موقفٍ كهذا.

سيطلب منه أنْ يسدل جفنيه

أنْ يدع الدمع يتهاوى ندىً عن عينيه

سيرجوه أن يأخذ نفسًا عميقًا

ورويدًا رويدًا

يرخي ذراعيه المتشابكتين على صدره ويمددهما على جانبيه

وبأمرٍ منه

ستهديه ذاكرته إحساس القبلة الغالية على ظاهر يده

وتعيد عليه همسة صاحبه الوحيد غسان في أذنه هذا الصباح:

لا تخاف

لا تخاف.

(٧)

خلف مدرس البدنية مشى غسان مرفوع الهامة، فخورًا بصنع يديه. بالنصر الذي سيحققه سريعًا، أسرع بكثير مما توقع. توقع تحقيقه في أيام، أو أسبوع على الأكثر، لكن أبدًا ما تخيل الانتصار وقدماه بعد لم تطأ المدرسة؛ والفضل كل الفضل يعود إلى صاحبه أيمن مرعوب وسائق الباص الخرف. كم هو متشوقٌ لرؤية وجه خاله حين يراه على هذا الشكل، حين يرى أن عصاه السحرية في حل الأمور خانته هذه المرة، حين يعي أن ثورة غسان لن تخمد، جمرتها المشتعلة في رماد جسده لن تموت والنار التي تحرق قلبه ستمطر جحيمًا على خاله وأمه، وكل إنسان في هذا الوجود. والجميع سيعلم أنه فلسطيني، لأنه سيتصرف بوقاحة كالفلسطيني. مثله، سيتحدث بثقة عمياء، وسيرى العالم كله متآمرًا ضده وهو الوحيد من يتمتع بالذكاء الكافي حتى تنجلي له خيوط المؤامرة واضحة كالشمس في كبداء السماء. سيدخن بشراهة مثله.. سيلعن ربه ورسوله مثله.. سيرمي العمالقة دون طائل وبكل غباء بالمقلاع والحصى مثله. سيحتفل كالأحمق بكل

انتصار وهميّ صنعه قبل أن يرى هزيمته الحقيقية على وجهه تصفعه، وحتى حينذاك.. حتى حينذاك سيرى في تلقيه الصفعة انتصارًا مشرفًا يخلد ذكراه في النشيد والقصائد..

تمامًا

تمامًا مثله..

سيدفع بنفسه كل يوم إلى هاوية الموت على أرضه وأرض الغرباء مثله

سيعشق بجنون اليائس مثله

وسيخون من يعشق بأرخص الأثمان مثله.. وفي النهاية

في النهاية

سيأتيه الموت برصاصة بين عينيه

وفي الشارع

سيُرمى كالكلب الشارد مثله.

كان أعد ديباجته مسبقًا، متوقعًا حضور خاله. فأمه -ولي أمره الفعلي- لن تحضر. هو متيقنٌ من ذلك. ويا الله، يا الله كم سيتلذذ بمشاهدة خاله يحاول عبثًا تبرير تصرفات ابن أخته، تبرير هذيانه أنه حقه الإلهي كفلسطيني الجلوس على المقعد الأمامي. تخيله يتلعثم، يتعرق، يتقهقر في حضرة الناظر محرجًا منه؛ فكيف لرجل مثله، بنفوذه وأصله وماله، أن يعجز عن رأب الصدع في بيت أخته

– أخته أرملة العميل الخائن. وقلب غسان سيرتاح قليلًا.. قليلًا. أمرٌ واحد وحسب سيقض مضجعه ويعكر عليه صفو انتصاره: اضطراره إلى استغلال ذاك الصبي. تمنى غسان لو لم يضطر إلى ذلك، لكن الفكرة خطرت له ما إن صعد الباص، ما إن لمح على انعكاس المرآة عيني السائق تنظران بقلق صوب الصبي الجالس خلفه، وتنفسه الصعداء مع بلوغ غسان المقعد الشاغر في الصف الثالث. حدسٌ راوده أن السائق يحمل في قلبه معزة خاصة للصبي الصغير. لربما حفيده أو أحد أبناء معارفه. لكن، ما حصل لأيمن لاحقًا اضطره إلى تغيير خطته. لم يشهد ضد السائق ولم يدَّع عليه بالضرب دون مبرر، بل التزم بالقصة التي اخترعها الصبي الكويتي في المستشفى ورواها على أسوأ ما يكون، أن سقوطه على الدرج ما كان سوى حادث غير مقصود، السائق توقف فجأة بالباص إثر تقيؤ ولد من الأولاد دونما الانتباه إلى نهوض غسان رغبةً في تغيير مكانه فتعثر بعلبة مناديل ورقية مرمية وفقد اتزانه ووقع. بمجرد سماع سرده، الكلُّ علم أنها مجرد كذبة، بمجرد سماعها، لكنها كذبة يسهل تصديقها، ولا مناص من تصديقها، إذا ما أراد الجميع تفادي عواقب الحقيقة.

وها باب مكتب الناظر. مدرس البدنية، بيده المرفوعة، صدَّه عن أي خطوة أخرى، وأشار له بالجلوس على المقعد الجلدي الأسود في الزاوية. ما إن جلس حتى وقعت عيناه على رزمة كتبه ملقاة في سلة المهملات. بشرى خير. رفع رأسه والتقت عيناه بعيني السكرتير المتوترتين خلف مكتبه، وفورًا أشاح السكرتير وجهه

ونهض عن كرسيه ووقف يميل برأسه عند الباب، يرهف سمعه عله يتسقَّط كلمة أو كلمتين. سيصله أكثر من كلمة أوكلمتين متى دخل غسان، حتى أنه سيحرص على إعلاء صوته كي يسمعه السكرتير جيدًا. إذ ها هي، ها هي اللحظة التي سيصفع بها غسان خاله، لحظة تستحق كل الألم الذي يشعر به الآن حارقًا عينيه، فالقًا رأسه نصفين. وإذ يتناهى إليه سعالٌ حاد، سعال مدخن يشبه سعال والده، ولشذرة ثانية، أوهى من الشذرة بمرات، ظن أنَّ والده من يسعل داخل المكتب في انتظار ابنه يدخل عليه من الباب.

الباب فُتح، مدرس البدنية خزر السكرتير وسريعًا غادر الجناح. جامدًا في مكانه، أشار إليه السكرتير بالدخول *تفضل. زاد فضلك*، قالها هازئًا، وإذ به، قبل أن يتجاوز حتى عتبة الباب، يدرك كيف أن الصفعة التي انتواها لخاله سترتد عليه اللحظة.

الصَّاع صاعين.

* * *

أنف غسان كان أوَّل من أنبأ قلبه بهزيمته النكراء، قبل أن تكشفها عيناه، وقبل أن تهرع إليه بالخبر أذناه. ما كان من داع كي يرى من بعث به خاله ليحتل المنصب الشرفي وليًّا لأمره. ما كان من داع كي يرى الزي العسكري.

قدماه، صاغرتان ذليلتان، تطآن عتبة الباب، وما إن تغمره الرائحة حتى يغص غسان بكلماته، يختنق بدخان خططه التي راحت نارها سدًى وما خلَّفت وراءها إلا الرماد.

«تفضل ابني غسان».

لم يجد ناظرًا كويتيًّا في انتظاره؛ حتى تلك الجزئية الصغيرة من خطته لم تتحقق، بل وجد عوضًا عنه فلسطينيًّا أو أردنيًّا أو خليطًا من الاثنين. لدى جلوسه على الكرسي حيث أشار استرق نظرة إلى الرجل خلف المكتب. كم يشبه ذاك الرجل أباه، وكم يختلف عنه. أطرق برأسه، وشبَّك يديه بين فخذيه. كف يده اليسرى تخبئ تحتها ظاهر يده اليمنى.

«طمنا عنك ابني، منيح؟».

أومأ دونما ينطق بكلمة.

«غسان شلونك ابوي.. خطاك السو».

أومأ بحدة، يختلس نظرة سريعة نحو الرجل مقابله.

«ما كنت أتمنى إنه يومك الأول عندنا يبدأ بهالشكل، بس الحمدلله على سلامتك ابني. أنا وعدته لحضرة الضابط إني أشوف الموضوع بنفسي ولهيك بدي اتأكد منك شو صار.. ولا تخاف مني، جاوب بصراحة ولا تخبي شي. السائق تعرض لك بأذى عن عمد؟».

هزَّ رأسه.

«يعني الموضوع مثل ما خبرني اياه بو محمد عالتليفون.. كله كان حاد.. حضرة الضابط!».

قدما غسان تراجعتا إلى الوراء ما إن نهض الضابط من على

كرسيه. وها هو يقف الآن فوق رأسه، يربت بحنان على كتفه اليمنى.

«ارفع راسك خل اشوف جرحك».

لا يرفعه.

«حبيبي غسان ارفع راسك».

لا يرفع غسان رأسه، وحتى إن أراد، فكيف له؟ دمه يفرُّ مذعورًا من أخمص قدميه إلى رأسه، القطرة منها تدوس الأخرى تبغي النجاة. أثقل ما في الكون الآن رأسه، ومع ذلك، ها الضابط يرفعه من شعره كمن يقبض على فراشة من جناحيها. كل عين أسدلت الستار على نفسها واختبأت. كل أذن دفنت نفسها في الرمال حيث لا يصل صوت ولا صدى رغم يقينها بأن الاثنين سيصلان. كل خلية عصبية تجمدت في محلها امتثالًا لأمر العقل بألا تنقل أي إحساس من الجلد حيث يتلامس الجسدان، فتلك المعلومة لا يود العقل الاطلاع عليها ومعالجتها بأي شكل من الأشكال. شفتاه المزمومتان صدَّتا البوابة أمام أي كلمة غبية بمكان أن ظنت أن في وسعها التسلل خارج الجدار المحكم وتصرخ بحقيقة الحال.

«طيحتك قوية... الله حفظك».

الكفَّان الآن قابضتان على وجهه، يشعر به يتمحص جبينه وعينيه وأذنيه وأنفه وشفتيه كما الأم تتفحص وجه طفلها من خشيتها عليه.

«يا حضرة الوكيل علموا سواقينكم الحمير يسوقون شوي شوي... المفروض يتحول السايق المخفر وينفتح له محضر وينقط في النظارة يخيس حتى يتربى وما يعيدها... ولدنا كان راح يروح من بين ايدينا وانت قاعد تقول لي حادث!».

«معك حق حضرة الضابط.. بس كمان ابنكم الله يسامحه قام بسرعة و..».

«شوف شوف قبل ما تكمل.. الولد يقوم بسرعة يقوم شوي شوي كيفه.. إذا تبي تلوم ولدنا على اللي صار فيه الحين نروح المخفر أنا وياك وسايقكم هالچلب وناخذ الولد معانا وهناك نشوف مين فينا الغلطان...»

«يا حضرة الضابط ما في داع ننفعل ونكبر الموضوع...».

«عيل انچب وشكروا ربكم بعدها الديرة ضافَّة أشكالكم الوصخة!».

صمتٌ ثقيلٌ خيَّم. عين غسان اليمنى تخلت عن حذرها.

«أفا عليك غسان.. انت صرت ريَّال ما يصير تبچي مثل البنات. لا تخاف ما فيك إلا العافية، كلها كم يوم والجرح يطيب».

اليدان ترتفعان عن الوجه وتحطان بكل ثقلهما على الكتفين.

«ما تشوف الولد تعبان ويرجف.. وجهه محتقن ومو قادر حتى يتكلم.. لازم آخذه البيت الحين يرتاح.. يكفي البهذلة اللي شافها عندكم. اسمعني زين! هالمرة تمر من غير مخافر.. المرة الجاية تسفير

واستبعاد على طول. انت وسايقكم وأي واحد في هالمدرسة يمسه بحرف! فهمت! ولا تنسَ! كتبه الجديدة بدال اللي توسخت تسلمها إياه بنفسك قبل ما يدخل صفه.. يلَّا غسان قوم خل نمشي».

وها العقل يصدر أوامره الصارمة إلى جموع الدم المحتشدة بأن تعود كل قطرة منها إلى موقعها وتنخرط في أبدية الجريان دون سؤال عمَّا جرى لها التو وعمَّا كان؛ أن تنتشل الأذنان نفسيهما من أكوام الرمال وتصغي جيدًا لكل ما يقال وما لا يقال دونما تحقيق واستجواب؛ أن ترفع كل عين عن نافذتها الستار وتستقبل الضوء في بيتها أكرم استقبال، لكن ليس قبل أن تحكم إغلاق الترس أولًا على روح غسان؛ أن تعاوِد كل خلية عصبية الجري في حلبة السباق السريع وإمداده بما يلزم لتقييم الحال وإصلاح الشرخ الذي كان؛ أن تنفرج الشفتان عن الجدار الموصد فما عاد من خوف أن تتسلل من فمه الكلمات.

فكلها غرقت في مستنقع النكران

وما عاد لأيٍّ منها أملٌ

بالنجاة.

(٨)

ما إن يركن الجمس الأسود حتى يندفع غسان خارجه. في جيب بنطاله نسخة من المفتاح، ومع ذلك، يداه تطرقان بكل قوة حدَّ ارتجَّ الباب على وقع ضرباته. *زين زين!* بيد أنَّ الزعيق الصادح من الداخل لا يخرس قرعه، ولا حتى صوت المفتاح يلج القفل. ما إن التقطت أذنه صرير المزلاج حتى دفع بالباب وبها وهرع نحو السلم الحلزوني في قلب الردهة الفسيحة، أمه من خلفه تجري تاركةً الباب مفتوحًا، ومن ساعِده أمسكت به.

«غسان شفيك؟».

يقبض على يد أمه المتشبثة وينتزعها عنه:

«سلامة نظرك ماما ما فيني شي».

يدها التي انتزعها عنه، ويدها الأخرى، تصالبتا مع الذراعين أسفل صدرها، وملامح وجهها تجمدت على وضعية اللامبالاة. لم تكرر عليه السؤال ولا أنبته على وقاحته. فقط وقفت تنعم النظر

فيه كأنما تتأمل صورةً معلقة أمامها على جدار: وجهه الأبيض مرهق يشوبه الاصفرار مثل القميص الرخيص الذي يرتديه، صفٌّ من الغرز السود أعلى عينه اليمنى، خصل شعره الكستنائية مثل شعر أبيه، عقصٌ ملتفة حول نفسها، أما عيناه.. عيناه الرماديتان.. فكلتاهما محتقنتان، ترجوان منها كلمة واحدة.. كلمة واحدة تشعل الذر العالق بينهما فيتسنى له حرقها بأقذع الكلمات ويرتاح. لكن انتظاره يطول، ومهزومًا، فرَّ منها صاعدًا بقية السلالم نحو غرفته، مسجلًا لها غضبه مع دوي صفق الباب.

«شلونچ غادة!».

جفلت واستدارت إلى الوراء، رأته واقفًا عند عتبة الباب. لم تكن على علم بأنه من أحضر ابنها، ظنت أخاها سيتولى المهمة المزعجة. لو كانت تدري لحرصت ألا تظهر بهذه الهيئة المزرية، برداء بيت أخضر فضفاض مع نصفيْ كم والحاشية أعلى الكاحلين بقليل، موشّى بورود جوري بيضاء ضخمة مبقعة بالماء والصابون بعد فركها أرضية الحمام، بكعبي قدميها المتشقّقين في خفيّ نعلها، بشعرها الأسود الكثيف مربوط في ذيل طويل على استعجال.

مقتٌ لا يطاق فار في صدرها تجاه غسان، لكن سرعان ما تمالكت نفسها. ومثل ملكة تستقبل في بلاطها أحد أفراد حاشيتها، رحبت به:

«هلا خالد.. حيَّاك..».

وكما أمرت، دخل خالد وتوجه نحو الأريكة في بهو الاستقبال حيث أشارت. ما إن جلست جلس، منتظرًا منها إشارة البدء بالكلام.

«شلون الوالدة خالد، ان شاء الله بخير».

«تسلم عليـچ. ودها تشوفـچ وتتطمن عليـچ وعلى العيال».

«الله يسلمها».

في إيماءة رأسه المتعضة وإطراقه قرأت غادة إدراكه ما تلمِّح إليه صراحة: أن أمه غير مرحَّب بها. ولولا وضع ابنها غسان لما كان هو الآخر مرحَّبًا به. رفع رأسه وتوقعت عينيه المنكسرتين واستئذانه المحرج للمغادرة لكن فيهما لمحت بارقة مفاجئة، ابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه، كأنما سمعها تنطق اسم غسان في مخيلتها، فانتهز الفرصة كيما يرد عليها إهانتها.

«ترى غسان خوش ولد.. ما أبيچ تزعلين منه. هو بس متضايق من اللي صار مع أبوه. مو سهل يتيتَّم ولد بهالطريقة».

غسان يده العليا عليها؛ ليس طويلًا؛ فهي في صدد بترها!

«غسان مو يتيم. أنا وخاله موجودين. وهالخير اللي تشوفه هو عايش ومرتاح فيه. فماله داعي تحاتيه».

وها هي البارقة في عينيه تنطفئ. غسان لن يعيش اليتم الذي عاشه خالد. خالد وُلِد لأب فقير، وضيع، كويتي من الدرجة الثانية، بيسري، وفضل تجنيسه يعود لأبيها. بينما غسان ولد لأم

ثرية، راقية، بنت *بطنها*، كويتية من الدرجة الأولى. وشتان ما بين اليُتْمين.

«عمركم طويل وعساكم دوم موجودين حق عيالكم، بس..».
صمت لوهلة ثم أردف، في نبرة واثقة، «اسمحي لي غادة، وقت الغزو انت وخاله ما كنتوا موجودين». ينصب ظهره ويرفع ساقًا على ساق، «*انحشتوا* وقضيتوا خوش إجازة في لندن على حساب الحكومة، أنا اللي ظليت صامد في الكويت، وقاومت، وولدكم غسان اللي تركتيه وراچ عاش في بيتي أصعب خمس شهور في حياته، ولولا إني لحقت عليه لمَّا المقاومة اقتحموا بيتكم في الجابرية وأقنعتهم يتركونه كان ذبحوه مثل ما ذبحوا أبوه، المرحوم *ريلچ*».

هكذا، بكل وقاحة، رمى في وجهها بورقته الرابحة. كم من الإذلال مضطرةٌ إلى ابتلاعه نتيجة عناد ابنها. لو أنه سافر معها ومع أخته إلى لندن حين سنحت لهم فرصة المغادرة مع أخيها عوضًا عن إصراره على البقاء مع والده، لما كبَّلها معروف هذا الخسيس عن الرد بما يليق به.

«ما أقصد أزعلچ بكلامي.. الله يعلم غلاتچ عندي.. انت بنت خالتي وتربينا سوا.. وخير أبوچ الله يرحمه عليّ وعلى أمي وأبوي ما أنساه.. وعلشان جذي مستعد أساعدچ على غسان باللي أقدر عليه».

ما أثَّر فيها تملقه المصطنع، اعتذاره المتشفي. تظل على نظرتها المستعلية، على ظهرها المشوق، ساقها اليمنى بكبرياء مرفوعة

على اليسرى، ذراعاها بإجلال تتكئان على مسندي مقعدها كأنها جالسة على عرش من ذهب. هي صاحبة المعروف وصاحبة البيت وصاحبة المال، هي ابنة البلد وأم الولد، لن يدخل رجلٌ بيتها بعد اليوم ليتصرف كأنما هو السيد عليها لا هي السيدة عليه.

فلا نيَّة لديها على ارتكاب الخطيئة نفسها.

مرتين.

* * *

جاثيًا على ركبتيه. متكئ على حافة المرحاض. رائحة قيئه تثير فيه نوبة أخرى من الاستفراغ. عضلات جسده متشنجة والألم في رأسه ينسل مع القيء هبوطًا نحو القاع.

ما إن تستسلم معدته، ولا شيء تبقَّى تلفظه خارج جدرانها، يمد ذراعه الموهنة ويسحب السيفون ثم، في رويَّة، ينهض من على البلاط. يخلع عنه القميص والفانيلة ويلقي بهما في الزاوية، لكن سرعان ما يباغته الدوار وبأصابعه يتشبث بحافة حوض المغسلة. يأخذ نفسًا عميقًا، يثبت قدميه على الأرض، ويدير صنبور الماء البارد. يتناول قطعة الصابون وينهال فركًا على ظاهر يديه وراحتيه وفي كل فجوة بين أصابعه. يفك قبضته عن الصابون وترتطم بفوهة البالوعة الصغيرة وتستقر عليها؛ يقلّب يديه، يتأملهما، زبد الرغوة يغطيهما. يضم إصبعيه السبابة والوسطى وبهما يكشط الرغوة عن يده اليسرى، فتتجمع حول إصبعيه كما غزل البنات المنفوش. يرفعهما ويقحمهما في فمه، يفرك سقف حلقه، باطن خديه، لسانه،

لثته، أسنانه، يخرج إصبعيه ويبصق الرغوة. يغمر يديه في بركة الماء المتجمع، يتأمل لاهثًا كيف، في غمضة عين، استحال الماء آسنًا. في وسعه أن يزيح قطعة الصابون، بطرف أي إصبع من أصابعه، وما إن تنزاح حتى ينجرف الماء بكل ما علق فيه نحو دوامة البالوعة الصغيرة السوداء، وسيجري في دفق عبر متاهات المجاري قبل أن ينتهي سقطًا في البحر.

لا يفعلها. يبقي على يديه متدليتين من على حافة المغسلة، أطراف الأصابع تخوض في البركة التي فاض بها الحوض، الماء العكر يتشلشل منها سقطًا على الأرض، وها الحوض يعود طاهرًا. الصوت الهادر للماء يهدئ من روعه، أنفاسه تتباطأ، عضلات جسده المشدودة ترتخي. وكما الطفل العالق بين الصحو والمنام، تتحرر روحه من خيوط عقله، ترف جناحيها الرقيقين الهشين محاولةً الصعود، محاولةً الفرار. *ألا ليتك تستسلم*، تهمس متضرعة في أذنه، ألا ليتك ترتاح. كيف لك أن تطيق كل هذا الألم؟ كل هذا الصراخ؟ كل هذا الأذى؟ ألا ترى؟ هالحل البسيط أمام عينيك، أمام عينيك، ألا ترى الماء؟ أنت واقف الآن على حافة الماء، وللماء أن تطفئ النار، حتى نارك السوداء.

رأسه ينوس، الروح تخفق وترف، تخفق وترف، ويغمر غسان رأسه في الماء البارد، موصدًا عينيه، موصدًا فمه. تخفق وترف، تخفق وترف، تتحين الفرار بجلدها، الانسلال خلسة عبر صدع نافذة عينه اليمنى، وما إن تفر ستهوي في قطرة ماء وتنجرف خارج هذا

البيت الملعون، خارج هذه الأرض الغريبة، خارج هذه الحياة. وكادت تنجح في مسعاها، كادت تنجح، لولا أن صوت باب غرفته، يُفتح ويوصَد، يوقظ عقل غسان من سباته فينتفض آمرًا الرأس بأن ينتشل نفسه حالًا، بأن تسحب الرئتان شهيقًا عميقًا، بأن تزيح اليد اليمنى الصابونة وترمي بها خارج الحوض وتخلي سبيل الماء المحبوس فيغرق في غياهب الظلمة دونما عودة.

أما الروح...

قصم العقل جناحيها، صاغرةً ذليلة أعادها على عرش القلب، وعلى معصميها وكاحليها أحكم قيده، على عينيها شد الرباط الأسود وبيده العارية حشر صراخها في جوفها.

بعدها.. بعدها انحنى فوقها وقبَّل رأسها وجلس قبالتها، وراح يعاتبها بمحبة وحنان على مجرد التفكير بأن لها أن تفر من هذا الجسد دون أن يأذن لها هو بالزمان والمكان.

يتناول غسان المنشفة، يمسح وجهه وعنقه وصدره ويديه ويهمل شعره. لا يريد لأمه أن تراه على هذه الصورة، لا يريد لها أن تقرأ على وجهه ما صنع وما كاد يصنع. سيفتح باب الحمام وسيجدها جالسة كعادتها على طرف فراشه عند وسادته دعوةً له للحديث معها، وهذه المرة لن يتجاهلها. لن يصرخ في وجهها ويطردها. سيجلس إلى جانبها، سيرمي برأسه المجهد على كتفها، وستحضنه إلى صدرها وتتشبث به بين ذراعيها ولن تدعه يقع في الهاوية السحيقة التي يقف مترنحًا على حافتها. سيسمعها تهمس له

أنها آسفة وأنها تسامحه وأن كل ما بدر منه هي ستنساه، وسترجوه أن ينسى هجرها له ويصفح عنها. هو لن يوافقها ولن يعارضها، سيطوقها بذراعيه أكثر وأكثر، سيدفن عينيه وأنفه وشفتيه في عنقها أكثر وأكثر، وحين تشعر بأنفاسه المتلاحقة على جيدها تهدأ، سترفع رأسه عن كتفها وتلثم جرحه، سترفع اللحاف عن فراشه وتربت بكفها مرتين على الوسادة كما كانت تفعل حين كان طفلًا، إشارتها أن وقت اللهو والحديث معها عن أحداث يومه وقصص رفاقه وأحلامه ومغامراته مع أبطاله الفضائيين جراندايزر وجونجر والرجل الحديدي انتهى والوقت أزف ليضع رأسه على وسادته وينام. سيستجيب صاغرًا لأمرها لأنه يعشق ابتسامة عينيها.. وكلّه اشتاق إليها. سيستلقي على ظهره وتدثره باللحاف حتى لا يبرد، ستحضن وجهه بحنان بين كفيها وتقبّل كل عين من عينيه، سيسمعها تعده بشوربة ماجي حين يستيقظ من منامه وعيناه ستسدلان الستار على نافذتيهما كي يشعر أكثر وأكثر بدفء راحتيها.. بملمسهما على شغاف قلبه. وسيسامحها، قلبه سيسامحها اليوم، وغدًا.. غدًا سيعاود عقابه الأليم.

عليه وعليها.

يلقي غسان بالمنشفة على الأرضية، في الزاوية حيث القميص المرمي.

يختلس نظرة سريعة على نفسه في المرآة.

على وجهه يرتسم طيف ابتسامة طفولية لا تعبِّر عن واقع الحال.

يمسك بالمقبض

يأخذ نفسًا عميقًا

ويفتح الباب.

وكما أنبأه هسيس روحه الجزعة،

ما كانت أمه الجالسة في انتظاره

على طرف الفراش.

(٩)

اللي بعده... عبدالله... عبدالله حسين... *يا رب انك تصبرنا*.. شيخ عبدالله!

أخيرًا أفاق الصبي **عملاق** من سرحانه. يرفع رأسه نحو الأستاذ توفيق. الدور حان عليه كي يلقي أبيات القصيدة من مطلعها إلى الختام. بحكم موقعه الإستراتيجي على المقعد الأخير في الزاوية اليمنى من الفصل، هو موقن من حلوله في الترتيب الأخير بين المسمعين، فهذا ديدن الأستاذ توفيق مذ كان معلمه قبل الغزو، وما بدَّل الغزو ديدنه. صار يحفظ الأبيات أثناء استماعه لبقية الطلبة، وهذه المرة كان سيسمعها تتردد ثماني وثلاثين كرَّة، *باقون هنا.. باقون هنا* ولحفظها عن ظهر قلب *من الماء إلى الماء* مثلما حفظ كل القصائد التي سبقتها *من القلب إلى القلب*. ولما أهلس كما البقية على *الأم التي ترضعنا* ولنجا برأسه من نصل مسطرة أستاذه، *فالكويتيون باقون هنا، وسنلثم الثغر الذي يلثمنا ونقطع الكف الذي يضربنا*، أليس كذلك؟ كلَّا على ما يبدو.

مع دور الطالب الأول التقط عبدالله الكلمات، مع الطالب الخامس طارت كل الأبيات، مع السادس أعاد المحاولة، ومعه فقد كل اهتمام.

ينهض عن الدرج الضيق عليه، مستندًا إلى سطحه بكلا كفيه، معرّضًا نفسه للتأنيب العلني. لن يعارض ولن يتواقح ولن يقلل من احترام معلمه. لا! لن يفعل ما يسيء به إلى نفسه، فقد أضحى رجلًا، والرجل يتحمل عواقب خياراته. وعدم حفظه للأبيات سواء في البيت أو في الفصل خياره الذي أخذه عن يقين، عالمًا تمام العلم بعواقبه.

«نعم إستاذ».

الأستاذ توفيق جالسٌ مطرق الرأس، في بدلته الكحلية ذاتها التي يرتديها كل يوم، على أنفه تتكئ نفس النظارة البنية سميكة الإطار التي ما فارقته مذ رآه عبدالله أول مرة. في يده قلم البيك الأحمر. دفتر العلامات الطويل بعواميده العديدة ومربعاته بالغة الصغر مفرودٌ على طاولة المكتب. يرفع رأسه ويحدج عبدالله:

«صار دورك. تفضَّل سمِّعني القصيدة».

«مو حافظ إستاذ».

يزفر الأستاذ توفيق ويدفع بنظارته عن أرنبة أنفه، ورهبةٌ تعتري عبدالله أمام عيني معلمه تحدقان إليه بغضب وكأنما عبدالله بعدم حفظه للقصيدة تسبب حالًا بكارثة لن ينجو أحدٌ منها وعلى

معلمه تقع الآن مسؤولية الإنقاذ. سيفعلها الأستاذ توفيق. سيشتمه ويهينه وعليه أن يبتلع كل شتيمة كمن يبتلع بصمت حد السكين. بيد أنَّ الأستاذ توفيق يشيح بنظره عنه، يدسّ قلم البيك الأحمر في جيب سترته بعد أن غطاه، ويطوي دفتر العلامات. مجهدًا نهض، طقطقة ركبتيه تندغم مع صرير احتكاك سيقان الكرسي بالبلاط. مضى نحو السبورة السوداء، تناول الطبشورة البيضاء، ودون أن يلتفت إلى الوراء أشار إلى عبدالله بالجلوس، ثم بنبرة ظاهرها الهدوء توجه إليه بالكلام بينما يخطُّ عنوان درس النحو على السبورة *الفعل المبني للمجهول*:

«المرة الجاي تجي حافظ القصيدة».

«حاضر أستاذ».

يعاود عبدالله الجلوس في درجه، يفتح حقيبته ويتناول كشكول النحو. يفتح مقلمته ويتناول قلم الرصاص المبري والمسطرة. يسطّر الصفحة كما علمته عمته: خطين على طول الهامش اليمين، خطين راس الميلاد، خطين راس الهجري، وخطين راس العنوان. لا أحد من زملائه يسطر، ولا يذكر آخر مرة رأى فيها صبيًّا يسطر دفتره عداه. لكن ما بات التسطير الفارق الوحيد بينه وبينهم. فها هما ممدوح المصري وسامر الفلسطيني الجالسان على الدرج أمامه يتهامسان:

«هُوه الشيخ ده على راسه ريشه ولّا إيه. ما انا دلوقت اتهزأت لأني نسيت القمر والبلح».

«يا زلمة انسى.. ولشو يجي شيخك حافظ.. يكفي إنه كويتي.. مو بس يطلع له ما يحفظ.. يطلع له يدفع لك مصاري لتقوم عنه وتسمّع».

«إيه.. نحررهم بفلوسهم أحسن ما ناخدهم على خوانة!».

«الله يلعنك!».

عيناه على السبورة وابتسامة عريضة تشق شدقيه. فأستاذه، وكل طالب في فصله، بل كل من في مدرسته، في منطقته وأهله ووطنه بات مدركًا تمام الإدراك وضعه الجديد بعد الغزو. أوّلهم، وبكل تأكيد، جاره الفلسطيني الجديد، غسان منصور أبو العز، من يظن نفسه – مثله مثل كل من في الفصل هنا

أنه صدقًا

باقٍ هنا.

* * *

كان غاضبًا، عاجزًا حدَّ الخرس. ما إن عصف الضابط خارج المكتب ومن خلفه غسان منقادٌ مثل الأبله، رفع الهاتف على السكرتير آمرًا ألا يسمح لأحد بالدخول عليه حتى يعود ويتصل به. يلتزم نبرةً متماسكة، مفرطة الهدوء، خشية يفلت غضبه وتنجلي علامات الإذلال الذي عاشه أمام طالب من طلبته وولي أمره *اللي هو أصلًا مش ولي أمره*، ويا له من وضع يشقُّ على أي معلم احتماله.

لقاؤه بغسان خارج حدود الملف لم يؤكد ظنونه وحسب، بل فاقم مخاوفه. ثمة خطبٌ يعتمل في صدر الصبي، عفنٌ متوارٍ في جدران بيته. أين أمه؟ أين خاله؟ من الغريب الذي أرسلاه رغم معرفتهما بأن الولد أصيب في حادث ويتلقى العلاج في طوارئ مبارك. هو بلّغ الأم شخصيًّا بالهاتف بما جرى كي تذهب إلى المستشفى وتطمئن عليه، على أن تأتي لاحقًا إلى مكتبه، عدا أنها صدته ببرودها قائلة أنها ستأتي لاستلامه من المدرسة ما إن يعيدوه من المستشفى وفورًا أطبقت سماعة الهاتف. لم تزعق، لم تفزع، لم تجفل، لم تسأل حتى عن أي تفاصيل. ظنَّ برودها دلالة صدمتها، خزيًا اجتاحها فأعجزها عن المواجهة والدفاع عن ابنها حتى بسؤال واحد، ما شجعه على تنفيذ فكرته بتهديدها بالفصل إن لم تختر الانتقال بديلًا. لكن الآن، بات يرى هدوءها دلالة توقعها حصول أمر كهذا، بل الأسوأ: تأملها تعرض ابنها لحادث كهذا.

يا الله.. يا الله وأد مسألة غسان كان في قبضة يده، في قبضة يده، إلا أن إرسال الضابط الوقح إلى مكتبه بدَّل كل الأمور. لا .. لا *مو هيك*، الأمور تبدلت على يد الطالب الكويتي في الباص.. *شو اسمه.. آه عبدالله* حسين.. عبدالله من سيطر على الوضع المنفلت وبهدوء أعاده إلى نصابه. لولاه لاستفاد الأستاذ عاصم من الوضع الذي بالتأكيد كان سيتفاقم مع وجود صبي مغمىً عليه وسائق منهار عصبيًّا وطلبة مثارين في دوامة الفوضى. لتدخلت الشرطة وصدر عنها تقرير يؤكد اندلاع شجار افتعله غسان ولانتهت المسألة بأكملها دون أن يضطر حتى إلى إلقاء نظرة واحدة عليه أو

على أي فرد من أهله المعاتيه. ولما اقتحم ذاك الضابط مكتبه كأنما يملك المدرسة بمن فيها، لما هدده وتوعده بالتسفير هو وعائلته ولما أهانه شتمًا في مكان عمله، في حرم مدرسته، فقط لكونه أردنيًّا يحمل على صدره شبهة الغدر والخيانة منذ فجر التحرير.

ربما لو علم عبدالله بهوية غسان، من يكون وكيف مات والده وعلى أي تهمة قُتل، لما هبَّ سريعًا لمساعدته بهذا الشكل.. ما كان شغل مخه على غير عادة شعبه.. *أكيد.... أكيد!* بل كان سينقض عليه هو الآخر.. *كان راح يخلص عليه.. يتف في وجهه ويكسر له بدل الضلع ضلعين..* فعبدالله كويتي وله كامل الحق في ضرب كل حيوان فلسطيني يراه واقفًا أمامه. وحينها كان الصراع سينحصر بين طرفين: طرف كويتي وطرف نص كويتي. *وقتها نشوف كيف الضابط الجاهل ينفخ صدره قدام الكويتي وأهله.*

هي ذا.. ها الرب أوحى إليه بالحل..

لتطلّع النص كويتي.. سلِّط عليه الآفة اللي ألعن منه..

سلِّط عليه الكويتي.

أكيد أكيد.. هيك القصة تصير قصتهم.. كويتيين يحلّوها بين بعض بمعرفتهم.. بضباطهم بشيوخهم بأعمامهم بأخوالهم بتجارهم بحريمهم.. لا هو ولا طلبة المدرسة ولا معلموها ولا سائقو باصاتها سيكون لهم أي دخل في الموضوع.

فورًا رفع سماعة الهاتف وكلف السكرتير مهمة نقل غسان

من الصف الثالث متوسط (أ) إلى الثالث متوسط (ب) تليها مهمة الاتصال بكل معلم من معلمي الفصل (ب) وإبلاغهم بهذا التصريح: من الآن فصاعدًا الكل ينادي على اسم غسان كاملًا من دفتري الحضور والعلامات. *بأعلى صوتهم سامعني*.. يتنبه إلى فلتان غيظه فيعود إلى اتزانه، وقبل أن يقفل الهاتف، وفي نبرةٍ رزينة، يكلفه بالمهمة الثالثة:

ولا تنس فنجان القهوة.

* * *

صعد عبدالله درج الباص البرتقالي رقم ٦. لم يفاجأ بوجود بو رامي مشرف الباصات خلف المقود لا بو محمد. وبالتأكيد لم يفاجأ حين لم يجد الصبي الصغير جالسًا على المقعد الأمامي، كما لم يثر استغرابه بقاء المقعد شاغرًا رغم إستراتيجية الموقع. فالمقعد ارتبط في أذهان الجميع بالقيء والبول. واليوم امتزجت معها قطرات من دم غسان ما تزال عالقة على حافة المقعد العلوية. هو متأكد أن المشرف حرص على تنظيف الباص، فقد سال دم أكثر من هذا على العتبات الثلاث، على المقعدة والظهر، ولم يبقَ لذاك الدم أي أثر الآن. تقريبًا. فعبدالله يعلم عن يقين كم الدم عصيٌّ على التنظيف. ودائمًا ستجد قطرات من الدم وسيلةً تحتال بها على أقوى المنظفات وتنجو بنفسها من ابتلاع الأرض إياها. ويا لها من حياة طويلة ستنعم بها تلك القطرات تحت زرقة السماء، حياة تتجاوز مدى حياة صاحبها.

«يا إبني يا تقعد هون يا تكمل طريقك.. ما بدي شوف حدا فيكم واقف».

يستجيب عبدالله لنداء بورامي ولا يكمل طريقه، إذ ورغم أنَّ مقعده في الصف الأخير لا يزال شاغرًا، يقرر اليوم الجلوس على المقعد الأمامي، جانب الممر. لن يكون الوحيد الذي سيجلس على هذا المقعد اليوم، بل كل من في الباص سيكون له نصيب. فالسائق، وإن كان يحمل معه لائحة عناوينهم، سيطلب منهم الجلوس -كلٌّ حسب ترتيب دوره في التوصيل- على المقعد الأمامي خلفه كي يدله على طريق العودة إلى بيته. عبدالله يحتل الترتيب الأول على خارطة طريق الباص جيئةً وذهابًا. وما أثار استغرابه الشديد هذا الصباح أن ترتيب غسان جاء الأخير رغم أنه جاره على آخر الشارع. لم يكن عبدالله على علم بالتحاق غسان بنفس مدرسته، مدرسة النجاح الوطنية، لذا حين عاد بو محمد بالباص إلى شارع بيته قبل التوجه إلى المدرسة، حدسٌ أنبأه أن الباص سيستقبل غسان، حتى قبل أن يلمح طيفه واقفًا عند عمود الإنارة.

الحدس ذاته راوده الخميس الماضي ما إن وطئت قدماه سوق الخضار في جمعية القادسية. الوجوه المسودة، الشرر القادح في تخزير الأعين الملتهبة. *الفلسطيني* هني. وراح يتلفت باحثًا عنه وسرعان ما رآه واقفًا على بعد أمتار عند سحَّارات الخيار والطماطم، يدفع أمامه عربة تسوُّق شبه فارغة.

كانت المرة الأولى التي تقع فيها عيناه على غسان، لكنه علم هويته،

مثله مثل كل من كان في السوق. القلة تحاشوا النظر إليه، المعظم راح يحدق فيه. ومنهم عبدالله. لم تكن من عادة عبدالله أبدًا التحديق، لكنه وجد نفسه منجذبًا نحو ملاحقة الصبي الفلسطيني، مأسورًا به، حدَّ تدوين كل حركة يقوم بها على كشكول ذاكرته: إغماضة عيني غسان الرماديتين في انحنائه حتى يحمل صندوق الطماطم، الصفير في نفسه العميق لدى حمله الصندوق، تراجع قدمه اليمنى قيد أنملة إلى الوراء مع رفعه الصندوق إلى صدره، الارتياح العارم ما إن أودعه العربة، تناوله ورقة الطلبات من جيب بنطاله، اتكائه على المقبض الأحمر، قراءته القائمة المكتوبة لثانية (تنهيدة عميقة) ثانيتين (تنهيدة عميقة) عشر ثوانٍ (تنهيدة عميقة) وكأنما يقرأ كلمات مكتوبة بلغة غير لغته وعليه أن يأخذ وقته في تهجيتها. وأخيرًا، نصف الخطوة التي أخذها بعد كل تلك الثواني الطويلة والتنهيدات حيث صناديق الخيار الملاصقة لصناديق الطماطم، وتكرار المشهد من جديد.

الوقت يمر، عمته تنتظره في البيت، وكل ما عليه فعله شراء شدة كزبرة والعودة سريعًا حتى تعد أمه وجبة الغداء المفضلة لأبيه في انتظار عودته. لا بأس، دعها تنتظر، سيكذب عليها حين يصل، سيدَّعي التقاءه بأحد الجيران وكيف علق معه في حديث أفضال وبطولات أبيه الطبيب أثناء الغزو، أو حديث أفضال وبطولات الجار في اللجنة التطوعية. فكلا الحديثين عاشهما عبدالله عشرات المرات، ولن يصعب عليه تلفيق التفاصيل المعروفة للجميع. ومع ذلك يظل أسوأ الناس في الكذب، وكأنما لسانه واقعٌ تحت تعويذة شريرة تمنع عنه راحة البال وتجر عليه العتب والغضب والإقصاء.

.. خلها تولي..

لن تطأ قدماه خارج السوق حتى يخرج منه غسان.

وهكذا، من على بعد، لاحق عبدالله غسان، في يده شدة الكزبرة اليتيمة التي انتشلها بسرعة ورمى بها في الكيس دون أن ينتبه أنها بقدونس. من الواضح أن بقاءه سيطول في السوق، فلائحة الطلبات تبدو طويلة، وكلما احتشدت العربة بالخضار والفاكهة بطؤت حركة غسان. لم يأخذ الكثير من الوقت كي يدرك أن جاره الجديد مصابٌ بكسر في الضلع وأنه اللحظة يعاني من الألم. وها والده يلحق به ويوافقه الرأي، يشخِّص له وضع غسان كالتالي:

شوف عبدالله ... غسان ضلعه مكسور... الكسر الوحيد اللي ما يجبره طبيب.. يجبره الزمن... مثله مثل كسرة القلب.

يلتفت عبدالله يمينه ويقرأ على ملامح أبيه إيعازه برمي الكزبرة من يده والتوجه فورًا لمساعدة غسان. لكن لا، ما كان عبدالله ليمتثل هذه المرة لأمر أبيه. يتجاهل والده ويلاحق بعينيه هدفه وقد وصل بعربته إلى ركن الحمضيات وهناك... هناك يلمح ابتسامة غسان. يتأمل ملامح وجهه ترتاح، عيناه تلمعان مثل غريب التقى ذكرى ظنَّ لن يعود ويلاقيها. يستغرب رؤيته يتأنى في انتقاء حبات البرتقال بعد استعجاله أخوات وأبناء عمومة البرتقال. يتناول الواحدة منها بعد تمحيص، يرفعها بكفيه إلى وجهه، يستنشق عبيرها، ثم يودعها بتأنٍّ في كيس النايلون الشفاف.

غسان يغرق في جمع البرتقال، ويغرق عبدالله في جمع خيوط

غسان، ولا أحد منهما تنبَّه للمرأة في دراعتها طويلة الأكمام، تندفع صوبهما بعربتها، تنسدل من قمة رأسها عباءة سوداء. جفل عبدالله على صرير احتكاك العجلات فاستدار ومن ملامح وجهها الغائرة تعرف عليها. كان مع والده حين حاول دون جدوى إنقاذ ابنها من الرصاصة التي اخترقت صدره. ما بادلته النظر رغم تحديقه إليها، فعيناها مسمرتان على غسان، وما كادت تصل إليه حتى هجرت عربتها ومسكت بمقبض عربة غسان ودفعتها بكل قوتها على الأرض وتصيح:

حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل... الله يرحمك يا الشهيد.. ويحرق عيال الفلسطن الأنجاس!

زعيقها الهستيري يشد أسماع وأنظار كل من في السوق، لكن أحدًا لم يتدخل. الكل جمد في موقعه. الكل وقف يترقب من غسان إشارة الانطلاق للهجوم: نظرة.. شتيمة.. حركة يد.. تعبير وجه.. أي إشارة منه.. حتى كلمة آسف.. كانت ستكفيهم لتبرير الهجوم الجماعي عليه.

واقفًا مع المترقبين رعشةٌ تسري في أوصاله، قلبه يخفق ويرف بجناحيه على قص صدره مثل الرصاص المنهمر من مئة رشاش، كفا يديه تتعرقان، قدماه تتراجعان كأنما هو المحاصر في تلك الزاوية حاملًا في يده كيس البرتقال لا غسان. الذعر يكبِّل عقله، العجز يتلبس جسده، تمامًا مثلما حدث لحظة أعدم الضابط العراقي أباه، على عتبة بيته، برصاصتين في مؤخر رأسه.

ابني... ابني... يا ابني هاد بيتكم؟

وها يجد نفسه مرة أخرى في الباص جالسًا على المقعد الأمامي، على الجلد الأخضر الممزق، روائح الكلوركس والدماء والبول والقيء كلها تمتزج في نفس واحد يستنشقه بسرعة.

يستنشقه مذهولًا من وجوده فجأةً في الباص.

مذهولًا من صياح الفلسطيني الهرم في وجهه دون حياء.

مذهولًا من وجوده حتى الآن على قيد الحياة.

مذهولًا من وقوف الباص أمام بيت غسان ومذهولًا من لسانه يردد كذبته بسلاسة واقتناع:

«إي.. هذا بيتنا».

(١٠)

لا ردة فعل على رؤيته إياه جالسًا على فراشه. ما راوده حتى أبسط سؤال: كيف سمحت له أمه بالدخول إلى غرفته؟ لا. ما كان لغسان أن يسأل نفسه سؤالًا كهذا، لا من باب الذهول ولا الغضب ولا حتى الاعتراض. فالسؤال، رغم بساطته وأحقيته، يقتضي الشك. وغسان، في نقطة دفينة عميقًا عميقًا فيه، كان على يقين أنه إن فتح باب الحَمَّام متوقعًا أمه سيجد خالد.

«شلونك الحين، أحسن؟».

«آه.. صرت أحسن».

على حافة السرير المقابل لباب الحَمَّام يجلس خالد عاريًا، فاشخًا ساقيه، مطرقًا رأسه، يتأمل الميدالية الخشب الثخينة على هيئة خارطة فلسطين والمعلق بها مفتاح البيت، يفرك الجهة الخلفية منها بإبهامه حيث منقوشٌ **العودة**.

«لو يدري أبوك إنك قاط ميداليته على الأرض.. بس إنت ما

تقصد.. أنا أدري.. والا ما كنت صرت مثله.. تتكلم فلسطيني.. كان ودي أسمعك بنفسي تتكلمها لأني أشوفها لايقة عليك.. نطرتك تقول شي في مكتب الناظر بس ظليت ساكت.. وحتى في السيارة.. ظليت ساكت.. قلت ما في حل إلا إني أدخل غرفتك وأقعد على فراشك وأسمعك بنفسي.. كنت وايد متشوق أسمعك تتكلم فلسطيني.. كنت وايد متشوق إني أشوفك واطمن عليك».

لوهلة يرين الصمت عليهما قبل أن يعاود خالد الكلام، رافعًا عينيه يتطلع نحو غسان:

«ما شاء الله عليك كبرت، ما مرت سنة من يوم دخلت بيتي ولد والحين... هالدنيا تمر ووايد أمور تتغير وما في شي يظل على حاله. أبوك مات.. بيتك راح.. أمك تغيرت عليك مو قادرة تتحمل حتى وجودك عندها. والحين قاعد أطالعك واشوف شكثر تغيرت.. وين غسان الولد الخلوق اللي ما يرفع صوته على أحد.. الولد النظيف اللي ما يتحمل حتى نقطة عرق تكون على جسمه.. وين غسان المرتب اللي كل لبسه مكوي ومغسول وشعره ممشط.. كله راح وواقف قدامي غسان جديد ما شفته من قبل.. همّه يبعد عنه كل الناس اللي حواليه.. لو ما كنت أعرفك زين كنت صدقت إنك تغيرت.. بس انت ما تغيرت.. انت.. من داخلك غسان.. ما تغيرت».

ولا كلمة، ولا كلمة فارقت شفتي خالد وعيها غسان، فكلها تصله مشوهة.. ممزقة.. مكتومة، كأنما يحادثه من أعماق بحرٍ لا

شاطئ له، وغسان معلقٌ في الهواء أعلاه، جسده مكتَّف في سترة المجانين البيضاء الذين يراهم في الأفلام. كان يحاول الإصغاء.. صدقًا حاول.. لكن اهتمامه كان مأسور بإبهام خالد تفرك ثلم *العودة* الأسود وبالقضيب المتضخم أسفل منها. ابتسامةٌ لاهفة ارتسمت على خالد متأملًا عينيْ غسان تتأملانه. يضع عنه المفتاح بميداليته الخشب على الفراش، أعلى زيه الذي خلعه في انتظار غسان يخرج من باب الحمام.

يضم كفَّيه مقابل صدره ثم يبسطهما، كأنما يحمل قلبه المحترق قربانًا بين يديه:

«شفت بعينك شكثر مشتاق لك.. شفت بعينك شكثر أحبك وشايل همك.. لمَّا دق عليّ خالك وبلغني باللي صار معاك في الباص وانه يبيني أشوف موضوعك بنفسي، جيتك ركض من خوفي عليك. صدقني لو ما شفتك حيل تعبان كنت مسحت لك بهالوكيل والسايق الأرض قدامك ومرغت خشومهم عند ريولك. انت غالي عليّ غسان، وتأكد إني دايمًا راح أساعدك ودايمًا راح أوقف معاك. أنا صاحبك غسان.. فهمتني! أنا صاحبك.. أكثر واحد يحبك في هالدنيا، أكثر من أمك وأبوك، إذا مو الوحيد اللي يحبك، وأبيك دايمًا تتذكر هالشي».

لا ينبس غسان بكلمة، لا تأثُّر يتبدى عليه من لهفة الرجاء، هو وحسب يتراجع إلى الوراء، يسند ظهره إلى باب الحمام، شابكًا كفيه خلف ظهره. وضعية الانتظار لديه مذ كان طفلًا. كلما وقف

متشوقًا عند باب جناح والدته في انتظارها تقفل سماعة الهاتف بعد حديثها اليومي الطويل مع زوجة خاله فتحمل له على كفيها أصابع الكتكات والتويكس والمارس. كلما وقف ضجرًا عند باب مكتب أبيه في انتظاره يفرغ من تكرار رواية قصة كفاحه وكفاح أبناء شعبه في نيل العلم رغم قسوة الاحتلال ومآسي المخيمات وكارثة الشتات قبل أن يوقع على شهادة الدرجات الموضوعة أمامه والتي نالها ابنه برفاهية الكويتيين أبناء الذوات. كلما وقف قلقًا عند باب غرفة أخته الصغيرة تلهو دون مبالاة بمجسم غراندايزر في انتظارها تمل منه فيعود ويخبئه في خزانته بسرعة خوفًا من عبثها مرة أخرى ببطله المغوار.

أما الآن فيقف مطرق الرأس، في انتظار خالد ينهي بسرعة ما جاء لأجله.

وينهض خالد عن الفراش، يتمهل في خطاه. بين الخطوة والخطوة تتهاوى أنفاس غسان، جوفه يبتلع الصراخ، أصابع كل كفٍّ تنشب أظفارها في الأخرى. الهرب من باب الغرفة القابع على بعد خطوة من يساره ليس بخيار... فأين المفر... أين المفر إن بات طريق العودة مُحالًا؟

برفق، يتلمس خالد جذع غسان، الثنايا، نتوء الأضلاع، كفه يبسطها على البطن الغائر، يضغط عليها، مرة، مرتين، كفه ترتحل صعودًا وبأصبعيه يدعك الجلد حيث القلب، الخفق اللاهث على مسّهما تثيره، في عروقه جذلًا يفور الدم. إلا أن الجذل ليس ما يبتغيه.

عيونك.. عيونك أبي أشوفها.. لا تشيلها عني..

ومن القلب نزولًا إصبعاه ترتحلان إلى أن تصطدما بخاصرة البنطال الكحلي. الإصبعان تندسان خلف الحاشية وبلمسة رشيقة من إبهامه يفك الزر.. والزمام.. الكف تنسل كما الأفعى داخل سروال غسان وتبتلعه.. تبتلعه.. تبتلعه.. أما الكف اليسرى فتمسح على الرأس المنحني.. تتلمس جبينه.. جرحه.. أنفه.. ثغره.. الكف تلتف حول الرأس.. أناملها الخمس تمسد في طريقها عقص الشعر الشهية الرطبة... وها الكف تقبض على العنق وتعتله بعنف إليه. الأرض تنهار من أسفل قدمي غسان. يميل خالد ويهمس في أذنيه كلمتين.

يشتمُّ رائحة عنقه

يلعق قطرات الماء الهاوية عن شعره

جسد الصبي يرتعش بين الجدار الصلب وصدره

ينقصم كما غصن زيتون في مهب الريح

الأصابع المستبدة تحكم قبضتها على الودجين

العقل يصيح مذعورًا آمرًا القلب بضخ المزيد

وما إن يسلب خالد من غسان نصف ما يريد

والقلب اليائس ما عاد يطيق تلبية المزيد

فما يعلق صداه في عقل غسان

ما إن يهوي أشلاءً على الأرض

مغشيًّا عند قدمي صاحبه الوحيد

كلمتان

لا تخاف.. لا تخاف

* * *

مضت غادة نحو المطبخ حتى تعد لنفسها استكانة شاي. يساورها الندم على موافقتها خالد طلبه الملح للانفراد بابنها وتبادل حديث أبوي معه. إذ لا ينقصها إحراج غسان لها أكثر أمام ضيفها غير المرغوب فيه. لكن إن كان من شأن موافقتها طلبه التعجيل في مغادرته فليصعد وسيتولى غسان فعل ما انكفأت هي عن فعله: الزعيق في وجهه. وليته بالمرة يقذعه بكلمة أو كلمتين تحجمه كي لا يتعالى عليها بقصة صموده، وكأنما باختبائه في سرداب بيتها القديم دحر الغزاة في انتصار ساحق.

لكن ها مرت نصف ساعة ولم يصدر أي صراخ عن الأعلى. ولا حتى تناهى إليها أوهى صوت لنقاش حاد. لربما خالد على حق. ربما حقيقةُ تَيتُّم كليهما في صباه تجعل من السهل عليهما التواصل. لكن رغم اطمئنانها لالتزام ابنها هدوءه إلا أن شوكة في صدرها ما انفكت تخزها، تحول بينها وبين الشعور بالارتياح لوجود خالد في بيتها، إقحامه نفسه مرةً أخرى في خصوصياتها. الشوكة ذي اخترقت قلبها واستحال عليها نزعها مذ شرَّع زوجها

باب بيتها في الجابرية أيام الغزو لاستقبال ضباط الجيش العراقي وقيادات الحرس الشعبي الفلسطيني، كون بيتها يقع جوار مقر منظمة التحرير ومقابل مخفر الجابرية الذي تحول ثكنة عسكرية مدججة. ولأن زوجها ما كان بالرجل الغبي، فقد فتح أبواب البيت كذلك لأهالي المنطقة والجيران من الكويتيين للاحتماء ليلًا من قصف الطائرات في سردابه الكبير. ظن أنه بفعلته الكريمة هذه سينأى بنفسه عن هجمات المقاومة. أنه بادعائه أن تعاونه مع الغزاة والخونة هو بداعي حماية أهل المنطقة والتوسط لهم وتسهيل معيشتهم وتأمين نقل رسائلهم وأموالهم والاستفسار عن أبنائهم وبناتهم المعتقلين والتوسط لإطلاق سراحهم -والحق يقال هو فعل كل ذلك- إنما يصنع لنفسه ترسًا بطولية تحميه إن تحررت الأرض، أو تكرسه قائدًا مهيبًا في ظلِّ الاحتلال.

كم نوبة بكاء اجتاحتها في لندن كلما تخيلت أيادي الغرباء تلهو ببيتها وتتعبث بحاجياتها. كم من مرة.. كم من مرة في فورة بكائها وصراخها دعت الله أن يبعث بمن يقصف بيتها فتشب فيه نيرانٌ مستعرة لا تُبْقي منه ولا تذر إلا الرماد. لكن الله ما استجاب لدعائها. بل بعث لها بكابوسٍ مهلك يجثم على صدرها. منصور متكئٌ على فراشها، في كامل حلته، حذاؤه الجلديُّ الأسود يلمع في قدميه، وعلى المنضدة جانبه كومة ضخمة من ثيابها الداخلية وقمصان نومها التي اشترتها بأغلى الأثمان من رحلاتها برفقة أخيها وعائلته إلى لندن وباريس. في منامها، يتناول منصور ثيابها قطعة قطعة، يشمها ويرمي بها نحو رجال عدة يتسامرون سكارى عراة في

حجرتها -كويتيون وفلسطينيون وعراقيون وسعوديون وأميركان وإسرائيليون- يرمي بها واحدة واحدة على الجمع الشبق إلى أن تنفد. ومع أن غادة ليست موجودة في الغرفة المعتمة فإنَّ زوجها يعلم بوجودها، برؤيتها صنيعه القذر في منامها من على فراشها الغريب حيث هي مستلقية، وحيدة، على بعد آلاف المسافات الفاصلة بينهما. ولأنه على يقين بأنها تراه، يتناول علبة سجائره من على المنضدة ذاتها حيث كانت الكومة، يسحب سيجارة، ينقر بها رأس العلبة، يشعلها بولاعته كما هي عادته الليلية بعد خروجه من جسدها. يأخذ نفسًا عميقًا، ينفث الدخان والرماد من فمه ومنخريه، كلاهما يحدق إلى الآخر في صمت.. في وجل.. الأثير الفاصل بينهما يصدح بآهات الرجال يدعكون قضبانهم بثيابها.

الله يلعنك..

بم يفيده الآن عناده وقراره عدم الفرار؟ رفضه البقاء معها وطفليهما في الخارج إلى أن تحل الأزمة، إلى أن تتحالف جيوش الأرض وتحرر وطنها؟ كانت مستعدة حتى للتنازل والسفر معه إلى سوريا إن استحال عليه الذهاب معها إلى لندن أو الإمارات. فالمسألة مسألة وقت. بيد أنه ظلَّ مصرًّا على البقاء حتى يحمي البيت، حتى يذود دفاعًا عن شرعية انتمائها وانتماء أبنائهما وحقهم في العودة إلى أرض الكويت متى آن ميعادها. لكنها تعرفه، وتعرفه جيدًا، حق العودة ما كان الأمر الوحيد الذي يستميت عليه، بل لعب دور البطولة. كان يسعى نحو خلق قصة نضال جديدة يرويها بعد أن أصاب البلى قصصه القديمة وتهتكت مع كل تكرار وتجلّي

حقيقة الهزيمة في عواقبها. كان يسعى مستميتًا وراء روح المناضل الفلسطيني فيه بعد أن ضاعت لأعوام وأعوام في تيه بيت زوجته الكبير. كأنما.. كأنما هو الآخر وجد في حكاية غزو العراق للكويت درب تحرير روحه العالقة في حكاية فلسطين.

هكذا برَّر لها قرار صموده في الكويت وعدم السفر إلى الخارج مع حشود المغادرين من المواطنين والمقيمين.

لا .. لن أعيد خطيئة أبي وأهجر بيتنا نحو مخيم جديد

أفضل الموت شهيدًا ألف مرة على أن أدع أبنائي يعيشون يومًا واحدًا مأساة الرحيل

وقد مات. مات خائنًا وسيموت ألف مرة خائنًا مع كل ذكر لاسمه، وتركها هي تموت وطفلاها ألف مرة بعار خيانته ومقتله. غسان.. غسان ضيّ قلبها وابنها الوحيد خلَّفه وراءه محطمًا، محطَّمٌ كل ما فيه. حتى اللحظة الأخيرة، لم تتوقع من منصور التضحية بأمان ابنه في سبيل حكاية بطولية. لم تتوقعه يزرع فكرة البقاء في عقل غسان وإقناعه بعدم السفر مع أمه وأخته. لم تتوقع للحظة واحدة *لحظة واحدة* تفضيل غسان خيار الافتراق عنها والبقاء مع أبيه. صدمتها في هجر غسان لها تفوق صدمة الاحتلال الغادر على يد الجار والأخ الشقيق.

الجرح انفتق وارتعشت يدها. استكانة الشاي فلتت وهوت على بلاط المطبخ شظايا متناثرة. رشاش الشاي عند قدميها أحمرُ إثر رصاصة الغدر التي اخترقتها على يد المناضل الفلسطيني.

مَنْ

بقصة صغيرة، بنظرة سريعة، أَسَرَ يومًا روحها،

من بحثت مستميتةً عن أثر له في زوجها،

من سمَّت ابنها، قلب قلبها، تيمنًا به؛

علَّها إن فعلت، تبعث به من رماد الموت فيحبها.

* * *

كان حريصًا وهو يرفع غسان عن الأرض ويحمله إلى فراشه ألا يتسبب بحركة مفاجئة تفيقه من إغمائه. بمنتهى الرفق وصل به حافة الفراش، رفع اللحاف، أزاح رأس غسان عن كتفه وأرقده بحنان على الوسادة، ثم رفع ساقيه وقوَّم من وضعية ظهره وذراعيه حتى يرتاح في نومه.

جالسًا على حافة الفراش راح يحدق إلى غسان، يمسد رأسه، يتأمل كل نفس يأخذه كأنما يود التأكد أن النفس الذي يراه الآن ليس بالنفس الأخير. وما إن اطمئن قلبه، بتأنٍّ، خلع عن غسان البنطال العالق عند الركبتين ورمى به صوب باب الحمام، ومعه سرواله الداخلي. في عين خياله رأى غسان يحاول التيقن بعينين ناعستين إن كان ما جرى بينهما واقعًا أوحلمًا. فخالد نفسه ليس متيقنًا. ليس متيقنًا حتى مما وقع فجر التحرير حين رفع غسان عن أرض حديقة بيته في الجابرية حيث اغتيل منصور برصاصة في رأسه. بين عينيه. كم شقَّ عليه حمله، بقطع الأنفس تمكن من رفع الصبي

عن الأرض وانتشاله من بركة دماء أبيه الغارق فيها، يده اليمنى متشبثة بمسدس القاتل واليسرى تنشب أظفارها في قميص أبيه، رافضًا الفكاك عن أي منهما، مقاومًا محاولات رفعه أيما مقاومة.

لكن الآن، فلا مقاومة صدته ولا وزنٌ ثقيلٌ صعَّب عليه المهمة. أجل، عظامه سمكت وأخذت في الطول، إلا أن جسده بات هزيلًا، عافيته ضعيفة بالكاد تحملت، فانهارت عند قدميه عاجزةً عن إشباع شهوته حتى رمقها الأخير. ليته كان في منتهى عافيته. فأثر الكدمات على الصدر والبطن والظهر والفخذين، بنفسجيةً خضراء على جلده الأبيض، تغريه بلعقها، لثمها، عضها ومصِّ الدم الأسود منها. الكدمات مآلها الزوال، مهما طال وجودها، إلا أنَّ جرح جبينه سيخلف ندبة ستبقى ظاهرة على مدى سني عمره، مهما كبر ومهما تبدلت ملامحه، ما بعث السلوان في قلب خالد، وبعث فيه أيضًا الحيرة.

فوجه غسان ما عاد يحمل سمات طفولية تحدده، وجنتاه المتوردتان الريانتان يوم التقيا للمرة الأولى ذبلتا، وحل محلهما عظام الوجنتين البارزة تحدد ملامح وجهه بأكمله، ملامح رغم صبيانيتها ورعونتها تثير في قلبه عاطفة جارفة، وهو ما لم يعتده مع غيره من الأولاد الذين سرعان ما يخلي سراحهم من قبضته متى ما بانت عليهم ملامح الدنو من عتبة المراهقة. أما رائحة السجائر التي استنشقها حين عانق جسده فلم يستسغها بداية وكادت تنفره من ملاحقة رغبته، لكن ما إن تغلغلت في منخريه حتى وجد نفسه يشتهي لعقها من على عنقه.

فورًا وثب خالد من الفراش خوفَ يفقد السيطرة على نفسه ويصنع بالصبي النائم ما لا تحمد عقباه. عليه أن يتعجل ارتداء ملابسه والتوجه إلى الأسفل حيث غادة لا بد جالسة على عرشها في انتظاره، لكن عليه أن يتوجه قبلًا إلى الحمام. يفتح الباب ويفاجأ بالماء المنسكب على الأرضية، بقطعة الصابون المرمية. وسرعان ما يخالجه القلق عمَّا كان يفعله غسان في الداخل، إلا أن قلقه خمد ما إن التقط أثرًا لرائحة القيء. وحرصًا منه على سلامة غسان، خوفًا عليه من الانزلاق في حالته هذه فيتعرض لإصابة أخرى، رفع الصابونة وتناول المنشفة المرمية عند الزاوية حتى يمسح الأرضية حول المغسلة، لكن سرعان ما رماها من يده لحظة وقعت عيناه على القميص الأبيض. يرفع خالد القميص من الأرض ويفردها أمامه، وفيها يدفن وجهه؛ وفي نفسٍ واحد يستنشق رائحة الصبي، رائحة الدم والعرق والرماد. كل خلية في جسده مغمورة في الرائحة، كل زاوية من زوايا روحه تعبق بها. وبعينين متصحرتين جثا راكعًا على ركبتيه، يصيح في هريرٍ مكتوم.

ما إن يفرِّغ خالد ما عجز عن تفريغه في غسان، يغسل يديه ويشطف وجهه، يخرج من الحمام، يرتدي ملابسه الداخلية وزيه العسكري وجزمته، يتأمل وجهه في المرآة المعلقة على الجدار.

يمشي نحو الفراش، يدثر غسان جيدًا باللحاف، يميل على رأس الصبي ويلثم جرح جبينه، وبرفق يدس القميص الأبيض تحت وسادته.

بين خيوطه البيضاء عالقة قطراتٌ من دم الصبي

قطراتٌ من عرقه

نفحةٌ واهية من رماد سجائره

دموعُ صاحبه الوحيد

وزبد مغتصبه.

* * *

كانت قد عادت وجلست على الأريكة ذاتها في بهو الاستقبال تنتظره يغادر غرفة ابنها؛ القلق لا ينفك يساورها على طول المدة التي قضاها في الأعلى. لصعدت بنفسها كي تطمئن لكن كبرياءها لجمها عن إظهار أي اهتمام. إذ لا تريد لأي منهما أن يظن أنها تكترث بما فيه الكفاية كي تتناسى صنيعه بها، كي تتنازل عن موقفها لصالحه. لكن لربما، لو تدَّعي أنَّ صعودها القصد منه الذهاب إلى حجرتها المقابلة لحجرة غسان، وهناك تلتقط ولو نزرًا من محادثتهما فيطمئن قلبها. تعقد عزمها وتهم بالنهوض لكن صوت الباب يفتح ويوصد يصلها، فتستوي في جلوسها وتتنفس الصعداء قائلةً في نفسها: *زين سويت إني ما صعدت*.

لا ترى خالد لدى هبوطه الدرجات كون السلم يقع خلفها، هي وحسب تسمع خطى ثابتة. وجودٌ طاغٍ ينبعث منه؛ عنفوانٌ تلتقطه في رائحته الذكورية النفاذة يحرك في جسدها إحساسًا غريزيًا غير مألوف لديها، إحساسًا لم تختبره قط مع زوجها، لا قبل الزواج

ولا أثنائه. تبلع ريقها وتشبك يديها على حجرها، ها هي جزمته العسكرية تخبط الدرجة الأخيرة وفي ثانية سيتجلى أمامها، ليته يحترمها ويعجّل بالمغادرة بدلًا من معاودته الجلوس، أو ليته..

«أنا مضطر أستأذن. تأخرت».

في نبرة صوته شجىً رجوليّ، أنفةٌ تَخِز وداعه، وكأنما يتمنى عليها أن تستبقيه في حضرتها ولو دقائق أخرى بادعائها السؤال عن ابنها وادعائه الإسهاب في إجابته عليها. في فورة امتعاضها منه أول قدومه لم تلمح الصلابة في سيمائه، بريق النظرة الحادة في عينيه، التغيير في الشخصية والطباع عمَّا كان عليه في طفولته ومراهقته. إذ لطالما كان قريبها الفقير.. اليتيم.. المحتاج، ودائمًا ما انبعثت منه هالة انكسار أمامها وأخيها كون والده اعتاد العمل مزارعًا في بيتهما. حتى بعد التحاقه بالجيش، في المرات القليلة جدًّا التي التقيا بها صدفةً لدى زيارتها خالتها، ما انفكت ترى فيه صورة الصبي الضعيف المختبئ في زيٍّ عسكري فضفاض عليه. لكن الغزو بدَّل كل هذا، هي وأخوها، المفترض بهما أن يكونا *عيال بطنها* لاذا بالفرار في محنتها، تاركيْن خلفهما عميلًا سيرتبط دمه بدمهما واسمه باسم عائلتهما؛ أما هو فبقي مع الصامدين، وضمن تصنيف التفاضل الكويتي الجديد فالأدوار انقلبت بينهما وبات هو الكويتيّ من الصف الأول وهي في الصف الأخير.

لذا، متفاجئةً من نفسها، تلفظَّت بالسؤال الذي ظنته يتحراه منها:

«شصار على غسان؟».

متنهدًا يجيبها:

«أنا وغسان تكلمنا شوي، مثل ما قلت لـچ الولد مجروح ومحتاج اهتمام أبوي، في أمور الأولاد ما يقدرون يتكلمون فيها مع أمهاتهم. ما طوّلت معاه في الكلام.. الولد تعبان وايد وما حبيت أضغط عليه.. بس ظليت موجود طول ما هو في الحمام لإني خفت عليه يدوخ داخل ويطيح.. لما طلع من الحمام وتطمنت عليه.. قلت له إنه متى ما احتاج يكلم أحد فأنا موجود».

خائبة ومع شيء من الاستهزاء سألته:

«يعني ما طلعت منه بشي؟».

فيجيبها في ابتسامة مواربة:

«طلعت منه بشي.. بس مو كل شي».

تلك الابتسامة، ما بالها تخفض عينيها وتبتسم هي الأخرى.

«أنا صار لازم أطلع لإني تأخرت. أي شي تبينه غادة كلميني مباشر، مو شرط عن طريق أخوچ.. أنا يهمني أمر غسان.. ويهمني أمركم».

ترفع رأسها وترمقه بنظرة فاترة، فيشيح بوجهه ويتوجه بنفسه نحو الباب الأمامي. ما إن يمسك بالمقبض حتى يلتفت نحوها وبنبرة حادة يشوبها التأنيب يخاطبها قائلًا:

«ترى غسان صحته تعبانه، ولد بعمره لازم ياكل عدل حتى

يكون عنده طاقة يتحمل.. يتحمل ضغط الدراسة. ليه قعد خليه ياكل لحم أو دجاج.. أقصد ليه قعد براحته.. مو الحين.. الحين خليه نايم، ما له داعي تزعجينه.. ما له داعي تزعجين نفسچ».

واندفع خارج البيت

يصفق الباب دون انتظار ردٍّ منها.

(١١)

رآها واقفة تنتظره خارج باب البيت في عباءتها السوداء. وبدل أن ينشغل في ابتداع سبب يقدمه إلى عمته فاطمة يفسر سيره من بيت غسان آخر الشارع حيث أنزله الباص، سأل عبدالله نفسه كيف لعمته أن اختارت الوقوف في الرواق الخارجي، أعلى درج الرخام الأمامي، على نفس ألواح البلاط البيضاء التي مسح عنها دماء أبيه وكشط عنها تلافيف دماغه وعظام وجنته وشذرات عينه اليمنى. كيف لها أن تقف هناك دون أن يرف لها جفن أو حتى ينحني جسدها خجلًا. أتراها لا تبصرها كما يبصرها؟ قطرات دم أبيه العصية على الزوال متخثرة في شقوق الرخام.

يصعد الدرج متكاسلًا وما إن يصل إليها حتى تستقبله بابتسامتها الباردة، تقبله على وجنتيه وتتناول من على كتفه حقيبتا كتبه والرياضة رغم تأففه وملامح الاعتراض على وجهه. لم تبادره بالسؤال الذي يراود عينيها الثاقبتين، بل انتظرت حتى اجتازا العتبة معًا وأقفلت من خلفهما الباب.

«شالسالفة؟».

لم يمانع عبدالله أن يروي على عمته *السالفة* وراء سيره من بيت غسان، لكن من أين عساه يبدأ؟ أمن اللحظة التي أفاق فيها من سرحانه مرعوبًا ليجد نفسه وحيدًا محاصرًا بين شلة مقيمين، أم من اللحظة التي صعد فيها الباص ليجد سائقًا آخر غير السائق المعتاد فجلس على الصف الأمامي عوضًا عن مكانه الذي يرتاح له في الصف الأخير، أم من اللحظة التي هب فيها من مقعده في الصف الأخير صباح اليوم كي يتفقد حال جاره الجديد بعد سقوطه أمام الجميع، أم من اللحظة التي رأى فيها غسان يصعد درج الباص فالتفت يساره ليجد أباه جالسًا جانبه يرقب الولد الفلسطيني بقلق شديد، أم من اللحظة التي مسح فيها دماء أبيه عن البلاط حيث كانت عمته واقفة دونما حياء أو حتى احترام لقدسية دم الشهيد.

«ولا شي.. السايق جديد.. وأنا سرحت في الطريق ونسيت أقول له يوقف عند بيتنا فوقفني عند آخر الشارع».

ترفع عمته حاجبيها، إيماءة عدم اقتناعها بالجواب، ودلالة معرفتها بأكثر مما تفصح:

«مو هذي السالفة اللي أبي أعرفها.. بس زين اللي قلتها لي.. كنت راح أسألك عنها.. اللي أبي أعرفه الحين سالفة روحتك المستشفى.. شريفة اتصلت عليّ وقالت لي إنها شافتك هناك مع ولد مجروح.. ولما سألت عنه دكتور فيصل بعد ما طلعتوا قال لها إنه ولد فلسطيني كان معاك في الباص واسمه غسان... غسان نفسه ما غيره».

إذن ما كان يخشاه وقع. فحين كان في المستشفى واقفًا إلى جانب غسان بينما يخيط الطبيب المناوب الجرح، لمح شريفة عبر الفراغ بين حاشية الباب وحاشية الستار. كانت تتهادى عبر الرواق خلف الطبيب الجديد المسؤول عن تدريبها، مثلما اعتادت التهادي خلف أبيه. لمحها تقترب فأدار ظهره بسرعة على أمل تجنب الالتقاء بها، ومن الواضح أن محاولته تلك باءت بالفشل الذريع.

«ولا شي عمتي.. الولد زلقت رجله في الباص فطاح وجرح راسه.. فأخذناه أنا وبو محمد المستشفى.. وطبيعي كان لازم أحد يكون معاه».

«وإنت طبعًا تطوعت تكون *هالأحد* اللي لازم يكون معاه».

كيف لعبدالله أن يشرح لها أنه بالفعل *الأحد اللي لازم يكون معاه* ولا أحد غيره، أن المسألة لا علاقة لها بالتطوع بل بشيء آخر هو عاجزٌ الآن عن وصفه لنفسه فكيف به يصفه لعمته. الجواب الوحيد في جعبته منحها إياه في صوت خافت وحائر:

«ما أدري».

تأخذ فاطمة نفسًا عميقًا وترتخي ملامح وجهها، دلالة توقف تهامسها أمام الباب عند هذا الحد، ما بعث الارتياح في قلبه وإن كان موقنًا أنها ستعاود فتح الموضوع من جديد في غرفته متى ما ارتأت الأجواء مناسبة لحديث أطول وإجابة مفصلة.

«زين.. جهز نفسك للغدا.. أكيد تعبان بعد اللي صار».

يسألها عن وجبة الغداء، يسألها وكله أمل ورجاء ألا يكون الغداء لهذا اليوم بالذات عيش *ومرق بامية*. وفي عينيها الخائبتين رأى الجواب جليًّا قبل أن ينطق به لسانها معتذرًا:

«عيش ومرق بامية».

بعد كل ما شهد هذا الصباح، وجود غسان في حياته وتجلِّي أبيه كلما رأى غسان، مع كل ما جرى وكل ما كان تمنى عبدالله لو كان بيده الرمي برأسه اللحظة على كتف عمته ويشرع في البكاء. لكن لا، لن يبكي أمامها، فقد أقسم ألا يبكي أبدًا مذ تلك الليلة المشؤومة.

قسمٌ سيحنث به عبدالله مرة واحدة فقط في السبع وعشرين سنة المتبقية من حياته حين يبكي مفجوعًا مقتل صاحبه الوحيد غسان.

خامس خميس بعد هذا الأربعاء

برصاصة واحدة في صدره

هنا

هنا على عتبة بيته

رأسه مرميٌّ على البلاط تمامًا حيث وقفت عمته في انتظاره

مسدسٌ أسود ملقىً جانبه

عيناه جامدتان

جناحا روحه العظيمان تشقان صدره الأبيض

وترفرفان

دمه المنسكب هدرًا على الرخام

للأبد يمتزج مع دماء أبيه.

لكن

لأن عبدالله لن يحنث بقسمه ويبكي الآن

يبتسم لعمته

يقبِّل جبينها

يتناول حقيبتيه من يدها

يصعد السلم نحو غرفته

ويغلق على نفسه الباب.

* * *

كان في نية فاطمة استدراج تفاصيل أكثر، ورغم عدم اقتناعها بالفتات الذي قاله، عدلت عن المضي في استجوابه ما إن قرأت على ملامح وجهه شقاء هذا الصباح، والشقاء الذي ينتظره على مائدة الغداء، ينتظر كليهما.

ما إن يتناول عبدالله حقيبته ويصعد إلى غرفته، تخلع حجابها وعباءتها، تعلقهما على المشجب، وتمضي نحو حجرة الطعام حيث زينب واقفة، ذراعاها على جانبيها، أناملها متشبثة بقماش نفنوفها،

تتأمل متلهفة ساعة الحائط المقابل للباب. على يمينها مائدة الغداء المستطيلة بكراسيها الستة، مزدانة بطقم الآنية البورسلان من الأطباق والملاعق وكؤوس الماء، كلها موشاة بنفس النقش لزهور الجنطيانا الزرقاء المائلة إلى النيليّ، وفي قلب المائدة آنيتا الرز والمرق، لم يرفع الغطاء عن أيّهما درءًا لانسياب الحرارة. على الجانب الأيمن للآنيتين إبريق الماء البارد وعلى الجانب المقابل إبريق اللبن الخاثر، أما على المنضدة الطويلة خلف المائدة فصينية الشاي بالإبريق العاجي والكؤوس المطلية بالذهب جاهزة لتسامر ما بعد الغداء. كل غرض من هذه الأغراض يقف جاهزًا متأهبًا لاستقبال أربعة أشخاص خير استقبال.

تتنحنح فاطمة معلنةً دخولها، جفلة تلتفت زينب وفورًا تتخلى أناملها عن القماش، وبنظرة حيرى ترمقها كأنما لم تتوقع رؤيتها، أو لم تتوقع رؤيتها وحدها. تنتظر منها كلمة، تطمينًا، إلا أن فاطمة لا تنبس بكلمة، تكتف ذراعيها على صدرها وتبقى ثابتة في مكانها. بعد هنيهة تردد تسألها زينب:

«ما اتصل حسين؟».

وتجيبها فاطمة في نبرة أمومية:

«لا.. يمكن يتصل بعد شوي».

تمتعض زينب من نبرة فاطمة، وتعمد إلى إبداء امتعاضها في حدة صوتها:

«الظاهر راح يتأخر اليوم.. بس هو قال لي إنه راح يخلص دوامه

الساعة وحدة والحين الساعة بتصير ثنتين.. مو عادته يتأخر.. مو عادته ما يتصل إذا كان راح يتأخر».

تدنو منها فاطمة خطوتين، على تؤدة:

«لا تحاتين.. يمكن عنده حالة مستعجلة واضطر يظل في المستشفى.. دايمًا تصير. ولدچ وصل بالسلامة.. شكله شوي تعبان.. فشرايچ نتغدى احنا الثلاثة ونرفع غدا حسين، ومتى ما وصل يلاقي غداه جاهز؟».

مسرعة تتراجع زينب إلى الخلف نحو رأس المائدة. عيناها لا تنزاحان عن فاطمة، وتضع يمناها على ظهر الكرسي وتتمترس خلفه. وعلى خلاف فاطمة، الواقفة في ردائها الكحلي القاتم الفضفاض طويل الكمين مع حاشيته تغطي كاحليها، تقف زينب في فستانها الزهري الحفر، حاشيته السفلى تصل الركبة، خصرها النحيف يعانقه حزام حريري أسود يماثل بلونه ونعومته وانسيابه شعرها الطويل المنسدل على ظهرها. كان الفستان هدية حسين لها لدى عودته قبل أعوام من رحلة إلى لندن. لم يرها ترتدي الفستان مرة واحدة رغم تمنيه المتكرر عليها.

بخاطري يوم أرجع البيت وألاقيچ ناطرتني وانت لابسة النفنوف الوردي.

وزينب حاولت. حاولت ارتداء النفنوف عشرات المرات لتسعد زوجها، تحت إصرار وتوجيه ومساعدة فاطمة. لكن في كل مرة، وقبيل قدومه بدقائق، تقفز فجأة من الأريكة في بهو الاستقبال

حيث تجلس في انتظاره وتهرع نحو غرفتها. بمجرد أن تصفق الباب تنزع الفستان وكأنما خيوطه منسوجة من لهيب النار وبقدمها تقذف به بعيدًا عنها، تهرع نحو المرآة وتدور حول نفسها، تتفحص بهستيريا جسدها بحثًا عن أي أثر غريب على جلدها. أحيانًا يتلبسها الذعر حدَّ خلع ملابسها الداخلية عنها وتفحص ثدييها وعورتها حتى يطمئن قلبها على نجاتها من جريمة محققة كانت ستودي بها. وما إن يطمئن قلبها ألّا أثر هناك على الإطلاق، حتى تتناول محارم من العلبة على المنضدة وتمسح اللون الأحمر الذي صبغت به شفتيها كرمى له. وحتى لا يشك زوجها في أمرها تلتقط الفستان من على الأرض بطرفي إصبعيها وترمي به داخل خزانتها باستعجال. ترتدي ثوب البيت وتربط شعرها الطويل وتخرج من حجرتها لتجد زوجها داخلًا لتوه البيت وأخته فاطمة في استقباله، الأخ والأخت يتهامسان عنها عند عتبة الباب.

لحظة أفاقت هذا الصباح من منامها، لحظة فتحت عينيها ولمحت زوجها ينسل من فراشهما نحو الحمام، غارقة في نشوتها من أثر رائحته على وسادتها، ملمس هلب ذقنه ووجنتيه ما يزال يخز جسدها، قررت زينب أنها ستفاجئه اليوم بارتدائها الفستان، بإعداد وجبة غدائه المفضلة بيديها كي يتناولاها معًا ما إن يعود إليها.

عاهدت نفسها على انتظاره في سكينة. لن تهرع نحو غرفتها. لن تنزع الفستان مهما آلمها ارتداؤه، مهما صرخ جلدها مستغيثًا،

محترقًا بلهيب خيوطه الزهرية. مهما علا الصوت الهامس في عقلها بأن الفستان سممته فاطمة لأنها تغار على أخيها منها وتريد البيت بأكمله لها. لا، لن تسمح للذعر بأن يسيطر عليها، ستصم أذنيها عن الصياح والهمس، وستجلس هادئة متزنة على كرسي حسين في انتظاره يصل البيت حتى يرى بنفسه كم هي تحبه، إلى أي حدٍّ هي تهواه ومتعلقة به، أنَّ بيدها لمُّ شتات نفسها، أن تكون المرأة التي يستحق، أنَّ ما من داع لاقتلاعها عنه وإعادتها إلى جحيم الطب النفسي. لذا تسحب زينب الكرسي وتجلس عليه، ترفع ساقًا على ساق وتخاطب غريمتها الواقفة أمامها في كل ثقة:

«إذا جوعانه فاطمة تغدي.. رفعي صحنـچ وروحي غرفتـچ، أنا وولدي ننطر حسين».

ترتسم على ملامح فاطمة ابتسامة مسايرة، وتفك تشابك ذراعيها على صدرها:

«ماله داعي.. أنطر معاكم».

تسحب فاطمة الكرسي على يسار زينب وتجلس بهدوء. أسفل الطاولة تربت بيدها على جيبها الأيسر للتأكد من وجود علبة الدواء في حال فلتت الأمور عن السيطرة، والأمور ستفلت حتمًا عن السيطرة. مع كل دقيقة تمر، رعشةٌ تفضح سريان الألم متخفيًا في عروق زينب، بين اللحظة واللحظة تسحب نفسًا عميقًا، تغمض عينيها خشية يفضحا يأسها. الدقائق تتلاحق وتتلاحق الرعشات، أنامل كفيها تتشابك على الطاولة أمامها في قبضة تطبق في جوفها

صدى صراخها. صدىً يصل مسامع فاطمة في إيقاع دفوفٍ مألوف، يتردد منتشيًا في عروقها.

يا الله.. يا الله.. يا الله

يا الله كم فاطمة سعيدة بارتداء زينب النفنوف.

***

على عجالة اغتسل وبدل ملابسه وغادر الحمام. إلا أنه وجد نفسه، عوض الاندفاع نحو السلم، يعود إلى غرفته. يتأنى ويجلس على فراشه، يلتقط أنفاسه، يتأمل مبهوتًا كفيَّ يديه المبسوطتين على ركبتيه ترجفان بلا هوادة.

هو في أمس الحاجة إلى الاختلاء بنفسه ولو دقيقة قبل مواجهة ما ينتظره على مائدة الغداء. وحتى يتسنى له صنع ما سيصنع لاحقًا، فعليه صرُّ كل عواطفه التي عاشها اليوم وجمعها في رزمة واحدة يودعها الجوف الأسود في عقله. وحده الصبر يلزمه الآن، وسيستنهض كل شذرة صبر فيه على تحمل الابتلاء.

فذي عاقبة صفته الجديدة، *ابن الشهيد*. مذ سمَّروا شارة الشرف تلك على صدره بات مجبرًا على حمل نير الرجولة المبكرة، نير الاتزان والأخلاق والمسؤولية والحكمة، نير الدفاع عن البيت وعشق الكويت وافتداء ترابها بروحه وكل الشعارات التي سرعان ما سيسأمها قبل تخليه نهائيًا عنها ورميه بها خلف ظهره. ذي هي تركة الشهيد لابنه، وأثقل ما فيها سيماء الروع والحزن العميق التي

يتوقعها منه الجميع للتأكد أنه لم ولن ينسى يومًا دماء أبيه الشهيد، لم ولن ينسى يومًا جريمة الغزو العراقي. مذ عادت الصحف إلى الإصدار لا يخلو عددٌ من صور أبناء الشهداء وصور آبائهم، فالأبناء هم الأثر الحي لجرائم الغزو، هو ذاته أثرٌ حي من جرائم الغزو، أثرٌ يفوق في الفاجعة ووسع الاحتمال حرق آبار النفط؛ فالحريق سيطفأ لا محالة وستعود الأرض تلفظ نفطها من جديد. لكن ماذا عن عظام وروح أبيه؟

صورتهما معًا لم تنضم بعد إلى سلسلة الذاكرة الصحفية، ليس لأن أحدًا من الصحفيين لم يتصل ويحاول، بل لأن كل محاولاتهم صدتها عمته، فضيلةٌ من فضائلها القليلة التي، رغم كل شيء، تحسب لها.

أتراها تدرك ما يدركه هو، أنَّ سلسلة الذاكرة الصحفية ليست بهدف الإبقاء على الذكرى حية، بل لرميها في أرشيف النسيان ونفض اليد عنها. إذ كيف سيتسنى للبقية المضي قدمًا في حياتهم إن لم يحظوا بنعمة النسيان، وكيف لضمائرهم أن تطمئن لاعتناق النسيان إن لم يتيقنوا أن ثلة أبناء الشهداء سيحملون عنهم عاتق الذكرى. كيف سيتسنى لهم اقتناء السيارات الجديدة التي سرعان ما ضجت بها صفحات إعلانات الصحف، كيف ستمضي النسوة من جديد إلى الصالونات والأسواق، كيف ستعود البيوت نظيفة من تراكم القذارة والغبار على يد الخادمات والشركات، كيف سيعود زجاج النوافذ صفحةً وهَّاجة صافية من آثار اللاصق الأصفر والبني السميك، وكيف سيتسنى للطلبة العودة من جديد

إلى مقاعد الدراسة والوقوف في طابور الصباح. كيف لوطن النهار أن تسمو على الألم والدم والجراح وتمضي بأبنائها قدمًا إن لم يحيا ابن الشهيد مكبّلًا بذكرى أبيه. قدرٌ أسود، حتى وإن كان ابن الشهيد موعودًا بمقابل مجز، عطف الدولة حكومةً وشعبًا، هالة الصمود والوطنية، الاستثناءات الموعود بها من دون أقرانه مكافأةً له. هو ذا ثمن الذكرى، ويا له من ثمنٍ بخس مقابل عين أبيه.

لحظة لمح غسان لأول مرة في سوق الخضار، وبعد تعاطيه المباشر اليوم معه، لم يجد أي أثر فيه للانكسار، لا أثر للحزن ولا حتى لأي مسؤولية أو حكمة أو اتزان، أو حتى أخلاق. ولم عساه يحمل تلك الصفات، فلا قيد يجبره على حمل صورة أبيه نصب عينيه، التمثل بها وتلبس هالة قدسيتها أمام الله والناس. غسان، كما رآه اليوم في الباص، حرٌّ.. حرٌّ من أي التزام أخلاقي، من أي واجب تجاه إرث أبيه. كان له أن يصرخ، يشتم، يضرب، يمارس العصيان بكل أنواعه، وما كان لأحد أن يلومه، بل العكس، هذا ما يتوقعه منه الجميع.

غسان، كما الحال مع عبدالله، كلاهما يلعب الدور المناط به بعد مقتل أبيه. لكن أتراه هو الآخر يتجلى له طيف أبيه كلما التقيا؟ وإن كانا يتجليان في ذات الآن، الشهيد والخائن، الكويتي والفلسطيني، أتراهما يتشاركان قلقهما على ابنيهما الضائعين من بعدهما؟ أم يتفاخر كلٌّ بابنه للعبه الدور بامتياز.

غصةٌ في قلبه تكسر تأملاته، تمنعه من الغرق أكثر وأكثر في

رمالها المتحركة، الرمال ذاتها التي جرفت أمه عن حضنه قبل ثلاثة أعوام، حين راح أخوه الأصغر يتجلى لها طيفًا بعد وفاته. كيف صاحت مفجوعةً عند قدمي أبيه أنها ليست مجنونة، هي تعرف أن ابنها ميت، متيقنة ولا شك لديها يهز يقينها بموته. لكن ما ذنبها إن تجلى لها ابنها يلومها كلما رأت عبدالله، ما ذنبها إن كان التجلي قاسيًا عليها ففكرت بالتخلص منه ولو ليوم واحد. ما الذي كان بيدها فعله تلك الليلة سوى أن تفزعه من منامه بصراخها وسبابها، جره من فراشه والرمي به في الشارع وإقفال باب البيت عليه حتى لا يدخله. أليس من حقها.. أليس من حق روح ابنها أن ترتاح، أليس من حق قلبها أن يرتاح من فاجعته ولو ليلة واحدة؟

يسترق عبدالله النظر نحو ساعة الحائط أعلى مكتبه، تجاوزت الثانية بدقائق، أمه لن تصمد وقتًا أطول. لا بد للنوبة أن تقع الآن، بيد أنها لن تقع إلى أن يصل عبدالله مائدة الغداء ليكتمل المشهد في ذهنها. هي لن تنهار، لن تنهار إلا بعد أن يأخذ عبدالله محله في المائدة على يمينها.

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

عقرب الثواني يدبُّ ببطء.. كأنما الساعة المعلقة تمنحه وقتًا أكثر يستعجل فيه جمع شتات نفسه.. تؤنبه.. تذكره أن كل ثانية يمكثها متلكئًا في مخبئه تعني أن النوبة ستتفاقم في حدتها. ما الذي ينتظره؟ ها قد جلس دقيقة على الفراش، والدقيقة باتت عشرًا. خجلًا يطأطئ رأسه ويحاوط ألمه بكفيه، رائحة دم غسان لا تزال عالقة على

راحتيه. يرفع عبدالله رأسه محتارًا، هل يتأخر دقيقة أخرى يفرك فيها يديه جيدًا إلى أن تختفي الرائحة، أم يخاطر بالنزول فورًا والانضمام إلى المائدة. وحين تصاب أمه بالنوبة، حين يضطر إلى الانقضاض عليها من الخلف، حين يشد قبضة ذراعه اليسرى أسفل صدرها ليشل حركتها، وبيده اليمنى يتلع عنقها ويرفع رأسها كي تتمكن عمته من إجبارها على فتح فمها، على ابتلاع الدواء من يدها، ألن تلتقط رائحة الدم على كفه، ألن تثير الرائحة ذعرها، ألن تضاعف من حدة نوبتها ويقلب المشهد الذي اعتادت عليه في ذهنها؟

يرمق الساعة بنظرة يائسة.

يثب من فراشه.

ومسرعًا، يغادر.

(١٢)

كان مستلقيًا على فراشه حين سمع صوت باب الشقة يفتح؛ أبوه من دخل حالًا. فلا أحد يقحم المفتاح في القفل مثله، رنة ارتطام المفاتيح الأخرى المعلقة بالميدالية بينما يلف مفتاح البيت هي هي ذاتها. صريرُ احتكاك الباب بالعتبة جراء دفعه له بكتفه الأيمن -وكأن جموعًا من الناس في الداخل تقف متمترسة خلف الباب كي تمنع دخوله- الإعلانُ الرسمي أن صاحب البيت قد وصل. فليس من عادة أبيه إعلان وصوله بإلقاء السلام على أحد، أو السؤال على أحد. لكن، وإن لم يعلم أيمن بالضبط كم الساعة، فقد أدرك مجيء أبيه أبكر من موعده المعتاد. وما إن يعبِّر عن قلقه هذا لبابا سنفور، الجالس على حافة المنضدة جانب سريره كي يرعاه في مرضه إلى أن ينام، قدماه البيضاوان تتدليان، يجيب عليه بسؤال:

«وعلام قلقك بنيّ؟ ألست سعيدًا بقدوم أبيك أيًّا تكن ساعة عودته؟».

«بلى.. سعيد». وفي ملامح بابا سنفور، في عينيه المتعاطفتين، ابتسامته المواسية، يقرأ أيمن عدم تصديقه كذبته.

«آه بنيّ.. لا بأس.. أخبرني إذن.. في أي ساعة يفترض بأبيك القدوم؟».

أيمن عاجزٌ عن منحه الإجابة، هو يجهل الساعة لكنه مدركٌ اللحظة. هي اللحظة التي تتلاشى فيها أصوات الأولاد خارج نافذته، كلٌّ يعود إلى شقته بعد لهوه برفقة الصبية الآخرين. هي اللحظة التي تخلع الشمس فيها رداءها الأزرق السماوي الحنون عن كتفيها وتلتحف رداءها البرتقالي البشع الذي يعمي الأبصار. اللحظة التي يعلو فيها صوت التلفاز فجأةً، صوت باب غرفة والديه يفتح ويغلق، يفتح ويغلق، نعلا أمه تلسعان بلاط الممر جيئةً وذهابًا.

هو مدركٌ اللحظة، بيد أنه يجهل ربطها برقم معين مثلما يفعل بقية الناس.

متوجسًا ينهض عن فراشه ويدلف نحو باب غرفته. لا يفتحه، بل يجلس على الأرض ويسند رأسه إليه، يرهف السمع إلى كل كلمة تنبس عن شفاه أمه وأبيه، لا بد أنَّ حديثهما سيدور حوله كما هي العادة في الأيام التي يستفرغ فيها ويتبول على نفسه في الباص أو الفصل أو ساحة المدرسة. يحضن إلى صدره قميص غسان، إذ تسلل من وراء أمه وخبأه خوفًا أن ترمي به في كيس قمامة أسود كما رمت من قبل بكل ملابس الطلبة الأغراب. أو لربما خاف عليه

من المصير الأسوأ، أن تغسله وتصيّره نظيفًا باهتًا ممسوحًا من كل أثر لصاحبه، وهو يريد صاحبه، يريده ويحتاجه بين ذراعيه كي يستجمع الشجاعة على تلقي عقوبة وجوده في هذا البيت، على الخطأ الفادح الذي وقع حين جاء به الملاك إلى حضن أبيه عوضًا عن الابن الذكي الذي كان موعودًا به.

«جاي بكير.. خير ان شالله..».

يجفل أيمن إثر رنة المفاتيح المباغتة التي قذف بها والده على سطح الطاولة الزجاجي إجابةً على سؤال أمه المستهزئ؛ رنة ارتطامها صرخة غضب، إعلان معركة ستندلع بين أمه وأبيه، دون حتى أي مقدمات.

«بعدي عن وجهي.. بعدي عني وروحي المطبخ شوفي لك أي شي تلهي فيه».

يقفز بابا سنفور من حافة المنضدة ويحط على كتفه، يدنو من أذنه الأخرى يحاول عبثًا طمأنته أن حديث والده في نبرة هادئة حتى وإن كان المضمون قاسيًا بعض الشيء لهي علامة جيدة. إلا أن أيمن يأبى الاقتناع بطمأنة بابا سنفور، فهو معتادٌ فقط على سماع صدى صراخ شرشبيل في نوبات غضبه وحيدًا في قلعته المعتمة، بعيدًا بعيدًا عن قريتهم. لذا ما أدراه، ما أدراه أنَّ الصوت المسموع بالكاد عبر شق الباب هو صوت الغضب الحقيقي المرعب.

«هاد اللي انت شاطر فيه.. مرجلتك ما تطلع إلَّا عليّ وعلى ابنك هالمسكين».

تمنى أيمن لو أنَّ أمه لم تستدع سيرته بتلك السرعة، ليتها منحته وقتًا كافيًا قبل ارتدائه درعًا على صدرها أمام ضربات أبيه. وها هو أبوه..حتى أبوه.. يوافقه على خطئها في تعجلها ذكر اسمه. ولكم سعد قلبه بموافقته إياه.

«لا تجيبي سيرته.. خليه بعيد».

«أخليه بعيد! وين أخليه بعيد.. ليش شو اللي جابرني أتحملك غيره.. غير إنه الشي الوحيد اللي يجمعني فيك. لولاه كنت طلعت من هالبلد مع أهلي ورحت عالأردن معاك أو بلاك».

ليست بالمرة الأولى التي يسمعها، وقوفه حجر عثرة في طريق أمه. وليس بيده لومها أو حتى معاتبتها، فهي اشتاقت إلى قريتها، عائلتها، جديه، أخواله، خالاته؛ في وجودهم كان لها بيت في كل عمارة على مد الشارع. عمارتهم ذاتها ضمت بيوتًا لأهلها وأهل أبيه، ومتى ما سئمت منه ومن أبيه كانت تتركهما بلطف وتأوي إلى بيت من تلك البيوت، تستمتع بجلسات الشاي والانخراط في الأحاديث وكأن الشيء الذي يضايقها أبدًا ما كان. زيارات الجمعة، زيارات العيد، المساءات الضاجة بالأقارب، رجالًا ونساءً، عجائز وأطفالًا، إما في بيته وإما في بيوتهم، يذكرها جيدًا. ويذكر انزواءه في تلك الزيارات في ركن يأوي إليه بعيدًا عن نظرات وألسنة الجميع المشغولين بالحديث في أمور أخرى تخص قراهم التي قدموا منها، وهذه القرية التي تجمعهم الآن، والتي عليهم أن يعودوا منها إلى قراهم الأولى التي اشتاقوا إليها؛ حتى أولاء من ولدوا في هذه

القرية ولا ذكرى لهم عن القرى القديمة ينبغي لهم العودة. *لم لا نبقى هنا، أليس هذا وطننا الذي بنيناه ولنا حقٌّ فيه؟* كان رد أبيه على فرضهم هذا الواجب عليه، ردٌّ يجر عليه غضب الرجال، النسوة يحدجن أمه بنظرات حانقة، وكأنهن يتوقعن منها أن تهب دفاعًا عن حق العودة إلى قراهم ضد هرطقة أبيه. لكن ما عاد لهذا الجدل من مكان، فهذه القرية تبددت. هجروها وما عادوا إلى قراهم الأولى، بل شدوا الرحال والمتاع إلى قرىً جديدة، تاركين بيوت قرية أمه وأبيه خاوية من أصحابها، تاركين العمارة قلعة مظلمة مخيفة بلا أصواتهم. والقلة ممن يسكنها ليسوا من قريته، لذا لا يكترثون بشأنه وشأن أمه وأبيه من بقيا وحدهما في هذه الصحراء القاحلة، بلا المساءات الضاجة، بلا الزيارات، بلا أحاديث القرى، بلا ضرب الزهر ودخان السجائر.

بلا درعٍ يقي أحدهما توحُّش الآخر، ويقيه هو توحُّش الاثنين.

«سألتيني ليش جاي بكير..». يجيب أبوه في تسليم لم يعهده منه قط، متجاهلًا حدة أمه. «جيت بكير لأني بعت حالي.. بعت حالي برخيص.. قبل شوي كنت مع بو فيصل.. كنا قاعدين نحكي عن الرواية اللي كتبتها.. اللي وعدني قبل الغزو إنه يساعدني في نشرها بمصاريه عند أكبرها دار نشر.. حتى إنه مستعد يشتري أقلام النقاد ويخبيهم في جيب دشداشته الصغير.. طبعًا هالشي يصير إذا أنا ساعدته يكتب مقالاته اليومية.. حلم حياته يكون كاتب كبير في الجريدة وما فيها شي إذا أنا ساعدته مساعدة بسيطة

في تعديل كل مسودة مقال قبل ما يبعثه على مدير التحرير.. مو هيك.. ما راح أعمل شي غير إني أصحح القواعد.. أصحح الإملا والهمزات.. أجمع الأفكار وأخليها مرتبطة.. أكمّل له على كل فكرة ناقصة.. أعدل على المقدمة وعلى النهاية وأرجع أعدّل على المقدمة مرة ثانية.. اِقلب له المقال وش وظهر من العامي للفصحى.. اكتب له العنوان اللي يناسب المقال ويشوق القارئ للي راح يقرؤه من أول نظرة.. شو فيها فدوى.. شو فيها إذا عملت كل هالشي كرمال روايتي.. بكره يصير لي رواية وروايتين وعشرة والناس.. الناس لحالها راح تعرف مين فينا الكاتب.. مين فينا الأديب... على أساس إنه العرب ما انهم أغبيا.. على أساس انهم يعرفوا كيف يقرؤوا منيح».

الانكسار في صوت أبيه ما سمعه أيمن قط، ما تخيله قط. كأن من تحدث للتو، من يصغي إليه بالحب كله والخوف كلّه شخصٌ آخر لا يمت إلى أبيه بصلة. عبثًا يحاول أيمن إبصار ثلم الجرح في صوت أبيه، بيد أنّه عاجزٌ عن فهم مكمن الخطأ في مساعدة بوفيصل، أين الخطأ في مساعدة الآخرين على كتابة واجباتهم. أين الخطأ في مدّ الطالب الشاطر يده لمساعدة الطالب الغبي. هو طالب غبي، ودائمًا ما تمنى لو أن أحدًا في فصله مدَّ له يد العون، لو أن أحدًا همس له الجواب فيغيثه من مغبة الوقوع تحت رحمة معلميه. يا الله.. كم من الألم كان سيتجنب بمساعدة الطالب الشاطر. لذا لا يسع أيمن منع نفسه عن التعاطف مع ذاك الغبي الذي يساعده أبوه، فالغباء ليس بالأمر الهين الذي يمكن للمرء أن يتحمل الحياة معه

كل تلك السنين. لكن أباه معذور، فكيف للطالب الذكي أن يذوق يومًا مرارة معاناة الطالب الغبي.

هالشي مستحيل.

سمع صرير كشط المقعد بالبلاط، فعرف أن أمه قررت الجلوس والاستماع. لم يسمع أي اعتراض من أبيه على تلك الخطوة، ولا أي ترحيب.

«اليوم طلبني على مكتبه.. ولما سألت ميرفت عن الوضع في المكتب إذا في شي لازم اتنبه عليه خبرتني إنه بوجاسم صاحب الجريدة اللي يكتب فيها بو فيصل موجود.. غير هيك ما عندها معرفة بشي».

حبس أنفاسه، حبسها لأن أباه ارتكب خطأً فادحًا بذكر تلك *الشرموطة* أمام أمه، لكن يبدو أن أباه نسيَ صراخهما قبل أسابيع حول تلك المرأة قبل أن يطرد أمه باكية من حجرتهما. تمنى من كل قلبه لو أنَّ بابا سنفور أحضر معه جرعة من تعويذة الإخفاء ـ لكان تجرعها وتسلل خارجًا ووقف خلف أبيه يهمس في أذنه كل لغم عليه أن يتجنب الوطأ عليه إذا ما أراد مواصلة الحديث مع أمه بأمان. فهو يتذكر كل لغم، يتذكرها كلها بالحرف والكلمة، يستشعرها عن بعد ولو كانت مدفونة في قلب الصحراء تحت سابع أرض. لكن يبدو أنَّ أمه نسيت هي الأخرى، إذ تلوذ بالصمت، لدى سماعها اسم ميرفت ما نطقت بكلمة، ولا حتى بحرف.

«دخلت عليه.. ولما دخلت عليه لقيت مسودة روايتي على الطاولة بينهم.. كنت عطيته إياها قبل شهرين.. بعد كم يوم من رجعته الكويت حتى يبعثها لدار نشر في لبنان.. هو طلبها مني.. حتى يكافئني على إخلاصي.. وبعدين خجلت اسأله عنها وشو صار فيها.. ليتك كنتِ هناك فدوى.. ليتك شفتِ الفرحة في عيوني.. إنت ما شفت عيوني فرحانة من قبل.. وفي هديك اللحظة عن جد.. عن جد تمنيتك تكوني هناك لتشوفيهم.. هه.. شو بدنا نعمل.. كانت فرصتك الوحيدة وراحت عليك».

ويحبس الضحكة التي كادت تفلت منه لدى سماع أبيه يصف عينيه بالفرحانة. ليته هو كان هناك في المكتب، لا بجسده، بل متنكرًا على هيئة رواية، موضوعًا على الطاولة بتأن بين كاستي شاي، أو بين فنجاني قهوة، أو بين كاسة شاي وفنجان قهوة. أبوه يقتحم المكتب دافعًا الباب بكتفه، الغبي وضيفه كلاهما يفزعان من كرسيهما رهبةً منه.. وكان سيراهما.. عيني أبيه الحانقتين يتبدَّل حالهما فجأة فرحًا برؤية أعز ما في الكون على قلبه ينتظره.. روايته الأولى.

«من كتر الفرحة اللي حسيت فيها ما عرفت حتى وين أقعد.. مع إنه الكرسي اللي بالعادة أقعد عليه في مكتبه كان فاضي وما حدا قاعد عليه.. استنيته لحتى قال لي *اقعد معروف شعندك واقف مثل الصنم عند الباب!* وقعدت... مع إنه كان مفروض أحس من وقتها إنه في شي غلط لأنه شوح لي بإيده كأنه عم يحكي واحد من مناديب الشركة، بس وقتها من فرحتي ما حسيت بشي. قلبي وعقلي كانوا

معلقين بكتابي اللي على الطاولة.. حلم حياتي على الطاولة بينهم الاتنين.. بين بوجاسم وبوفيصل».

أي تعاطف لدى أيمن تجاه الغبي في المكتب تبخر في الهواء، إذ يستحيل أن يكون بوفيصل غبيًّا. لا، هو ليس بغبي. إذ كيف يكون غبيًّا وقد جعل أباه، أذكى الناس، ينسى على أي مقعد من المفترض أن يجلس عليه. فالوقوف متمسمرًا مشدوهًا كما الصنم عند الباب، نسيان أي مقعد يفترض الجلوس عليه، انتظار الأمر الزاجر بالحراك هو من شيم أيمن، لا من شيم أبيه.

«في الأول حكوا كم كلمة بس والله.. والله إذا تسأليني عن شو حكوا صدقيني مش متذكر شي.. قلبي كان يدق بسرعة وكل تركيزي إني أمسح عن وجهي هالضحكة الغبية.. بتعرفيها هالضحكة فدوى.. بتعرفيها منيح.. هي ذاتها ضحكة ابنك أول ما يشوفني داخل عليه بأي شي من البقالة حتى لو كانت علكة بطعم صفيح».

ويخجل أيمن من نفسه، دمعة تفلت من عينه. ليست بالمرة الأولى التي يسمع فيها والده يصف ضحكته كلما وقعت عيناه على كيس البقالة الأسود في يده بالضحكة الغبية، فيزجره عليها ويأمره بأن يمسحها عن وجهه إن أراد الحصول على ما في جعبة الكيس من حلوى. وحتى يكون منصفًا مع أبيه فهي فعلًا ضحكة غبية. كيف لا، فهكذا وصفها مدرس العربي لدى صراخه عليه بكل ما أوتي من غضب واستياء. بذات الكلمات، هي هي ذاتها، وصف المدرس

الضحكة التي ارتسمت على وجهه لدى ذكر اسمه من بين الطلاب الثلاث الذين حصلوا على أقل الدرجات في الإملاء. وحتى هذه اللحظة يستغرب غضب معلمه واستنكاره الضحكة عليه، فهو لم يكن الأضعف، لم يكن الأخير، بل احتل المرتبة ما قبل الأخيرة. أخيرًا.. أخيرًا في الفصل ثمة من هو أغبى منه.. أوَ ليس هذا الخبر بخبرٍ سعيد!

«كنت ضايع.. ضايع في فرحتي لحد ما انتبهت.. انتبهت لبوفيصل يحمل المسودة عن الطاولة ويحطها في حضنه.. فتح المسودة وراح يقلب في الصفحات ويحكي براس كبير عن فكرة الرواية ويؤشر بإيده اليمين المعلق في معصمها المسبحة الكهرمان على الفقرات المحوَّطة بالقلم الأحمر.. وبعدها رمى عنه الكتاب وصار يشوّح بايدينه التنتين يمين وشمال ويحكي من كل قلبه عن هيّ الفقرات.. شو اللي راح يغيره فيها.. تصدقي فدوى إني كنت راح اسأله.. عن جد كنت راح اسأله لبوفيصل هالفقرات ليش مهمة عندك كل هالقد كاتبنا الكبير.. ليش راح تغيرها... خبِّرني.. خبِّرني بالله عليك ليش أصلًا حاوطتها بقلمك الأحمر».

ويائسًا يتنهد، طَرْقُ العرْقِ على صدغه يشتد وقعه. فقلم معلميه الأحمر ما ينفك يزجر فيه ساخطًا من على دفاتره وأوراق امتحاناته، إذ ما عاد يحتمل نزيف حبره هدرًا على أخطائه. لكن لم يفهم أيمن من حديث أبيه من الذي شخبط على كتابه باللون الأحمر، هو أم الغبي الذي تبين أنه ليس بغبيّ. تلك بالعادة الأحاديث التي يتوه

فيها لدى محاولته استيعابها. فإن كان أبوه من كتب تلك الفقرات، فلم تراه يسأل الغبي عنها. وكم ارتاح لسماعه أمه تسأل أباه، فلا بد هي الأخرى تاهت:

«ويا ترى سألته؟».

«لا.». يجيبها في ضحكة استهزاء خافتة، «لا والله ما سألته.. حتى وقتها مع إنه كل شي صار واضح.. أوضح من عين الشمس.. ظل عندي أمل إنه عم يتهيأ لي.. إنه اللي عم يدور براسي وسواس ولازم إيماني بالله يصير قوي.. إنه الله اللي بعث لي هيك ولد مو معقول يكسر مرة تانية قلبي.. مو تقولوا هيك.. إنه الرب ياخد والرب يعطي.. فإذا الرب سلبني وطني.. سلبني كرامتي.. سلبني فرحتي بالولد فأكيد.. أكيد راح يعطيني بدالها كلها فرحتي بروايتي.. كتابي الأول».

يستغرب أيمن حديث أبيه عن الله، فهو لم يرَ أباه يومًا على سجادة صلاة. أمه بعد رحيل أهلها باتت تصلي وتقرأ القرآن وتدعو ربها آناء الليل والنهار، غطَّت شعرها الأسود بالحجاب الأبيض وغطت جسدها الأبيض بالسواد وفي جيبها ترافقها مسبحتها الخضراء. كل شيء تفعله *منشان الله يحبها*، كذا قالت له. وهي تترقب قدوم ذاك اليوم بكل الصبر والأناة، يوم يحبها الله، وستعرف يومها أنه بات يحبها. كذا أجابته حين سألها والفضول يعتريه عن السبب الذي دفع بأمه إلى نزع كل ما على طاولة زينتها من مكياج وعطور وأوراق صغيرة والصور العائلية المدسوسة في

إطار المرآة البيضاوية ورميها في كيس قمامة أسود كبير تولى هو بأمر منها إبقاء فوهه مفتوحًا على مصراعيه، وجرفتها كلها بكفها اليمنى في تلك الهوة السوداء دون أي تمييز. حتى تلك الصورة التي كانت يومًا محببة لدى أمه -صورة السعداء الثلاثة كما يحلو لأبيه أن يسميها مستهزئًا- تلك التي تجمعه بأمه وأبيه أول يوم له في المدرسة وكلاهما يبدوان سعيدين به، حتى تلك الصورة دفعت بها إلى الهوة أمام عينيه. ولأن أيمن كان قلقًا على أمه، قلقًا عليها من خيبة الأمل، أراد أن يطمئن أنها حقًّا تعرف ما تفعل. فسألها وألحَّ عليها بالسؤال، كيف عساها ستعرف اليوم الذي سيحبها فيه الله من بين كل الأيام الكثيرة التي تبدو له متشابهة.. فأجابته في صوت مخنوق دون أن تلتفت إليه:

لَّما الله يخلصني منك ومن أبوك.. يومها راح أعرف إنه الله يحبني.

لكن أباه، أباه ما عمل يومًا شيئًا لإرضاء ربه. على الأقل لم يفعل أي شيء من تلك الأمور التي تعلمها في المدرسة: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج. قبل أسبوعين حين فرش أيمن سجادة الصلاة إلى جانب أمه كي يتعلَّمها بعد تعلّمه الوضوء، فينال بوضوئه وصلاته رضا ربه ومعلمه، انتزعه والده من السجادة ساحبًا إياه من يمناه التي رفعها مع يسراه كي يكبّر. التفت أيمن إلى أمه لتنقذه غير أنها كبَّرت ودخلت ملكوت الصلاة من دونه، والمصلي لا يثنيه شيء عن مواصلة صلاته، *ولو تزلزل الأرض تحت رجليه، لو يطخوا*

الصهاينة روس أولاده قدام عينيه كذا قالت له ضمن تعليمها إياه. وبذا تُرِك وحيدًا يواجه عاصفة أبيه، لكن، وربما محبةً من الله على تلك اللحظة التي وقفها على السجادة بنيَّة الصلاة فلم يفِ منها، ولن يفي منها في حياته بأسرها، إلا لحظة التكبير تلك، فأبوه وعلى غير عادته كان لطيفًا معه. أجلسه على حافة السرير وجلس هو جانبه، طوقه بذراعه اليسرى، ضمه بحنو إلى صدره، ثم قبَّله على رأسه. وبينما راحا يتأملان أمه تؤدي صلاتها في خشوع وتضرع، شاركه أبوه درسه الديني بأعلى صوته:

اسمعني أيمن... ما في داعي تعمل أي شي حتى تدخل الجنة... ما في داعي تتعب حالك تصلي وتصوم وتتصدق وتزكي وتحج... يكفيك إنك فلسطيني لحتى ربنا يغفر لك كل شي.. هو عذّبك لَمَّا خلقك وراح يعذبك دايمًا في حياتك وهيك.. لهيك راح يدخلك أحلى جنة من جناته من غير ما تعمل له أي شي.. أي شي.. انت فهمان عليّ أنا شو عم بحكي!؟ هاي راح تكون مكافأته إلَك لأنك عشت حياتك فلسطيني وما فكَّرت في يوم.. في يوم.. تقتل حالك لترتاح من وجع عذابه إلك.. لأرتاح أنا من وجع عذابه إلي.. إذا عن جد تحبني أيمن.. وعن جد شايف حالك ابني.. افهم عليّ منيح ولا تخلّيني أعيد عليك ألف مرة الحكي!

هز رأسه بالإيجاب. هزه مرارًا وما كان ليثنيه شيء عن هز رأسه ألف مرة كرمى إرضاء أبيه وطمأنته إنه *فهم عليه منيح.. إنّه والله.. وحياة الله في سماه ما راح يعمل لربنا أي شي..* وأبدًا ما كان

ليجرؤ على قتل نفسه.. حتى النفس ما قبل الأخير ما كان ليجرؤ على فعلها.

«فجأةً ما شفته إلا ماسك مسودة الكتاب وراميها على حضني.. هيك كأنه ما تعني له شي بعد كل هالحكي اللي حكاه والمديح اللي غرق حاله فيه. حتى ما رفع عينه وتوجه لي بكلمة وحدة.. ظل يحكي مع بو جاسم.. آخر شي بس خبره عني. خبره قد ايش إني موظف وفي وما غدرت فيه على عكس كتير فلسطينية غدروا بالبلد وأهل البلد.. كيف إنه كان فيه يسفرني بأي لحظة.. يبدلني بأي حدا لبناني أو سوري أو حتى مصري.. بنص سعري.. ما احنا كلنا نفس الشي.. بس الحمدلله بيَّن فيني المعروف.. هيك حكاها بالضبط وهو عم يتمسخر.. بيَّن فيني.. اسم على مسمى.. خبَّره كمان اني شاطر في الكتابة وموهوب كتير.. وإنه ما في حدا أحسن مني حتى يشتغل على التعديلات.. وقد ايش انه إلي مستقبل ككاتب عربي وأديب كبير بس لو اترك عني حكي السياسة وتحرير فلسطين وأركز أكتر في الكتابة مثل ما هو بوفيصل ركز عليها وطلع بهالرواية العظيمة».

نفحةٌ من حنان أمومي التقطها في صوت أمه لدى سؤالها أبيه:

«ليش انت من إمتى تحكي بالسياسة».

«والله ما بعرف يا فدوى.. والله ما بعرف.. إنت عشت معي كل هالسنين.. عمرك سمعتيني أحكي سياسة.. أنا الفلسطيني الوحيد اللي ما بطيق الحكي بالسياسة لأني من زمان عارف الحقيقة منيح..

عارف انه احنا ما نسوى خرا عند ربنا ولا عند حدا.. وما فينا نعمل شي.. لا حتى نساعد حالنا ولا حتى يساعدنا حدا».

«أستغفر الله العظيم وأتوب إليه».

«آه استغفريه.. استغفريه.. وبالمرة اطلبيه يعطيك عقل أكبر من اللي ابتلاك فيه وبليت ابني فيه. أو حتى اطلبيه يرجع لك أهلك أو يخلصك مني أو يرجع لك فلسطين، والا أقول لك.. شو بدنا بفلسطين.. اطلبيه يرجع صدام ويمحي هالبلد محي، يحرقها من أولها لآخرها مو بس آبارها. وهالمرة الله في سماه الله راح احرقها معه، كل بيت من بيوتها وكل شارع من شوارعها، راح احرق كل ولد من ولادها بعد ما أطخهم برصاصة في قلبهم، راح اقتلهم واحرقهم بإيدي حتى يبين فيني المعروف منيح».

ارتاع أيمن على انفعال أبيه الهستيري، على اختلاط النحيب بالضحك في صياحه المفجوع.

وحتى في غمرة روعه، لم يتعنّ أيمن سؤال عقله أن يريه ما سيحدث، فهو يعلم جيدًا ما سيحدث. بضربة واحدة، ضربة قاضية، ستقطع أمه دابر ضحكة والده المجنونة بنصل السكين المعلقة على طرف لسانها. رأس الضحكة المقتولة تهوي عند قدمي أبيه، عيناها وعيون الألف أفعى تحدق إليه طالبةً الانتقام لها، وسينتقم أبوه لضحكته المجنونة وأفاعيها الألف مثلما كل مرة ينتقم لها.

كيف

كيف غابت النهاية المحتومة رغم وضوحها عن بال أمه وأبيه، هما الأذكى منه بكثير.. بكثير؟ حتى تلك الأفاعي الألف الزاحفة نحو غرفته، مرعوبةً تنسل من أسفل الباب بعد هجرها رأس ضحكة أبيه.. كلما التقط أيمن أفعى وأودعها قلبه همَّت له بذات السؤال. فالأفاعي تعلم يقينًا منذ ذاك اليوم المشؤوم الذي خانت فيه الإنسان أن التكرار في الحكاية لا منطق فيه، ولا نهاية أخرى تُرجى.

هيه أيمن، ألم يعش والداك هذه اللحظة من قبل كما عشتها أنت؟

أليس لأيٍّ من أبويك قلبٌ يوجعه؟

أليس لأيٍّ منهما رأسٌ يؤلمه؟

وماذا عن الصراخ؟ ألا يطاردهما في أعمق منامهما، ألا ينتشلهما عنوةً من أجمل أحلامهما؟ كيف لهما ألا يتقيآن؟ كيف لهما ألا يتبولان على نفسيهما ذعرًا مما سيجري لهما الآن؟

«عن جد إنّك واحد حيوان... وبوفيصل تبعك عارف هالشي هو كمان ولهيك عرف إنك راح تبيع كتابك إله برخيص.. مو لأنك فلسطيني وخايف على عيلتك ورزقك.. ولا لإنك خايف يقلعك عن الأرض اللي ولدت فيها وتتهجر من جديد.. لأ.. لأنه شافك على حقيقتك.. شاف إنك ما تسوى خرا عند حالك.. وهيّك.. هيّك بعت كتابك إله وراح تبيع كتابك إله كل مرّة برخيص.. يا رخيص».

الصمت بين أمه وأبيه رعدٌ مدوٍّ، صليلٌ مستطير يصم أذنيه فيغطيهما بكفيه، يخبئ رأسه بين ركبتيه، قميص غسان يهوي على الأرض من بين ذراعيه.

حتى بابا سنفور

كفاه الزرقاوان تغطيان أذنيه

لحيته البيضاء، قبعته الحمراء، محشورتان بين ركبتيه

عاجزًا عن طمأنة الصبي بإيجاده حلًّا عن قريب

فمن أين له بتعويذة، من أين له بجرعة سحرية، لا في كتابه ولا حتى في كتاب شرشبيل، تقي المسكين شر أبويه.

وها عين العاصفة الشريرة مقبلة عليه، خبط نعلي أمه المذعور على بلاط الرواق الضيق، من خلفها يلحقها خبط حذاء أبيه. والصمت ينكسر، ينكسر على وقع ارتطام جسد أمه بباب غرفته.

صراخها المستغيث لا يهدئ من غضب أبيه، ينهال عليها شتمًا وسبابًا وصفعًا ورفسًا ولكمًا، باكيًا يصيح:

أنا مش رخيص.. مش رخيص.. مش رخيص..

***

دقائق مرّت.. ساعات.. أيام.. أعوام.. من يدري؟ الصمت عاد وأرخى بظلاله المعتمة على المكان. يتحسس أيمن الأرض بحثًا عن قميص غسان ويحمله معه إلى فراشه، يفرده بكل عناية

على وسادته البيضاء. يضطجع على جانبه، يحضن صدره ويغمض عينيه، غير مبال لرائحة قيئه وبوله المنبعثة من جسده، وتلك المنبعثة من البقعة على السجاد، فقد اعتاد عليها وما عادت تزعجه كما تزعج بقية الناس. في سهوة نعاسه يسأل نفسه إن كان بمقدور بابا سنفور إلقاء تعويذة سحرية على قميص غسان فيحولها إلى عباءة إخفاء ويغادر هذا البيت الملعون ولا يعود إليه أبدا.

إن جاء بابا سنفور ذو العينين الفرحتين، ذو العينين الغائرتين فزعًا قبل اختفائه عائدًا إلى قريته، إن زاره الليلة في المنام سيرجوه أن يصيّر قميص غسان عباءة إخفاء. وسيستجيب بابا سنفور لرجائه هذا بعد كل ما سمعه ورآه، وسيتدثر أيمن بالقميص ويرحل.

سينطلق في الرحلة التي خطط لها ويمضي نحو الغابة المسحورة، فبابا سنفور علَّم قبل ثلاث ليال مكانها على الخريطة المرسومة. لن يوصيه بحمل حصىً في جيبيه ولا فتات خبز، *اسمعني بنّي، ما إن تطأ قدماك خارج البيت، تُه في الغابة، وإياك ثم إياك تلتفت خلفك ولو مرة واحدة وإلا ستركض بك ساقاك إلى بيتك رغمًا عنك ولا محالة ستهلك*. وسيعمل بوصية بابا سنفور، سيتوه في الغابة ولن يلتفت خلفه مرة واحدة، وسيظل يجول ضائعًا إلى أن يجد البيت المصنوع من الحلوى، لن يأكل منه ولا كسرة لأنه إن أكل سيستفرغ وهو لا يريد لقميص غسان أن يصيبه شيء، ولا لبيت الحلوى أن يتوسخ بقيئه.

ما إن يصل، حتى يجلس على المرقاة في انتظار قدوم الساحرة

الشريرة من ساعات دوامها المكتبي الطويل. سيخلع عنه القميص حتى تراه، فعيناها اللوزيتان مجهدتان ترنوان إلى النعاس، وقد لا تتنبه إلى وجوده إن بقي متدثرًا في الخفاء. وحين تصل حاملةً على كتفها الأيمن حقيبتيها الثقيلتين، إحداهما من جلد والأخرى منسوجة من قماش، سيسعد قلبه برؤيتها مرتديةً فستانها الأحمر بلون ورد الجوري على الشرفات، الموشى بدوائر صغيرة بيضاء بياض الثلج المنهمر في شتاء عمّان. سيلوح لها بيده وهي ستراه، ستنادي عليه من باب السياج *أيمن معروف* بلهفة المشتاق، صوتها الدافئ مفعمٌ بالحنو والإشفاق. ستتجلى له بوجهها الطفولي، بأسنانها الأمامية المعوجة، بشعرها الأسود يلتف عبثًا في نهاياته غير السويّة، غرةٌ تنسدل على جبينها من أسفل قبعتها القش المزينة بالزهور الذابلة من الفل والياسمينات، وستتهادى صوبه مزهوةً بعنقها الرفيع وبأنفها المعقوف الكبير وحاجبيها الأسودين الكثين. ما إن تدنو حتى يلمح في عينيها بريقًا لَّمَّاعًا وكأنما كل عين مرصعة بنجمة اختلستها الساحرة من بيتها في أعالي السماء، في عتمة الليل، في غفلة الشهب الحارسة، وحبستها لديها كي تفتن بها الأولاد الصغار الموعودون بالقدوم إليها على مائدة العشاء. هو وكل الأولاد الذين حمل بهم الملاك إلى آباء وأمهات لا يحبونهم، يفرّون إليها من بيوت مصنوعة من الدموع والذعر ووجع القلب والرأس ونوبات الصراخ.

ما إن تضع يدها على كتفه مرحبةً به حتى يعتذر لها من كل قلبه على نحافة جسده الضامر؛ ورغم جوعها وخيبة أملها، ستقبل

اعتذاره بروح طيبة وبابتسامة حنونة ستشفق عليه، مؤكدةً أن الخطأ ليس خطأه، فمسؤولية إطعامه تقع على أمه لا عليه. ستمسك بيده ويصعدان المرقاة، ستتناول المفتاح الخشبي الكبير وبرقة تدخله في القفل، الباب يُفتح منسابًا بلا أي صرير، ستترك يده وتربت على كتفه، *أهلا وسهلا بضيفي الحبيب*، لن توكزه ولن تدفع به، بل ستترك له المجال كي يتأمل الردهة بكل ما فيها من شوكولا وحلوى تشيد جدران بيتها بكل الألوان، طيف قوس قزح الأخاذ يومض في كريستال الثريا السكريّ. وفي طمأنينة وإذعان سيدخل بيتها، هو الأول لأنه الضيف وعلى يمينها، وستلحق به وتقفل من خلفهما الباب. سينتظرها تعلق قبعتها وحقيبتيها الثقيلتين في المشجب قبل أن تشير إليه بالدخول إلى المطبخ برفقتها حيث سيجلس في هدوء وأدب على أحد كرسيّي المائدة المستديرة ريثما تبحث في خزائنها عن أصغر قدر من قدورها تغلي فيه الماء استعدادًا لطهيه وإعداد وجبة خفيفة على العشاء. ما إن تضع قدر الماء على النار حتى تسحب الكرسي الآخر وتجلس قبالته على المائدة تقطع الطماطم والكوسا والجزر على لوح الخشب، وعلى إيقاع ضربات سكينها تدندن له موسيقى أصدقائهما السنافر، وسيطرب لصوتها العذب، وبإشارةٍ ضاحكة منها، سيدندن على الإيقاع معها.

ومتى ما سألته عن أحداث يومه في المدرسة بعد أن تكسر قطعة صغيرة من حرف الطاولة المصنوعة من الشوكولا الداكنة وتهديها له لعلّه يأكلها، سيسرد عليها بحماس حكاية التقائه صديقه غسان، ومعًا سيتناقشان نظرية عمن قتل الأب برصاصة بين عينيه بعد

عرض الدليل والبرهان. وفي حمى النقاش، لن يكترث أيٌّ منهما بقطعة الشوكولا الآيلة بين أصابعه إلى الذوبان.

وما إن يفرغا من حديثهما، حتى تنهض عن كرسيها وبحد سكينها تجرف قطع الخضار عن اللوح الخشب في قدرها الصغير.

وحين تزف اللحظة الموعودة، ستتناول منه بلطف قميص صاحبه الوحيد وتفرشه على المائدة كي يستلقي عليه بعد أن يخلع عنه كل ملابسه التي جاءها بها ويرميها في السلة الكبيرة في الزاوية مع كومة ملابس الأولاد.

وهو لن يعارضها.

عريانًا من رأسه إلى أخمص قدميه سيقف عند طاولتها.

لا خجل ولا حياء سينتابه أمام تفرس عينيها المفجوعتين.

هي وحدها ستبصر أثلام السياط على جسده، تتلمس بأناملها الأخاديد النازفة المحفورة على فخذيه، على وجهه، صدره، ظهره وبطنه، رأسه وذراعيه، وعلى غشاء كل عينٍ من عينيه.

وحين ستعرض عليه، رغم جوعها، فرصةً أخيرة.

أن تحممه بماء دافئ وتغسل ملابسه وقميص صاحبه.

تعود به سالمًا إلى بيت أبويه مع صينية كنافة نابلسية من صنع يديها.

فلن يقبل أبدًا بصدقتها.

حين تسلخ جلده الأبيض عن لحمه الأحمر بحد السكين المثبتة على طرف لسانها.

لن يتلوى ويقاومها.

حين تكسر عظامه بأنيابها وتنتزع قلبه بعد اقتلاعها عينيه وأفاعي أبيه الألف بأظفارها.

لن يصرخ متوسلًا رحمتها.

رجاؤه الوحيد الذي يحمله لها، قبل استلقائه على المائدة، أن تروي له أثناء طهيها العشاء حكاية الأخ وأخته اللذين وصلا عتبة بيتها قبل يومين وكادت أن تلتهمهما.

فكل ليلة

اعتادت أمه سرد حكاية قبل المنام

ومذ تلك الساعة التي رمت بها صورة السعداء الثلاثة بحد كفها في الهاوية السوداء

ما عادت أمه هي أمه

وما عادت تروي الحكايات.

(١٣)

تطرق الباب بخفة. لا إجابة ولا حس. تمسك بمقبض الباب وتفتحه بهدوء.

غسان

غسان

كانت قررت تركه نائمًا في فراشه إلى أن يستيقظ بنفسه، لكن ها الشمس غابت وما استيقظ بعد. لم يأكل لقمة مذ عشاء البارحة، ولدى خروجه لينتظر الباص هذا الصباح، ترك وراءه على الطاولة شطيرة الجبنة بالطماطم والخيار التي أعدتها له.

كانت الغرفة معتمة، خلا خيط من خيوط الشمس الآفلة يتبدد تائهًا في فضائها. تدخل وتغلق الباب من خلفها، وجامدة تقف في مكانها وكأنما فتحت الباب على عالم منسوج من ظلال، لا شيء من الأخيلة التي تراها حقيقةً ماثلٌ أمامها: لا ابنها النائم في فراشه، لا البنطال والسروال المرميين عند عتبة الحمام، لا كومة

الملابس المرمية خارج درف الخزانة، لا الصحف المبعثرة على مكتبه وكرسيه، لا سلة المهملات الفائضة عن آخرها بالمناديل الورقية وعلب السجائر، حتى صورتها على المرآة المعلقة على الجدار ليست بصورتها، إنما خيال امرأة أخرى تجهلها.

بهدوء حذر تتلمس خطاها بين الظلال وتجلس على الفراش جانب ابنها، ترفع اللحاف بحنو عن جسده كما كانت تفعل متى ما أرادت إيقاظه وقت كان طفلًا، لكن هذا ليس بجسد طفلها، هذا الجسد الفتيُّ اليافع النائم في سكينة على ظهره تجهله وتجهل صاحبه. المرة الأولى التي ترى فيها غسان نائمًا منذ عام، والمرة الأولى التي تراه فيه عاريًا منذ خمسة أعوام يوم أعلن لها بكل فخر أنه كبيرٌ بما فيه الكفاية حتى يتحمل مسؤولية الاستحمام وحده. ابتسمت على وقع تلك الذكرى، على صوته ينادي عليها ضاحكًا من حوض الاستحمام: «ماما أدري انت هني.. خلاص روحي أنا صرت *ريّال*».

لكنها ما تزحزحت عن مكانها، ما كانت لتتركه وحيدًا دون أن يطمئن قلبها أنه في أمان.

تعود وتغطيه باللحاف حتى خصره، وبعد تردد تضع راحة يدها اليمنى على صدره، يعلو ويدنو مع كل نفس، جلده النديُّ بقطرات العرق لا يزال يحتفظ بآخر ما تبقى من نعومة الأطفال. ما كان لها أن تبصر جروحه وآثار رضوضه جيدًا في العتمة، إلا أنها شعرت بملمسها تحت أناملها العابرة على صدره، تمسح عنه العرق بكفها. وإذ تسمعه يناديها همسًا:

«ماما؟».

عيناها في عينيه اللتين فتحهما لتوه، وفي رماديتهما تلمح لمعة الفرح التي اعتادت رؤيتها كلما نظر في عينيها، وفيهما وجدت طفلها يشتاق ملهوفًا إلى عناقها، حبيسًا في هذا الجسد الذي تجهل شكله وتضاريسه.

ترفع يدها عن صدره وتتلمس وجنته برفق:

«يا روح ماما.. بعدك تعبان؟».

كاذبًا، يهز غسان رأسه.

لدقائق لا أحد منهما ينبس بكلمة، يلوذان بالصمت وصلًا بينهما: هي تمسح على رأسه، تمسد عقص شعره، وهو دون أن يعي، يبتسم لها بدلال.

«شرايك أقول لك قصة، من زمان ما قلت لك قصة قبل النوم».

لا تسمع ردًّا من ابنها، لكنها تشعر بالابتسامة ترتسم على شغاف قلبه قبل أن تشعر بها أناملها تتسع على طرف ثغره.

تنحني وتقبل طفلها بين عينيه وتستهل حكايتها. حكاية المدينة التي أصبحت يومًا على خبر أليم محزن. عن الملك الذي مات تاركًا خلفه أميرة صغيرة تجهل ما تفعل بما أورثها إياه.. عن وصيته الغامضة من كلمات معدودات.. عن نذيره بالعقاب الأبدي إن فشلت في تنفيذها.. *تخيّل.. يحبسونك في صندوق خشب طول*

حياتك.. التنازل عن إرثها وبدء حياة جديدة ليس بخيار.. فهي مجبرة بالدم على حمله مهما كان ثقيلًا.. لذا عليها أن تصنع المستحيل.. أن تمسك بالشمس.. وحيدة بلا عون من أحد.. لكنها تفشل وتبكي وتيأس.. إلى أن يأتيها من يساعدها بكلمات معدودات ويحمل إليها قنديلًا صغيرًا..

ويراها غسان، يرى الفتاة مختبئةً في قصرها، ترقب مذعورة من على السطح أسوار قصرها تنهار، الأبواب الموصدة تشرع، السماء المظلمة تضج بالأضواء المتفجرة والمفرقعات والتكبيرات، من بعيد أخيلة رجال يحملون قناديل صغيرة، أعينهم المسعورة تشتعل غضبًا، ماضون قدمًا نحوها، ينوون قتلها، لكن ليس قبل سحلها وتمزيق جسدها وإذلالها عقابًا لها على محاولتها تحقيق إرثها على حسابهم، على محاولتها الإمساك بالشمس بحبال مفتولة من ترابهم، كل من في جيشها وقادة حرسها فرَّ وما التفت أحدهم إليها، وهي مدركة أنَّ الطريق انتهى بها هنا، فأي خلاص ترتجيه؟ ما الذي تنتظره قبل أن يلحق بها الهدير الوحشي، قبل أن ينطفئ تحت خبط الأقدام الضوء الأبيض المعلق في قنديل على صدرها؟ لا، لا وألف لا، ستقف ندًّا لهم وللموت، والموت لا يوقفه إلا الموت. فتهرع إلى حيث غرفة الحارس الفتيّ، وحده من بقي جانبها مخلصًا لها، وتهرع به خارجًا إلى الحديقة الأمامية، تجثو على ركبتيها أمامه، رابطة الجأش تمسك بيده اليمنى وتودع كفه مسدسها وتصوبه نحو رأسها، بين عينيها، *اعتقني، اعتقني*، عيناها الحازمتان الدامعتان عمياوان عن الفاجعة في عيني الحارس، عن ذعره، عن حبه الجارف لها والذي أخفاه عنها

وعن نفسه تحت أكوام الخجل والازدراء كل تلك السنين. عمياوان عن أن الرصاصة التي سيطلقها ستعتقها، تطير بروحها نجمة في سماء بعيدة، وترميه هو في بئرٍ عميقة.

حيث سيستحيل عليه أبدًا

الإمساك بالشمس.

(١٤)

ما كانت ثقيلة.

ولا يومًا كانت ثقيلة.

حاملًا إياها نحو حجرتها بين ذراعيه لا يحمل جسدًا من لحم وعظام وجلد. بل يحمل وهمًا. مثل الطفل الذي يؤدي دورًا تمثيليًّا يتخيل فيه نفسه بطلًا خارقًا يحمل أحدًا بنية إنقاذه، بيد أنه في الحقيقة لا يحمل بين ذراعيه سوى كائنٍ من هواء.

عمته فاطمة تتقدمه، هي المسؤولة عن فتح باب الغرفة له، هو ذا دورها. ليس هذا فحسب، دورها رفع اللحاف كي يضع أمه على فراشها، وعليه هو أن يدثرها به لا هي. لم يفهم أبدًا السبب وراء إصرار عمته على تلك النقطة ولا يكترث حقًّا لمعرفته. كما لم يكترث بمعرفة السبب وراء إصرارها عليه الإمساك بعنق أمه كما كان يفعل والده، بيده اليمنى لا اليسرى رغم كونه أعسر، بينما تجبرها على ابتلاع الحبوب. فأمه وعمته اتفقتا دون علمه على تكرار المشهد كما حصل أول مرة ولا نية لإحداهما تغيير ركنٍ من أركانه.

هو الآخر، دون أن يعي، دخل معهما في الاتفاق. فمرةً بعد مرة أخذ يرتاح للأمان الذي يؤمنه التكرار المتطابق للنوبات. ما إن تنسحب عمته من الغرفة بعد أن يغطي أمه وتغلق الباب، حتى يسحب الكرسي من أمام مزينة أمه ويجلس عليه جانب سريرها، يرقب تنفسها البطيء وهي تغرق أمامه في سباتها حيث يقوم عالمها الآخر، عالمٌ لا وجود له فيه. وسيبقى جالسًا هكذا يرقبها ريثما تفرغ عمته من التنظيف وإخفاء الأدلة. وسيتناهى إليه جلبة كنس حطام الأطباق والآنية من أصغر شذرة إلى أكبر شظية، اندفاعُ الماء من الصنبور وقرقعة الناجي من الصحون، إعادة ترتيب المائدة وحمل الكراسي من الأرض وصفِّها، وما إن تخمد تلك الأصوات حتى يعلم أنَّ وقت الرحيل أزف فينهض ويعيد الكرسي إلى مكانه أمام مزينة أمه ويقف خارجًا، في انتظار عمته توصد عليها الباب بالمفتاح. إلا أنَّ اليوم حدث ما كانت عمته تخشى وقوعه. تفصيلٌ واحد مختلف عصف بالمشهد وكاد ينتهي بمأساة.

رائحة كفه، رائحة دم غسان قلبت المشهد رأسًا على عقب، ولأول مرة في نوبات جنونها يرى أمه وقد تلبسها الذعر حقًّا. لم يكن الأداء الاعتيادي لها حيث تظهر له مقاومة بسيطة مصحوبة بنوبة بكاء، مع المعتاد من الصياح والسباب، يقيد حركة جسدها بسهولة بين ذراعيه كأنما ينال مساعدة مقصودة من أمه تعينهما على تجاوز النوبة بأمان. عنقها في يده اليمنى الخرقاء تذعن لأمره دون أن يضطر مرة واحدة إلى الضغط عليها بقوة أصابعه. عمته تدفع بحبتي الدواء في فمها، ومن أطراف أنامله على حنجرتها يشعر بها

تبتلعها بسهولة. لكن اليوم، اليوم كاد يقتلها، كاد يحطم عنقها بيده التي اكتشف أنها ليست بخرقاء بل قاتلة. كاد يكسر ضلوعها ولربما كسر ضلعًا لها، ليس بمتيقن، ولن يعرف يقينًا حجم الأذى الذي تسبب به إلا حين تستيقظ.

ليتها تبقى نائمة مدى الدهر فلا يعرف.

ليته يعود إلى تلك السنة الأخيرة ما قبل الغزو حين اقتنع والده أخيرًا بضرورة إيداعها الطب النفسي بعد محاولتها حرق غرفة عمته. تلك كانت سنةً جميلة. كان له أن ينام دونما أرق ويأكل بهدوء وجبته كاملةً دون أي قلق. صار وجود عمته الضامن على بقاء البيت، الضامن على معايشة الوهم أن هذا البيت لم تشهد جدرانه أي حزنٍ أو ألم. ورغم تولي عمته مسؤوليتها تجاهه وتجاه أبيه أفضل من أمه بألف ألف مرة، تحضنهما وتقبلهما في الاستقبال والوداع عند عتبة الباب، تسعى جاهدة إلى راحة الأب والابن وإعداد كل ما يلزمهما وطهي كل ما يشتهيان على الإفطار والغداء والعشاء، تكريسها بعد الظهيرة من كل يوم لمساعدته على تحضير الدروس وحل الواجبات، إلا أنه لم يشعر يومًا بأي ذرة عاطفة تسري في دمها تجاه أي منهما، وكأنما الرب لم يخلقها من تراب وماء كما خلق بقية الناس، بل نحتها من حجر صوان لن يتفجَّر منه الدمع يومًا حبًّا لأي إنسان.

لحظة فجَّر الضابط العراقي رأس أبيه ما اهتزت شعرة في جسدها، لكن الحق يقال، قامت بمسؤوليتها كاملةً تجاه أخيها.

يومها كان وحيدًا في غرفته، مستلقيًا على الفراش، عاقدًا يديه أسفل رأسه، يحدق مليًّا إلى السقف. كان ينتظر. فقد سمع القصص ورأى ضحاياها بنفسه؛ كونه مجرد ولد لن ينقذه من سوء المصير، مِن جرِّهم إياه وأسره وتعذيبه في مخفر الجابرية، إذ وصلهم الخبر أنهم أودعوا أباه وعنصرًا آخر من المقاومة هناك بعد أن ألقوا القبض عليهما في مستشفى مبارك في كمين يقف وراءه طبيب فلسطيني، الدكتور وليد. كان يعرفه حق المعرفة، كان رفيق أبيه، اتصل به في البيت قائلًا أن ليس بوسعه إيصال دفعة جديدة من الأدوية إلى بيته، فهو مراقب بصورة لصيقة، ولا ثقة له في أي شخص يودعها إياه ويأتمنه على تعريفه بعنوان بيته وهويته، لذا فعليه أن يأتي بنفسه متخفيًا كي يأخذها. ليت أباه سمع تحذير عمته، أخبرته ألا يذهب ويخاطر بحياته، فهي لا تثق بكلام الدكتور وليد، فأجابها متفاجئًا بعصبية لم يعهدها قط في أبيه، كيف لا تثقين به بعد كل ما فعل لأجلنا؟ أنتِ بالذات، *نسيَتِي*؟ *لا ما نسيت* أجابته في صوتٍ بارد، في صوتٍ ناءٍ، ثم قفلت عائدة إلى غرفتها.

ذاك كان آخر ما ستقول لأخيها.

اثنا عشر يومًا ولم يأت أحد. يقينًا عرفوا هويته الحقيقية غير تلك المذكورة في بطاقة الهوية المزورة، حارس مدرسة. مذ ذاك دفعته عمته إلى البقاء في غرفته وأقفلت عليه. أمرته من خلف الباب أن يختبئ في الخزانة متى ما قدم الجنود العراقيون، وإياه ثم إياه أن يغادرها مهما سمع. وحين صرخ مستنكرًا حبسه، أن من المستحيل

أن يقبل بوضع عراقي كلب يده على أمه، طمأنته أنها ستحرص ألا يلمسها أحدهم حية، أن وجوده في أمان رغبة أمه لو كانت في كامل عقلها. لم يقل لها إنه يخشى عليها هي أيضًا، إذ لم يتصور أحدهم يرغب بوضع يده عليها.

ليتهم يأتون بسرعة ويأسرونه، خيرٌ له من حبسه في رعب الانتظار، في انتظار تكة المفتاح، في انتظار صينية الطعام تحملها إليه عمته، حاله من حال أمه، تضعها على مكتبه دون أن تنبس بكلمة وتغادر. ليتهم يكسرون الباب ويصحبونه إلى أبيه كي يشاركه التعذيب كما شاركه المقاومة، كما شاركه كل المرات التي عالج فيها المصابين المتسللين هنا خلسة.

عالجهم هنا في غرفته هذه، نزفوا على سريره هذا الذي ما فتئت ملاءاته تتبدل وهيكله يشطف بالماء والكلوركس، حتى أن أحدهم فقد حياته ههنا، تمامًا حيث يرقد. ففي الغرفة خزانة حائط فسيحة تولى والده انتزاع دفتيها وحجبها بخزانتي كتب كي يخبئ مخزون الأدوية والأدوات الجراحية، كما أنَّ لرجل مصاب أن يختبئ فيها في حال غارت عليهم قوة عسكرية تفتش البيت. يومًا كاملًا قضاه وأبوه في لصق الكتب بحائط الأرفف، أبوه كاد يغمى عليه من رائحة البتكس.

عمته فاطمة أعانت أباه على إجراء عملياته الجراحية البدائية، كتفها بكتفه، قوية الجسد والشكيمة، ولربما نالت من الحظوة والمعزة لدى قلوب رجال المقاومة ما يفوق معزة أخيها. ولكم

فوجئ عبدالله لدى رؤية أدائها في العملية الأولى، وكيف عرف لاحقًا من أبيه لدى سؤاله إياه أن عمته فاطمة كانت طالبة طب مبتعثة في إسكتلندا بل وفي طريقها إلى أن تكون جراحة وتتفوق عليه، لولا أنها عادت قبل إكمالها دراستها. وحين سأله مستغربًا عن سبب عودتها، أزاح عينيه عنه ولم يجبه، وما عاد يقبل بفتح الموضوع ثانية، كذا أخبره ناهرًا إياه لدى تكراره السؤال بعد أيام.

حتى باب الغرفة المقفول كان فكرة عمته، إذ سيبطئ من اندفاعة اقتحام الجنود ريثما يحمل المصاب ويخبئه، وإن سألوها وأباه عن سبب قفله طالما لا يوجد في الغرفة أحد، فستخبرهم أنها غرفة ابنها الذي مات ولا تريد لأحد أن يتعبث فيها، وسيهددونها بكسر الباب رغمًا عنها وهكذا يستجيب أبوه صاغرًا ويفتح الباب وسيجدونها فعلًا خاوية. في عواء مرير ستتوسلهم ألا يلمسوا الأغراض وبذا لن يتعنوا تفتيشها، إما إشفاقًا عليها أو سأمًا منها أو رشوةً منها لدى نزعها قطعة حلي الذهب التي ستبقيها احتياطًا إما في معصمها وإما حول عنقها أو في أذنيها أو في إصبعها، وتدسها في يد الضابط المسؤول عن الغارة. فكرتها نجحت لدى تعرض البيت لغارتين، وكلفها قطعتي حليّ من ذهب أمه. لكن ماذا عن هذه المرة، مع غياب أبيه، مع تعذيبهم له، أيعقل اعترف لهم بوجود الخزانة، بخدعة شقيقته؟

ليتهم يأسروني.. ليتهم يأسروني كان يردد في نفسه لدى سماعه صرير احتكاك عجلات المركبات أمام بيته، صريرٌ أَخْرسَ لسانَ عقله عن ترديد تمنيه الأحمق. مذعورًا وثب عن فراشه،

ساقاه بالكاد تحملانه، أزاح الستار وأطل من النافذة، من أسفله دوائر الموت الحمراء تنتشر حول البيت، ثلةٌ منها تجري تجاه بيوت جيرانه، تقرع الأبواب بأعقاب المسدسات، دوي إطلاق الرصاص في الهواء يعجل في خروج الجميع، لكن لا أحد قرع باب بيته، ليس بعد. لديه ما يكفي من الوقت كي يختبئ في الخزانة. لكنه لا يفعل.

وها القرع وصل باب بيته، قويٌ عنيفٌ كما المدك، الأرض تهتز من تحت قدميه، قلبه يهتز بين أضلعه، يسمع صياح الجنود يعتلون فورًا درجات السلالم، خبط جزمهم تقصد غرفته من دون كل الغرف، عمته على وشك ترديد دورها إلا أن الضابط يخرسها *انــچبي ولـچ قحبة*. واقفًا عند النافذة لا يلتفت خلفه، لا يريد لآخر ما يراه أن يكون المسدس، عيني قاتله، عيني عمته. رصاصة تكسر قفل الباب وجنديان يندفعان نحوه، كلٌّ يقبض عليه من ذراع، ينتزعانه من النافذة ويوجهانه قبالة الباب، جنديان آخران يسرعان نحو خزانتي الكتب إثر إشارة قائدهم *حاضر سيدي* ويطيحان بالخزانتين أرضًا وتنكشف خزانة الحائط، خاوية، عدا ألعاب قديمة من صباه مرمية فيها. كل أثر فيها لدم تولى هو وعمته كشطه وشطفه بالماء والكلوركس. أما القليل مما تبقى من مخزون الأدوية والأدوات ففجر اعتقال أبيه تولى أحد رجال المقاومة أخذها عن البيت إلى مخبأ آخر.

يلمح خيبة الأمل في عيني القائد، ويتحاشى النظر نحو عمته الواقفة مستقيمة الظهر مكتفةً ذراعيها وكأنها تنتظر ثناءً من القائد

وسريته على الجهد الذي بذلته في إخفاء جريمتها، حتى وإن شاب هذا الجهد عصيان ابن أخيها لها، والذي تبين اللحظة أن طاعته إياها كانت ستفاقم الوضع سوءًا. يرمقها القائد بنظرة غريبة، يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها، يضحك في قهقهة متقطعة، إما ساخرًا وإما معجبًا بها. يدنو منها، على مهل، عيناه في عينيها الصامدتين اللتين لا تتحاشيانه ولو لطرفة، يقبض على زندها بقوة ويدنيها منه. يتوجه إلى رجاله بالأمر، *نزلوه تحت*، فإذ بالجنديين يجران جسده المتيبس ويدفعان بساقيه على درجات السلم، يتقدمهم القائد يجرُّ عمته.

الجميع يقف في رواق المدخل خارج الباب الأمامي، خفر الموت الأحمر منتصبٌ على كل الدرجات الرخام نزولًا حتى بوابة الحديد المطاوع، ومن خلف البوابة، على الرصيف المقابل، حشد الجيران، أو بالأحرى البقية الباقية من الجيران، تلك التي لم تفر بجلدها كما الجرذان من على متن السفينة الغارقة.

سيارةٌ سوداء، رباعية الدفع، جديدة، سيارة كويتية كانت ولا شك، تندفع من أول الشارع وتقف قبالة البوابة. يترجل عن المقعدين الأماميين عسكريان ضخما البنية ذوا شكيمة مخيفة، ومن المقعد الخلفي عسكري ضامر الجسد في زيه الكاكي المهلهل، لا يشارك البقية اعتمار علامة الموت الحمراء. الثلاثة يتوجهون خلف السيارة، العسكري المهلهل هو من يرفع الباب الخلفي ويسحب الحمولة تحت رقابة العسكريين الأحمرين، وما كانت الحمولة سوى أبيه، أو ما تبقى من أبيه.

كان شبه عارٍ، في سروال داخلي مصفرٍّ ومبقع وقذر، وجهه دامٍ، آثار الكيِّ على صدره وظهره وفخذيه تشي بلمحة عمّا جرى عليه. يحاول النهوض، ساقاه المشعرتان لا تحملانه، فيشده أحد العسكريين الأحمرين من شعره ويجره خلفه عبر البوابة الحديد نحو بادئ الدرج، يصيح مستهزئًا في صوت جهوري *شوف سيدي، جبنا لك بطل القادسية* وتنفجر ضحكًا سرية خفر الموت الأحمر المصطفة على الجانبين في أداء تمثيلي ركيك متفق عليه. أهؤلاء هم أنفسهم الذين اعتاد وأبوه، مثله مثل الكثير من الكويتيين، السخرية منهم والاستهزاء من غبائهم في برنامجهم اليومي *ها خوتي ها*؟ ربما، فضحكةٌ في قلبه فلتت على مرأى أدائهم. أيا ترى ضحكة فلتت من أبيه هو الآخر؟ فلتت من قلبه الجزع، تخفق صاعدة عبر ضلوعه المحطمة، عبر مجاز حنجرته المتورمة، إلى لسانه الثقيل فحملها ودفع بها عبر أسنانه الأمامية المكسورة؟ مكتبة سُر مَن قرأ

يأمر القائدُ العسكريَّ الأحمر بفك قبضته عن شعر أبيه، ويأمر العسكريين القابضين على ذراعيه بتركه، وبعينٍ خبيثة يحدّق إليه. يتحداه اللحظة أن يهرع أسفل الدرج ويسند أباه بنفسه، يغطي عورته بجسده الضخم، يصد عنه الرصاص الذي سيمزقه أية لحظة. إلا أن ساقيه لا تتزحزحان عن البلاطة المربعة أسفله، عيناه لا تتزحزحان عن أبيه. بل كما الأب وقف ينتظر إبنه يصعد إليه، يعتمد الوقوف بنفسه على قدميه، أن يقطع، وإن في توازن مختل، المسافة الفاصلة بينهما، حتى إذا ما وصل إليه حضنه إلى صدره في عناقٍ أبدي. وها أبوه يفعلها ولا يخيّب أمله، بشق الروح ينهض

ويثبت واقفًا، لا يكاد يخطو خطوته الأولى حتى يختل توازنه ويتلقفه العسكري البائس بحنو، كأنما هو الآخر يشجعه، ومعًا يصعدان الدرجات، مترنحين، منهكين، كلٌّ ينوء بحمله الثقيل الذي ألقاه الله على ظهره. خفيرٌ من خفر الموت يبصق في وجهه، آخرُ يقذع أمه، آخرُ زوجته، آخرُ أخته، وآخرُ ابنته التي لا وجود لها. إلا أن الكلمات والبصاق لا تفت في عضد أبيه، وكم كان فخورًا به لدى بلوغه أخيرًا الدرجة العليا، حيث يرفع رأسه المطرق، ناظرًا إليه، وها هي الضحكة، ها هي تلمع في عينيه الداميتين.

يرفع القائد يده عن زند عمته، براثنه حتى اللحظة كانت مغروسة في لحمها، ويمضي نحو أبيه ويقف خلفه. يسحب المسدس من جرابه ويصوب الفوهة نحو قذال أبيه. يحاول أبوه أن يقول شيئًا في تلك اللحظة الأخيرة، أُمّـ.. بيد أنَّ الرصاصة تخترق فكَّه الأعلى، لا تسعفه حتى على نطق الكاف كاملة. اللحظة تنشطر عن الزمن، صيحات الشهادة والعويل والهوسات تختلط بعضها ببعض، الوجوه عن الرؤوس تذوب على الأرض، روح أبيه تتشبث بنافذة عينه اليمنى رافضةً مغادرة حطام الجسد الفاني إلا إذا اطمأنت إلى وصول الوصية وإن مقطوعة الكاف إلى ابنه. يستجمع عبدالله كل ذرة فيه من حولٍ وقوة، وبعينين واثقتين يطمئن الروح المعلقة إلى استلامه الوصية كاملة، بكافها المقطوعة، متوسلًا إياها الرحيل، فلا داعٍ كي تطيل في عذاب صاحبها، جسده ينتفض دون هوادة على مرأىً من الجميع. راضيةً.. مطمئنة.. تفلت الروح أصابعها، ومحلقةً تندفع كما

فراشة الربيع، من خلفها زجاج عين أبيه يتهشم على البلاط الرخام إثر الرصاصة الثانية.

***

حرةً الآن، تخطو عمته نحو أبيه، رأس نعلها يصل حافة سيل الدم فلا تطأ عليه. تخلع النعل عن قدميها، ترفع عباءتها السوداء عن كتفيها، تطويها على ذراعها اليسرى بتؤدة وتجثو على ركبتيها، تمد يديها نحو إبطي أخيها وتدنيه، تقلبه على ظهره، تسجي رأسه المتشظي على حجرها، رعشةٌ تسري في جسده الهامد ترجف القلوب وتخرس الألسنة، بيد أنها لا ترجف قلب القائد، ولا قلبها. تفرد عباءتها، تدثره بها كاشفةً وجهه، تنسل يدها أسفل العباءة وتتناول يده برفق وتسجيها على صدره، ترفع سبابته اليمنى وتردد الشهادة. لا ترددها عويلًا ولا نحيبًا، بل كأم تسمِّي على ابنها النائم في فراشه خوفًا عليه من شياطين الإنس والجن. وما إن تطمئن إلى خلوده مرتاحًا في نومه الأبدي، حتى تعيد سبابته مكانها وتمسد حطام رأسه. جدول الدم المتدفق عن محجر عينه اليمنى ينسرب من بين أناملها الهزيلة الشاحبة.

يقبض القائد على خاصرته متفكرًا، عيناه تنظران سفلًا نحوها، يمعن النظر فيها وكأنما يحاول حلَّ معادلة رياضية مكتوبة بالطبشور الأبيض على العباءة السوداء، غير أنه سرعان ما يسأم وها سيمحو السؤال بمسدسه الذي يسحبه مرة أخرى من جرابه؛ عينا عبدالله لا تنزاحان عن القائد، لا تفزعان صوب عمته التي ستلحق بأخيها

اللحظة، برصاصة في رأسها هي الأخرى، فهي تستحق الموت، أفليست شريكة أبيه في المقاومة، والأحرى بها أن تكمل الطريق، تشاركه المصير كما شاركته كل خطوة أفضت به إلى ملاقاة حتفه الشنيع على باب بيته؟

غير أن القائد يرفع عينيه فجأةً ويعتله من عنقه حاشرًا فوهة المسدس في فمه. عقله ينشلُّ فلا ينطق بالشهادة، لو بيده أن يغلق عينيه، لو أنَّ جفنيه ينسدلان فيتسنى له التشهد والموت بطلًا لا مرعوبًا. الفوهة تنحشر أكثر، تخدش سقف حلقه، عيناه الجزعتان تتسعان، يتناهى إليه من بقعة نائية صياحٌ مدوٍّ ينبعث من فم القائد الذي يعود ويرمق عمته بتلك النظرة الغريبة التي رمقها بها في الأعلى، فيقول لها، في نبرة متهكمة، *ولدج، ها*؟ ألهذا الحد خدعة عمته الساذجة تثير غيظه؟ أهذا ثمنها؟ دمه ودم أبيه؟ وينتظر القائد جوابًا من عمته، استغاثة، توسلات، الإيثار بالافتداء، لكن لا شيء يصدر عنها، فهو مجرد ابن أخيها لا ابنها. هازئًا ينخر، وبعنف يستل فوهة المسدس ويفك قبضته الحديدية عن عنقه ويطيحه أرضًا. رأسه رابضٌ بين ركبتيه، يحاول التقاط أنفاسه، رغمًا عنه يتقيأ عصارات معدته الفارغة، البول ينسرب منه تاركًا على بنطال الرياضة الأسود أثرًا خفيًّا. من طرفه يلمح دم أبيه ينسرب من جسده سيلًا، في دربٍ مرسوم، وكأنما الدم يعرف طريقه وأين يفترض به أن يصب. غدرانٌ قانية بالغة الصغر تتشعب عن السيل وتنصب في الشقوق بين البلاط حيث ستتجمع بعيدًا عن مصير النسيان على يد الماء والكلوركس. يرفع رأسه قليلًا فيلحظ ورقة صفراء يدسها القائد

في يد العسكري البائس، يهمس في أذنه قبل أن ينبح أوامره في وجهه آمرًا إياه بالوقوف خفيرًا على الجثة، لا يحملها أحد حتى غروب الشمس، ومن يخالف الأمر يقتل في مكانه.

وفي ظرف دقيقة انفض المشهد، الجيران عادوا ودخلوا بيوتهم بعد تهديد القائد بتفجير رأس كل من يغادر بيته حتى ساعة المغيب. خفر الموت الأحمر يخلون مواقعهم على جانبي الدرج الرخامي، يتقدمهم القائد راكبًا المقعد الأمامي لسيارة الدفع السوداء التي أقلت أبيه.

في هذا الخواء الموحش لا يجد عبدالله أحدًا سواه وعمته، والعسكري البائس الواقف مطرق الرأس يتأمل جثمان أبيه بعينين مشفقتين. لردحٍ من الزمن لا ينبس أحدهم بحرف، لا يتزحزح أحدهم من مكانه، وحدها الشمس تتحرك، تجاوزت كبداء السماء ولا يزال الدرب أمامها وأمامهم نحو الشفق طويلة. الدم المسفوك تخثر وبات ثقيلًا، أقرب إلى بقعة نفط سوداء. رائحة اللحم الفاسد بدأت تنبعث من أبيه وتنسل غيلةً في منخري أنفه وخلايا رئتيه وذاكرته. ليت عمته ترفع عينيها، تكف عن تمسيد رأس أخيها وتقول شيئًا، أي شيء، سيقبل بأي كلمة ولن يعتبرها فلسفة فارغة منها. غير أنها تبقي على صمتها، حتى أنها لم تنظر إليه ولو مرة واحدة. الفرج أتاه أخيرًا على لسان العسكري البائس، ففجأة نطق مشفقًا *الله يصبركم*. يقولها له، فهو صاحب الدم، هو الابن الذي يفترض اللحظة أنه أصبح رجلا. يبحث في عينيه اليائستين

المعزيتين، في الأخاديد المحفورة في وجهه الذابل، في بنيته الهزيلة الضامرة التائهة في القميص الكاكي الفضفاض، عن شرٍّ يستحث فيه حمية قذعه بالسباب، النهوض عن الأرض ولكمه ورفسه، إذ لا قوة تصده عنه، ولا حتى المسدس المغمود في جرابه الهرئ، بيد أن الإحساس الوحيد الذي يستحثه فيه هو الشفقة، الخجل، ولا رد يجده مناسبًا سوى مشكور. ابتسامة واهنة ارتسمت على العسكري *وليدي روح دش البيت، لا تقعد هنا، لا تخاف، ماني ماذيكم.* دواخله تنفست الصعداء، بات بيده الفرار إلى الداخل، نزع ملابسه القذرة عنه، كشط رائحة الموت والبول والقيء عن جلده حتى لو تطلب الأمر غمر جسده بأكمله في حوض من الماء والكلوركس والاختباء في سريره، ولو دقيقة، يحشر فيها الوسادة على وجهه ويصيح بأعلى صوته. غير أنه رفض العرض في نبرة ساخطة وكأنما ينفي عن نفسه تهمة الجبن *ما راح أترك أبوي* وإذ بالعسكري يحول عينيه صوب حطام أبيه وكأنما يقول *هذا مو أبوك.*

وعاد الصمت يربض من جديد، ما انزاح عن صدره إلا مع دنو الشمس من مسرى المغيب، وقت رفعت عمته يدها عن جبين أخيها وطفقت عبثًا تمسح الدم عن راحتها المخضبة. ناظرةً إليه لأول مرة مذ تيتم، دست يدها في جيبها الأيسر متناولة سلسلة مفاتيحها، وفي نبرة اعتيادية وجهت له التعليمات *تروح دار الغسيل تجهز سطل الماي والكلوركس حتى تنظف مدخل البيت، نظفه عدل ولا تخلي فيه قطرة دم وحدة. بس بالأول افتح الخزانة، تلاقي لحاف بنفسجي وشرشف أبيض، جيبهم معاك حتى نشيل أخوي.*

وفورًا، يثب عبدالله من مكانه ويخطف المفاتيح عن يدها *حاضر عمتي* ورغم دبيب النمل في ساقيه يطلقهما للريح ويهرع داخلًا، على درجات السلم، نحو غرفته، يدفع بالباب المكسور، يندفع نحو خزانة الحائط ومن الداخل يرفع الخزانتين الثقيلتين عن الأرض ويوصد بهما على نفسه، منهارًا يتكور في الظلمة حيث اختبأ مع الكثيرين، يرهفون السمع لأي خطوة تأتي باحثة عنهم لانتشالهم من عتمتها الآمنة، أعينهم الجاحظة تتوجس نسالة ضوء تتسلل إليهم من خرم فتفضح حقيقتهم، وبقبضة يده يكتم أفواههم حابسًا أنين ألمهم. وفي اضطراب روحه يتناهى له من بعيد صوت أحدهم يتجاوز عتبة البيت، يصعد بأناة درجات السلم، يجول في الرواق، ينحّي الباب المكسور، ينسل من خرم الخزانة، يجثو على ركبتيه قبالته، يربت على كتفه برفق، يرفع رأسه بحنو إليه، فيراه مبتسمًا في ردائه الأبيض الطبي وكأنما شيئًا لم يكن، كأنما التو عائدٌ من المستشفى، وفي قلب هالة الضوء يتسنى لأبيه نطقها كاملة.

أمك. دير بالك على أمك.

فيخطر له أن يسأله، مفجوع القلب خائب الأمل *ليش تركتني معاها؟ ليش ما خذيتني معاك؟*

ويخطر له الآن أن يعيد سؤاله عليه، معًا يرقبان أنفاسها تغرق وتغرق في أعماق خيالها السحيق، كما غرقت ذاك النهار على يد عمته وبدت للجنود جثةً باردة هامدة ما كان يفترض بها أن تقوم، ما كان يفترض بحوت الموت أن يلفظها عن جوفه ويقذف بها من جديد

على بر حياته. يلحظ علامات الازرقاق على عنقها تنسرب من تحت جلدها، تتشكل على هيئة أصابع يده الخرقاء التي كادت تحطمها. يتأمل ثنايا جسدها الرشيق حدَّ الهزال أسفل الدثار، ووجهها الطفولي الحنطاوي بتقاسيمه الناعمة، شفتيها الرقيقتين المنفرجتين، خصل غرتها السوداء الطويلة تنسدل ناعمة على جبينها ووجهها، يراها، يراها ولا يجد صورته فيها. هو يجد صورته في أبيه، في عمته، لكن ما وجد صورته فيها قط، ليس مثل أخيه الأصغر، من كان بضعةً منها، بكل ما فيه.

متأنيًا ينهض عن كرسيه، يجلس على حافة السرير، يزيح الخصل عن وجه أمه ويدسها خلف أذنها، يصغي إلى أنفاسها الدافئة تهب رقيقةً على راحة يده. وإذ بالباب يفتح. يلتفت ويجد عمته واقفة على العتبة، يدها اليمنى على مقبض الباب، واليسرى تتدلى منها سلسلة المفاتيح. *وقت الزيارة انتهى* كذا يتخيلها تقول كل مرة تقف فيها على عتبة أي باب، عانسٌ قميئة متحجرة الوجه والقلب مثلها مثل السجانات وممرضات مستشفى المجانين في الأفلام والمسلسلات. يعود ويلتفت إلى أمه، يميل برأسه نحوها ويقبل جبينها. أبوه الجالس على الحافة المقابلة من السرير سيتولى رعايتها بقية الليل؛ أتراه يأمل أن تنهض حبيبته يومًا من منامها المديد، فتغزل له من حروف الأبجدية نشيدًا تتغنى فيه ببطل القادسية، بحبيبها الشهيد؟

ينهض هامسًا لكليهما *تصبحون على خير* ويعيد الكرسي إلى طاولة الزينة. لدى مغادرته تصطدم كتفه بعمته ولا يأبه للاعتذار

منها، ولا تأبه هي لطلب الاعتذار. فكلاهما منهكان. ما إن تقفل على أبويه الباب، كلٌّ سيأوي إلى غرفته صامتًا، حيث صينية طعامه تنتظره. يغلق بابه على نفسه. ووحيدًا، يتناول غداءه البارد بين الجدران الصمّاء.

الخميس

(١)

عبير الصباح الباكر

يجذبه رويدًا رويدًا خارج متاهة المنام

أنامل الشمس الطويلة جدًّا جدًّا

الناعمة جدًّا جدًّا

الرفيعة جدًّا جدًّا

تمسك بيده، تتهادى جانبه على الطريق الممهدة بالحصباء، المسيجة بشجيرات التوت البري من على اليمين وفطر المشروم الأحمر المرقط بالأبيض على اليسار، تزقزق مع العصافير على مدِّ الدرب خارج الغابة المسحورة.

لكن ما كانا وحدهما يقطعان الدرب، فالساحرة الشريرة خلفهما تتقفى خطاهما. تهرول متعجلة في فستانها الأزرق بلون السماء، قبعتها البرتقالية مثبتة على شعرها بدبوسٍ أسود بلون سحب الدخان لعلها تغيظ غريمتها الشمس وتدفعها للبكاء. غير أنَّ الشمس لا تكترث

لكيدها إذ استفاقت الصباح بمزاجٍ رائق؛ فما غاب عن ذهن الساحرة أن اليوم الخميس لا الأربعاء.

وما إن يصل الثلاثة مفترق الطرق حيث يتشعب الدرب إلى سبيلين متعاكسين، حتى تتمنى الساحرة الشريرة يومًا جميلًا لأيمن والشمس، تفتح حقيبتها الجلدية، تخرج منها لوحي شوكولا منقوشًا عليهما بالكراميل دعوة مكتوبة بخط يدها لمشاركتها العشاء، فطفلةٌ سمينة موعودةٌ بالقدوم إليها هذا المساء. على مرأى حماستها وعينيها الراجيتيْن لا يجرؤ أيمن على ردِّ دعوتها وكسر خاطرها، فيستلم الدعوة ويودعها جيبه. وكذلك الشمس، بروح طيبة تستلم دعوتها من يد الساحرة الشريرة الممدودة لها رغم خلافهما الأبديِّ حول مبدأ التهام الأطفال في المنام. لكن، ولأنَّ الشمس لا جيوب لها، تحتار أين تودعها، فتحرق دعوتها ويستحيل رمادها بمجرد أن يلامس الأرض شتلات ياسمين أزهارها لن تذبل لألف عام. الساحرة الشريرة تقفز وتصفق، فرحةً مثل طفلٍ نال لتوه وعدًا مشفقًا من زميليه الوحيدين في المدرسة للعب الكرة معه أسفل العمارة. جذلةً تطوق وجه أيمن براحتيْها وتطبع قبلةً على كل خدٍّ من خديه، أما الشمس فتنفخ نحوها قبلةً في الهواء وتدير ظهرها لهما وتتعجل المسير في الدرب المعاكس نحو دوامها المكتبي الممل الذي ينتظرها كل صباح، أوراقها البيضاء المدونة عليها حكايات الأطفال الذين تلتهمهم كل مساء تطير من جوف حقيبتها المنسوجة من قماش، أجنحتها تخفق وترف. أما أيمن والشمس فمسيرهما معًا يأخذ وقتًا أطول من المعتاد، فالشمس ما تفتأ تقف عند كل منعطف

كي تلهو معه، تداعب خصل شعره، توكز برقة أنفه وشفتيه، تنفخ نسيمها في أذنه اليمنى تارة، وتارة في أذنه اليسرى.

وما إن يصلا نهاية دربهما في فراشه، على وسادته، حتى يفتح أيمن عينيه ناسيًا رفقته مع الشمس.

ناسيًا دعوة الساحرة الشريرة لهما على مائدة العشاء.

بيد أنه لم ينسَ إحساسه بدفء قميص غسان مطويًّا بين ذراعيه. وكما الحلم ينسلُّ من عيون الأطفال والكبار، كذا انسل الدفء من بين ذراعيه. فيمد راحة يده كي يتحسس وجود القميص على وسادته لكن لا يجده. مفزوعًا يرفع أيمن رأسه من على الوسادة وكاد يدخل في نوبة بكاء لولا أنه رأى القميص مفرودًا على ظهر الكرسي حيث اعتادت أمه الجلوس متى ما روت له حكاية قبل المنام. على مقعدة الكرسي نفسه وجد منشفة وغيارات وملابس نظيفة مطوية في انتظاره يفيق. ما كانت الملابس بزيه المدرسي، بل شورت أبيض وبلوزة زرقاء، تلك المرسوم عليها بابا سنفور ينظر إليه من تحت قبعته الحمراء بعينين فرحتين وفي يده قارورة دواء.

اليوم خميس

اليوم خميس

يا الله اليوم خميييييس!

يقفز أيمن على فراشه، لا يتمالك حبس صيحة تهليله فرحًا بقدوم الخميس مع يوم الزعل. ما يعني أن السنافر سيقضون النهار

بأكمله معه، فأمه ستبقى حبيسة غرفتها نائمة طوال النهار، وأبوه لن تطأ قدماه البيت حتى تالي صباح. لكن قبل أن يبدأ نهاره لا بد له أن يمضي للحمام. ينهض من على فراشه ويحمل معه كل ما تركه له السنافر على الكرسي خلا قميص غسان. وما إن يدنو من الباب حتى يشعر برطوبة السجاد على باطن قدميه. متوجسًا يركع على ركبتيه، يحني رأسه إلى أن يلامس أنفه شعيرات السجاد، يغلق عينيه ويتنشق، رائحة الصابون الزكية بعطر البرتقال.

شكرًا شكرًا شكرًا عن جد شكرًا كتير

يرددها أيمن متلفتًا نحو كل ركنٍ في غرفته، فالسنافر يرقبونه من زوايا الغرفة. بابا سنفور فحسب من يظهر أمامه لأنه الأعقل والأكثر حكمة، أما الآخرون فعليهم أن يظلوا مختبئين كي لا تقع عليهم عين أي إنسان فتتعرض قريتهم للغزو والدمار. ممتنًّا ينهض من الأرض وعلى مهل يفتح الباب، يدلف نحو الحمام سائرًا على أطراف أصابعه، راضيًا بالاستحمام بماءٍ بارد حتى يبدأ صباحه بسرعة مع أصدقائه السنافر، لكن ها الضوء الأحمر مشعٌّ على حائط الحمام، فترتسم ابتسامة على قلبه، بابا سنفور لم ينسَ إشعال السخان.

تعلَّم أيمن كيفية الاستحمام وحده منذ ستة شهور، دون أن يعلم والداه باكتسابه تلك المهارة. فهو اكتسبها بالتجربة، بداعي الاحتياج. ففي كل الأيام أمه من يتولى المهمة، خلا أيام الزعل. وأول يوم زعل يذكره أيمن اضطر فيه إلى البقاء يومًا كاملًا دون

استحمام من آثار بوله، دون أي طعام أو شراب. قضى نهاره ذاك متكئًا على باب غرفة والديه، مترددًا إن كان من الحكمة بمكان أن يطرق الباب على أمه النائمة في سلام. حين عاد أبوه تالي صباح هز كتفيه بعنف، ولن ينسى أيمن حتى الممات قرف أبيه من رائحته، انتشاله له من ساعده وجره نحو الحمام. بعدها بدقيقة جرَّ أمه هي الأخرى نحو الحمام صارخًا في وجهها، وجهها الملون بدوائر زرقاء وخطوط متقطعة حمراء. وحين روى للسنافر في نوبة بكاء ما حدث، مستجديًا منهم العون والمساعدة، أقسم لهم بابا سنفور أن أمه بينما تحممه كانت لا تزال نائمة، غارقة في سباتها رغم أن عينيها العسليتين مفتوحتان.

يعلق أيمن منشفته وملابسه النظيفة، يخلع عنه بيجامته وملابسه الداخلية ثم يحملها كلها عن الأرض، يكوِّرها ويرمى بها في السلة. لم يكن مضطرًّا إلى اعتلاء الكرسي الصغير كي يتناول الصابون عن الرف ويتناول الإسفنجة المعلقة أعلى الدش، فالسنافر جهزوا كل ما يحتاج على دكَّة الحوض، حتى المرهم الذي تدهن به أمه آثار السلخ على باطن فخذيه ما إن تُنشّف جسده، لا بد أن بابا سنفور نفسه وضعه له.

يخلع نعليه، وكي لا يختل توازنه فيقع يتشبث بحافة حوض المغسلة، بكلتا يديه. يرفع ساقه اليسرى نحو الحوض ثم يلحقها باليمنى. وما إن يتيقن من توازنه حتى يرفع يديه ببطء عن الحافة. يدير مقبض الماء البارد أولًا ثم الحار، وراح يلف قبضتي الصنبور يمينًا ويسار إلى أن استحال الماء دافئًا. حيلة تعلمها من مراقبته

المستمرة لأمه، إذ رغم نحيبها بين الفينة والأخرى بألا حيلةَ لها، مما يراه، فأمه تملك في جعبتها الكثير من الحيل.

يأخذ خطوة إلى الأمام، يرفع المقبض الأوسط إلى الأعلى، وها الماء ينصب مندفقًا على جسده العاري، غامرًا إياه في عناقٍ حميم.

وها بابا سنفور يتلصص عليه من خلف سلة الملابس

يشير نحو صديقه الإنسان

مطمئنًا أبناءه الزُّرْق السنافر

ألا بأس أبنائي الصغار

أجل.. قلب صديقنا أيمن انكسر ألف مرة ومرة

لكن إن خلطنا ثلاث قطرات من دمع أبيه

مع ثلاث قطرات من دم صاحبه الوحيد

مع قارورة كاملة من الزعرور السنفوريّ

من يدري

علّنا

هذه المرة

نجبر للأبد قلبه الكسير.

(٢)

حلمًا كان أم حقيقة؟

يفتح غسان عينيه ولا يعي أين هو. لا يعي إن كان ميتًا أم حيًّا، إن كان يدَّعي اليوم لسانًا فلسطينيًّا أم ما زال يدَّعي لسانًا كويتيًّا، إن وقع الغزو أو لم يقع لأن الأزمة ما كانت إلا سحابة صيف عابرة لا أكثر. هل اصطدم رأسه بباب الباص وانتشله عملاقٌ من الأرض، أم غلبه النعاس بمجرد أن جلس على المقعد الأمامي جانب صبيٍّ ضئيل غريب الأطوار؟ هل تفجر الدم من رأس أبيه أمام عينيه أم تراه ما يزال منتفخًا بحكاياته التي لا تتغير نهاياتها مهما تبدلت أحداثها، ولا بد أنه يرويها الآن على زوجته مع كاسة شاي؟ لم يدرِ.. لم يدرِ إن كان غفر لأمه خطيئتها أم لا، هل لا يزال يمقتها ويستجدي حبها في ذات الآن؟

متثاقلًا يرفع رأسه عن وسادته، على صوت طرق الباب، ويتكئ إلى ظهر السرير. ما إن تفتحه حتى يرفع عينيه نحوها، ولسببٍ ما تبدو جذلة، واقفة في فستانها الأبيض بحاشيته السفلى الموشاة

بصفين من الورود الحمراء، كاشفًا ذراعيها الحنطاوين وساقيها الرشيقتين، عيناها السوداوان كحيلتان، الابتسامة المرسومة على ثغرها حمراء. على جيدها تتدلى قلادتها الذهبية بحلية القلب التي أهداها إياها في عيد ميلادها قبل الغزو، شعرها الأسود المتموج منسدل بنعومة على كتفيها، حاملةً معها صينية فطور، دافعةً الباب بحذائها الأحمر ذي الكعب العالي معلنةً بكل حبور:

«شلونه بطلي غسان؟».

مدهوشًا لما يراه ويسمعه، تفلت الضحكة من قلبه. أتراها فقدت عقلها أخيرًا؟ ليتها، ليتها تفقد عقلها، وسيتخلص هو من عقله، ما تبقى منه، فيعيشان مجنونين سعيدين معًا.

«يا الله..شكثر ولهت على هالضحكة!».

تتهادى نحوه في خطىً رشيقة، تجلس على حافة السرير وتضع الصينية بمهل على حجره: بيضة مسلوقة، شرائح طماطم وخيار، رغيف خبز شبه محروق. وإلى جانب الطبقين أكثر ما تتقن أمه إعداده، كاسة شاي بملعقة ونص سكر.

تلثم وجنته بقبلة رقيقة، وبعد تقمصها غنج سعاد حسني ها هي تتلبس الآن جدية فاتن حمامة، تتفحص جرح رأسه بإبهامها، تمعن فيه وتعد الغرز. عيناه تتفاديان الالتقاء بعينيها، تتأملان عوضًا حلية القلب بنصفيه الذهب والفضة تتأرجح معلقةً بينهما، رائحة عطرها الذي أهداها إياه آخر عيد أم قبل الغزو تغمره، تخمد محاولاته صدها وكسر خاطرها.

هشًّا

منتشيًا

مذهولا

يجد نفسه وقد أذعن كليًّا لها، عاجزًا عن إثارة غضبها كما نوى، أو حتى تعكير اللحظة عليه وعليها. ما إن تفرغ من تفحصها إياه حتى ترفع يديها عن رأسه وتمنحه الصك الذي يرتجيه كل ابن من أمه حتى وإن بلغ السبعين عام: أنَّ كل الأمور على يرام، وقت لا شيء فيه على ما يرام.

«ما فيك إلا العافية».

وها هي تتفحص الفوضى العارمة في غرفته، وهو أيضًا راح يتفحصها معها، مستبقًا أمه بخطوة كأنما يدلها على مواضع الخلل فيها. ومعًا تنبها لبنطال المدرسة والسروال المرميَّين على عتبة باب الحمام، قبل أن تسأله:

«والقميص وينه؟».

مرتبكًا على إدراكه عريه الكامل أسفل لحافه:

«ما بعرف يمكن.. يمكن رميته في الحمام».

في ارتباكه تكاد الصينية تقع، لولا أن أمه تمسك بها، وحينها تنتبه لطرف القميص ينسل من أسفل وسادته، فتميل وتسحبه وتضعه على حجرها، الرائحة العالقة في القميص وقد امتزجت بعطر أمه تتخلل أنفاسه، تجمد أوصاله، إذن ما ظنه حلمًا ما كان

سوى الحقيقة. لا بد أن يسايرها.. يستميل رضاها.. حتى تطلق سراحه من معقلها قبل أن يفور غضبه اليائس في وجهها.

«ماما».

«نعم حبيبي».

«تسمحي لي أتمشى شوي بره.. ضايق خلقي وحاسس جسمي متكسر».

«ما أدري.. أخاف تتعب ويصير فيك شي». مداعبةً إياه تردف قائلة، «إلا إذا كان وجودي هو اللي متعبك».

«لا ماما، أكيد مو قصدي هيك، بس لا تخافي ما راح ابعّد، راح أمشي حوالين البيت.. في نفس الشارع».

ترمقه بتلك النظرة التي يعرفها كل ابن متى ما دخل في مفاوضة مع أمه، نظرة الصمت التي يتأمل فيها لاعب الشطرنج عواقب حركته المقبلة. كل خطوة تحرك بها الأم حجرًا من جيش مملكتها البيضاء هي في سبيل حماية ابنها الملك من حماقته، وحماية نفسها من تحركات حجارة القدر السوداء.

«شوف.. أنا راح أنزل تحت.. إنت إكل براحتك.. غسِّل وبدِّل ملابسك وتعال عندي.. إذا شفتك صرت زين.. تركتك تتمشى نص ساعة وترجع. هيك منيح سيد غسان!».

«آه ماما.. منيح».

تنهض أمه عن فراشه حاملة القميص، تدلف نحو النافذة

وتزيح الستائر المسدلة عن الشمس، وفي طريقها خارجًا تكور القميص بين يديها وتدسه بقوة في سلة المهملات الفائضة وتحمل بيسراها السلة. ترفع البنطال والسروال عن الأرض وترمي بهما في سلة الغسيل داخل الحمام. ما إن تمسك بمقبض الباب، حتى ينعكس شعاعٌ على سطح المرآة وكما السهم يصيب عينها. تفتح الباب وفي التفاتة سريعة خلف كتفها، كفها تصد الشمس، تبتسم لابنها قائلة:

«ناطرتك».

وفي زفيرٍ عميق يتنفس غسان الصعداء

أخيرًا... أخيرًا...

كلاهما خرج.

بيد أنَّ مزيج الرائحة والعطر ما غادر معها

بل ظل عالقًا في الهواء

مخفيًّا لا يراه هو ولا أحدَ يراه

وحده من يشعر به

ومن ذا الذي سيصدقه إن أشار نحوه مدعيًا عليه

حتى هو لن يصدق نفسه

فلم العناء إذن في إثبات ما وقع يومًا وكان

ما المنفعة التي ستعود عليه بها ضارة الاعتراف؟

يتناول غسان البيضة ويقشرها، وتحت المقصلة ذات الرؤوس السبع يسجي جسدها الأبيض الخاثر حيث يختبئ في جوفها قلب الكتكوت الميت، تسع شرائح متفاوتة في حجم عذابها بيد أنها متساوية في ذنبها. يرتبها في صفين داخل الرغيف شبه المحروق ويودع فوقها شرائح الطماطم والخيار ويتناولها. بين اللقمة واللقمة ينساب في ريقه الشاي بملعقة ونص سكر، مثلما كان يشتهيها أبوه، يردد لحبيبته غادة قبل استهلاله كل حكاية فلسطينية معادة:

ملعقة لحلاوة الروح

ونص لحتى أبدًا ما ننسى

(٣)

عبدالله ما نام.

ما راود النعاس عينيه، ولا حتى للحظة واحدة.

تعوَّد على الأرق رفيقًا ملازمًا له، كأنها الحبوب التي تبتلعها أمه لها مفعولٌ عكسيٌّ عليه فتحرمه المنام.

من غرفة عمته، عبر دهاليز التكييف المركزي، يصله صدى خطواتها، إغلاقها وفتحها المتكرر لخزائنها الثلاث، الخزانة السوداء في الوسط والخزانتان البيضاوان على اليمين واليسار. استهلت الليلة برميها كل ما في خزائنها على سريرها: ألبومات الصور العائلية وشرائط فيديو الغزو وما قبل الغزو، فستان زفاف أمه، اللحاف الذي حملا به جثمان أبيه، شهاداته العلمية المؤطرة، قصاصات مقابلاته الصحفية المؤطرة، رسائل الشكر والتقدير المؤطرة، ملابس أخيه الميت وألعابه وأشرطة مسرحيات هدى حسين التي اعتادت أمه مشاهدتها معه.. كلها.. كلها احتفظت عمته بها عندها. ثلاثة أعوام ولم يرَ أثرًا واحدًا لأخيه في كل أنحاء البيت، لا صورة،

لا لعبة، لا قطعة ملابس، حتى اسمه اختفى من قاموس ألسنة أهل البيت. أمه وحسب من تصرخ باسمه في نوبات جنونها، كأنما تستدعيه من قبره كي يشهد معها أنه يومًا كان موجودًا لا من صنيع خيالها. لكنه أبدًا لم يعد، أبدًا لم يفكر بالتسلل خارج خزانات عمته متى ما سمع صوت أمه ملتاعةً تناديه. كانت لعبته المفضلة وقت كان حيًّا، يختفي عن أعين الجميع ويتسلل نحو خزانة الحائط ويختبئ فيها، ومهما علا صوت أمه باحثة عنه ما كان ليخرج. فقط حين يعم الصمت.. حين تيأس من محاولاتها.. يتسلل خارج الخزانة وخارج هذه الغرفة وينزل درجات السلم مندفعًا يرمي بنفسه بين ذراعيها، تاركًا أخاه الأكبر أمينًا مدى الدهر على مكانه السري.

تلك كانت لعبتهما المفضلة، ويبدو أنها ما تزال لعبتهما المفضلة.

وها الأب يلحق بابنه. منذ عودته إلى المدرسة بدأ يلاحظ اختفاء آثار أبيه، يومًا بعد يوم. كل غرض عنى لأبيه شيئًا، يأتي من المدرسة ويتنبه لغيابه. لكن ما ساوره القلق يومًا على اختفاء متعلقات الأموات الشخصية من بيته، من تبخُّر متعلقاتهم عن الرفوف، عن الأدراج، عن الطاولات والمناضد، عن جدران الأروقة، عن الخزائن: فهو يعلم أنها جميعًا محفوظة بأمان في عهدة خزائن عمته، على بعد خطوات من غرفته.

يلمح ساعة الحائط، تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. عمته فرغت من تنظيف خزائنها، من ترتيب الملاءات والذكريات والمتعلقات، ثلاثة أبواب ستغلق الواحد تلو الآخر، ثم سيسمع

تكة إطفاء إنارة السقف والأبجورات. غير أنه فوجئ بسماع صوت باب رابع يُفتح. يجفل وينهض من فراشه ويقف عند الباب، أتراها تنوي شرًّا بأمه من وراء ظهره؟ يرهف السمع، ها هي في الرواق، وعوضًا عن النزول كما توقع، فخطاها، مترددة، معدودة، تدنو منه وتقف قبالة بابه. يشعر بها خلف الباب، قلبه يخفق ويرف على أنفاسها الهامسة، إحساسٌ غريبٌ يجتاحه، رغبةٌ تفور من بئرٍ عميقة مهجورة، بفتح الباب وضمها نحو صدره مواسيًا إياها على كل العناء الذي تكبدته مع أمه ولاحقًا مع خزائنها، حتى أنه سيسعد بتبادل الحديث معها في أي أمر تافه ولو لبضع دقائق. خائفًا متشوقًا ينتظرها، يضع يده على مقبض الباب استعدادًا، إلا أن يده الثقيلة تحرك المقبض، وإذ بأنفاسها تنقطع، تبتعد عن بابه وتندفع نحو غرفتها، تقفل على نفسها الباب مرة أخرى، آخر صوتٍ سمعه يصدر عن غرفتها.

ما إن يصدح أذان الفجر الأول ينهض عن فراشه، يفتح باب غرفته ويمضي نحو الحمام حتى يغتسل ويتوضأ. يعود إلى غرفته ويبدل ملابسه، وقبل مغادرته البيت يتوجه نحو غرفة أمه ويلصق أذنه بالباب، لا صوت يصدر عنها. يطمئن قلبه إلى هدوئها ويغادر البيت ماضيًا نحو المسجد. مع عودته لا يدخل البيت بل يجلس على الدرجة العليا من الدرج الرخامي كما يفعل كل صباح، يتأمل الشمس تشرق بلونها البرتقالي المائل إلى الكهرماني.

قبل استشهاد أبيه ما كانت الشمس تعنيه بشيء، سواءٌ لديه أشرقت أم غابت. لكن يوم جثم رابضًا يرقب جثة أبيه، سلوانه

الوحيد كان رفع نظره نحوها بين الفينة والأخرى في انتظار مغيبها. كانت الوحيدة التي شعر بدفئها يمس صقيع جسده، كما لو أنها أمه، تحاوط صدره يومها بذراعيها كي لا ينهار. شمس الكويت التي تهرع في ثوانٍ معدودات مستعجلةً المبيت في زرقة البحر، يوم استشهاد أبيه أرجأت مغيبها قدر المستطاع حتى خروجه من ظلمة الغرفة المغلقة وإحضاره طلبات عمته. وحتى بعد مغادرة الجندي العراقي مودعًا إياه، يسير بعيدًا نحو الشفق الأحمر منحني الظهر مطرق الرأس، هي ظلت، ظلت وما غادرته إلا حين حمل جثمان أبيه مع عمته ودخلا به البيت. مذ ذاك وهما صديقان عزيزان، وما همَّه إن التهم الدخان زرقة سمائها، إن التهم بعد سبعٍ وعشرين عامًا خلايا رئتيه ودماغه، ما همَّه إن أشرقت الشمس وما رأى منها خيطًا واحدًا ينسل عبر السحب السوداء، حتى في أحلك الصباحات التي لاذ بها الناس في بيوتهم اتقاء الاختناق بالرماد هو ما هجرها، بل يَسعد قلبه برد معروفها له بالحنين والوفاء.

يمدد ساقيه الطويلتين على الدرج، يميل بظهره إلى الوراء، يتكئ بمرفقيه على البلاط، لوحا البلاط باردان لكن الشمس ستدفئهما له بعد لحظات. يلتفت نحو يساره، سورٌ من الطابوق، ومن خلف السور أربعة بيوت، الرابع هو البيت الذي وقف أمامه الباص خطأً ظهر البارحة.

وما حال غسان؟ ألا يزال نائمًا في فراشه مستغرقًا في أحلامه؟ لا بد أن أمه نفسها من استقبلته عند الباب، غمرته بالقبلات

والأحضان ودموع الخوف التي ما فتئت تنهمر مذ وصلها خبر حادثة الباص. هي حتمًا من رافقته إلى غرفته واطمأنت عليه بعد أن وسدته فراشه، وهي من توجهت إلى المطبخ وأعدت له غداءً شهيًّا لم يتناوله لأنه، بطبيعة الحال، يعاني من الغثيان إثر إصابته والمسكن الذي حقنوه به والغرز التي خاطوها فيه. ومن بعد الغداء الذي لم يتناوله أعدت عشاءً خفيفًا لم يتناوله أيضًا لأنه غارقٌ في منامه الآمن السعيد، وبعد ساعتين من الآن ستعد له فطورًا مغذيًا مشبعًا سيتناوله وينسيه كل ما جرى وكان.

هو لن يراه لخمسة أيام على الأقل، الخميس والجمعة عطلة ومن السبت إلى الاثنين يملك عذرًا طبيًّا، عبدالله بنفسه وقف أمام الطبيب حين كتبه واحتفظ به له في جيبه إلى أن دخل معه بوابة المدرسة. من أمام البوابة استلم منه مدرس البدنية العذر الطبي بيد، وغسان بيد، قبل أن يطلب منه بكل احترام التوجه إلى صفه دون أن يزجره على ارتدائه بلوزة الرياضة الخضراء.

ويجتاحه حنينٌ إلى أمه، وحنينٌ أشد لأبيه، كلاهما روحان هائمتان داخل البيت الذي يجلس على مدخله. أمه جسدٌ هائم بلا عقل، أبوه عقلٌ هائم بلا جسد، شذرات عينه اليمنى وحسب تسكن البلاط، رائحة دمه تسكن كفي ابنه. حتى الآن، من بعد ما تلطخت كفاه بدم غسان، له أن يميز بالرائحة الفرق بين دم الرجل ودم الصبي. دم أبيه ثقيل الرائحة، كرائحة المطهر الطبي العالقة على معطفه القطني الأبيض، أما دم غسان فرائحته خفيفة كما البرتقال. يرفع كفه اليسرى

ويستنشق الأثر الدفين في خطوط راحته، وتتراءى له قنينة مطهر طبي معطر بشذى البرتقال.

يسمع من خلفه الباب يفتح وها هي تقف جانبه، يراها بلحظ عينه ترمق الشمس كأنما تستعجلها الشروق، لكن لأن الشمس لا تخضع لسلطانها، كما يخضع لسلطانها كل ما بين جدران البيت، ترتئي عمته الجلوس إلى جانبه في انتظارها، مما يضطره أن يعدل من وضعية جلوسه. فيرفع ظهره ويضم يديه بين ركبتيه، ويتجاهل الالتفات نحوها. في وضعية جلوسه هذه كل ما يتسنى له رؤيته منها قدميها الحافيتين وسروال بيجامتها الطويل الكحلي. لدقائق لا ينبس أحدهما بكلمة، ثم تستهل عمته حديثها المرجأ من الأمس:

«تدري إنه اللي خان أبوك واحد فلسطيني».

يلتفت نحوها وتسترعي انتباهه الصورة المرسومة على صدر بيجامتها الأبيض، ساندي بل بشعرها الأشقر المعقوص على الجانبين بحبتي كرز حمراوين، فستانها الأحمر بمئزره الأبيض المكشكش بالأزرق وجوربيها الأصفرين وجزمتها البنية، على وجهها ترتسم ابتسامة عريضة بريئة وعينان واسعتان جذابتان تبعث البهجة في قلب رائيها. لدى عرض المسلسل قبل الغزو على شاشة العراق، وبعد تعلقه بمتابعته، منعته عمته بتاتًا من حضوره *مسلسل بنات وكله قلة أدب*. أتراها كانت تشاهده سرًّا من خلف ظهره على شاشة التلفاز في غرفتها؟ هل لأنها بنت، ولأنها كبيرة على قلة الأدب، يتسنى لها متابعة ساندي بل مطمئنة على أخلاقها

من أي دنس؟ هل ترى في ساندي بل شيئًا يذكرها بالفتاة التي كانت؟ التي يجهل عنها وعن ماضيها كل شيء؟ وما عساه يكون هذا الشيء المشرق في وجه ساندي يشبه وجه عمته الشاحب من الدم، الشاحب من الإحساس، حاجبيها الغليظين غير المهذبين، الأخاديد الدقيقة المحفورة مثل مخالب الطير المفترس جانب كل لحظ من عينيها الصغيرتين، الهالتين السوداوين أسفل عينيها، وجنتيها الغائرتين، الشيب الذي يلمحه الآن في ضوء انبلاج الشمس، (لا بد أنَّ الشعرات البيض غزت شعر عمته القصير الأسود ليلة الأمس أثناء ترتيبها خزائنها الثلاث، فهو لم يلمح أيًّا منها من قبل) أم تراه أنفها الدقيق المعقوف، أنفٌ يحتمل صفتي الجمال والبشاعة في ذات الآن، يعتمد على الزاوية التي ينظر إليه منها بينما يجيبها في نبرة فاترة:

«أدري».

تتنهد وتبتسم له ابتسامتها الصفراء العارفة بعواقب الأمور، هي ابتسامتها التي ودعت بها أخاها قبل مغادرته تلك الليلة المشؤومة. تربت بيدها على كتفه وتتكئ عليها كي تنهض من الدرج. وقبل أن تدخل البيت، قبل أن تتجاوز عتبة الباب، تلتفت وتقول له في نبرة محذرة:

«بس حبيت أذكرك».

ما إن يسمع إغلاقها الباب خلفه، دون انتظارها أي ردٍّ منه، حتى يعود إلى وضعية جلوسه.

يتجاهل رفقة الشمس ويتأمل السور على يساره.

ما أعلى الجدار الفاصل بينه وبين جاره الفلسطيني

جارٍ يعيش في بيتٍ يتمنى لو كان هو من يعيش فيه

مع أمٍّ كويتية يتمنى لو كانت هي أمه

مع طيف أبٍ فلسطيني سينزل عليه العقاب بنفسه

بإطلاق رصاصة في صدره

سافكًا دمه على هذا البلاط الرخامي

سواءٌ لديه

ثبتت أم لم تثبت خيانته.

(٤)

ما إن تخرج من غرفة ابنها حتى تجد ابنتها دانه في انتظارها آخر الرواق المفضي إلى صالة الجلوس. أحيانًا كثيرة تنسى وجودها في المنزل ووجودها في حياتها. حتى حين قضتا سنة الغزو في لندن بصحبة أخيها وعائلته، بدا لها وكأن دانه تنتمي إلى عائلة أخيها وبيته لا عائلتها وبيتها. كل ملامحها كويتية: بشرتها الحنطاوية حدَّ السمرة، عيناها السوداوان - لا كعينيها الواسعتين بل كعيني خالها، عيني النسر، ما إن تخزرهما حتى تخترق سهامها عظام من تراه، نحافتها المفرطة مهما التهمت من طعام، وهي تلتهم دون شعور معظم الأحيان. اسمها الأول وملامحها جعل من السهل عليها ادعاء هويتها الكويتية كاملةً دونما نقصان. ما كان لأحد أن يتوجه إليها بالسؤال: *إنت كويتية والا مخلطة؟ إنتي فيج عرق مو كويتي، صح!؟* لا. تلك الأسئلة توجه إلى غسان، فلسطيني الاسم والملامح، كويتي اللسان والمال. هو من عليه أن يعيد حكاية أمه الكويتية التي قررت الزواج بفلسطيني لدى كل تعارف ولقاء.

لكن دانه، ما كان لأحد أن يتخيل أن دمًا فلسطينيًّا يسري خفيةً في عروقها، وما كانت هي لتعترف بتلك الحقيقة، لا لأحد من الناس ولا حتى لنفسها.

«يما جوعانه!»

«نطري شوي! نزلي المطبخ وأنا لا حقتچ».

تخبط دانه الأرض بقدمها وتصيح في وجه أمها:

«شمعنى غسان يتريق في غرفته! أنا جوعانة أكثر منه!».

عمر ابنتها أحد عشر عام، وما تنفك تصيح مثل أطفال الثالثة. لطالما حاولت تهذيب هذا التصرف الطفولي فيها الذي ما عاد يليق بعمرها. غير أنها مدركة سعير الغضب الذي يئز صدر ابنتها تجاه أخيها، كيف بات يتملَّكها، وكيف بات من الصعب على ابنتها معالجة الوضع وحدها. فغسان يصر على المجاهرة بفلسطينيته أمامها وأمام الجميع وقت تشعر فيه أخته أن تلك الهوية أصبحت، أكثر من أي وقت مضى، نصل سكينٍ مغروز في رقبتها، أوهى حركة وسيخترق وريدها.

«أخوچ تعبان وما أكل شي من أمس الصبح، وانت قبل ما تنامين بالعة وجبتين همبرغر. نزلي تحت خلصيني».

فتصيح بأعلى صوتها:

«ليته مات ولحق أبوه!».

رغم قسوة ما سمعت فغادة لا تكترث له. ليست بالمرة الأولى

التي تعبر فيها ابنتها عن أمنيتها التخلص من أخيها. فأول مرة كانت يوم التقت أخاها بعد عودتها إلى الكويت مع أمها وعائلة خالها. ما إن التقيا حتى شعرت غادة بجدار الغربة يعلو شاهقًا، فاصلًا الأخ عن أخته، حائلًا أمام استقبال بعضهما البعض. ابنها اكتفى بالوقوف خلف خاله الذي أحضره لبيته، وما كان ليتحرك من مكانه عند الباب حتى بعد تشجيع خاله له بالتوجه لأمه. حينها دانه، الواقفة بين ابن خالها وابنته، توجهت نحو أخيها بتشجيع من خالها. ما إن دنت من غسان، حتى ألقى عليها تحيته *كيفك دانه، منيحة؟* ولن تنسى غادة أبدًا تعبير الفزع على وجه ابنتها لدى سماع أخيها ينطق الفلسطينية لأول مرة في حياته، وأين؟ أمام خالها وزوجته وأبنائه.

تسعة أشهر قضتها في لندن تمحو عار الدم الفلسطيني الساري في عروقها بمشاركتها اليومية في سباب فلسطين ولعنها ولعن أهلها الخونة. ما مرَّ يومٌ عليها دون ترديد الشعارات المعادية للفلسطينين على مسامع أهلها، على مسامع زملائها الكويتيين في المدرسة الذين ما إن يعرفوا بهويتها الفلسطينية، بعد إشارة ابنة خالها لتلك الحقيقة فجأةً كل مرة تصادق فيها أحدهم، حتى تجد نفسها وقد أطلقت سيل السباب بأعلى صوتها. كم من لعنة ألقتها على عرفات، كم من مرة توجهت بالدعاء لنصرة يهود إسرائيل على خونة فلسطين الجبناء؟! كم مرة اقتحمت غرفة أمها، تصرخ فيها لائمةً إياها على قرارها الزواج بأبيها، *تدرين اني اليوم لعنت أبوي، لعنت أبوي حتى يصدقون إني كويتية!*

حين وصلها خبر مقتل أبيها فجر التحرير عقابًا على خيانته، هرعت نحو غرفتها وراحت تعوي منتحبة وما هدأت إلا حين خارت قواها. نامت وهي تعلم أن أسوأ كوابيسها تحقق. هي الكويتية روحًا وجسدًا وانتماءً، ستقضي حياتها تحمل اسم عميلٍ فلسطيني خان وطنها.

وها هي اليوم تلعن أخاها، تتمنى لو أن قاتل أبيها أكمل مهمته البطولية فجر ذاك اليوم وقتل الابن. وسيأتي يومٌ تلعن فيه نفسها وتتمنى لو أن القاتل وجه رصاصة ثالثة نحوها. فهي فلسطينية، تلك حقيقة لن تستطيع محوها حتى وإن محت إسرائيل فلسطين عن وجه الخريطة ولم يتبق من الشعب الفلسطيني كله سواها.

تترك غادة سلة المهملات على الأرض وتدخل غرفتها. تقفل على نفسها وتتجه صوب المنضدة جانب سريرها وتجلس. على المنضدة هاتف ودفتر عناوين صغير مفتوح على صفحة تحمل اسم خالتها. تفرد يداها على فخذيها، ترنو بعينيها نحو النافذة أمامها، كفا يديها الآن تقبضان بقوة على ركبتيها، مغصٌ ينعقد في بطنها، تغمض عينيها، تأخذ نفسًا عميقًا، وبعد هنيهة تفتحهما.

بسرعة ترفع الهاتف وتطلب الرقم، لدى سماعها صوته على الطرف الآخر، متململًا متثاقلًا، تندم على اتصالها. لكن ما إن يستقبل اتصالها بترحيبٍ حار، وفورًا يسألها عن غسان وصحته، راجيًا إياها الاستعانة بمساعدته في أي أمر كان، تطمئن غادة إلى اتخاذها القرار.

(٥)

تلمحه من باب المطبخ المطل على بهو الاستقبال، قادمًا إليها، فتنهض من كرسيها على المائدة الدائرية من ثلاثة كراسٍ وتدعوه إلى الجلوس محلها. صامتًا، مكتفيًا بابتسامة، يجلس ويتناول من وسط الطاولة صحيفة القبس، لا يجد صحيفة الوطن أسفلها، هل ألغت الاشتراك بعد قراءتها ذاك المقال؟ كان سيسألها ما إن جلست على يمينه لكن فجأة يرن جرس الباب. يستغربان. إذ من سيأتيهم هذا الصباح. يهمُّ بالنهوض إلا أنها تشد على يده وتنهض عوضًا عنه كي ترى الزائر المبكر. ولأن بداية يومه هادئة أكثر من المعتاد، يرفع غسان عينيه إلى دانه الجالسة قبالته، تتناول فطورها المماثل تمامًا لفطوره عدا أن نصيبها ضعف نصيبه: بيضتين ورغيفين، خلا طبعًا كاسة الشاي. فهي تمقت الشاي. ورغم يقينه بأنها لن تجيبه، يغيظها بسؤاله:

«كيفك دانه.. منيحة؟».

ويلحظ الشعر ينتصب على ذراعيها الناحلتين، كيف تعض رغيفها وتنتفه من الطرفين: بأسنانها وأظافرها. يتخيلها تسدد لكمةً

على فمه فتحطم أسنانه، ولربما حتى، إن أمكن لها، تقطع لسانه وتمزقه إربًا بأنيابها مع شطيرة بيضها. وهي لا ترده خائبًا. إذ ها عيناها تخزرانه بسهام حقدها، وها الخمول المتملك عقله وبدنه منذ استيقاظه ينسل عنه كما التعويذة متى ما انكسرت.

أتراها تدري؟ أتراها تدري أن قراره ادعاء فلسطينيته هي من ألهمته إياه حين التقاها أول مرة في بيت خاله. أتدري إلى أي حدٍّ كان أخوها ضائعًا مهزومًا. ليس أن حاله تبدل. لكن حينذاك لم يملك أي سلاح يقاوم فيه ولو لمجرد المقاومة، لا حصىً ولا حجرًا يرمي به أحدهم فيعكر مزاجه. بعد مقتل أبيه ما عاد يشعر بشيء، فقط في تلك الأوقات الغريبة بين يدي خالد، جسده دمية صماء يلهو بها، وما إن يفرغ منه حتى يخلد غسان إلى النوم وينسى. تلك الأمور التي عرفها ولا يزال يجهلها، تلك الصعقة تسري في جسده، سلكٌ كهربائي أسود يشعل خالد طرفه بلمسة فتسري الشعلة الصغيرة وتحرق السلك إلى أن يصل بها فوهة البركان فيتفجر قاذفًا حممه البيضاء، يخمد البركان ولا يتبقى من أثر حممه سوى الدبق. تلك المعرفة المجهولة لم يعرف كيف يصفها، تحت أي مسمىً في ذاكرته يدرجها. ذكرياته عنها صفحاتٌ ممزقة يعجز عن رتق نتفها. ربما لو كان أبوه حيًّا، ربما وقتها كان سيسأله عن الوصف المناسب لها.

خمسة شهور عاشها أخرسًا من بعد مقتل أبيه، قضى معظمها مغيَّب العقل. ذاكرة مغبشة تحوم في رأسه عن سماعه خالد يخبر خاله على الهاتف أن صمته طبيعي فقد عاش صدمة كبيرة. حتى أن خالد وضع السماعة على أذنه على أمل أن يفيق من الصدمة إذا

ما سمع صوت أمه. ما إن سمع صوتها الملهوف *غسان حبيبي شلونك؟* حتى أجابها *الحمدلله ماما أنا زين*. إلا أن لسانه عجز عن النطق بها. كأنما عقله بات يتحدث لغةً ما عاد يفقهها لسانه.

لكن ما إن رأى أخته تقبل عليه، حين رأى فيها عيني خاله وكل المرات التي ما فتئ يتهكم فيها أمام أبيه على حماقة ذاك الفلسطيني الذي هجر أرض النفط السعيد لأنه رفض أن يهجر وراءه أرض البرتقال الحزين، فلقي مصيره المأساوي المتوقع متفحمًا في أرض الرمانة الدامية.. حينها لسان عقله ولسان فمه أخيرًا اتفقا، كأنما في تلك اللحظة عثرا على الحلقة المفقودة بينهما.

عقله نطق:

«شلونچ دانه.. زينة؟».

ولسانه ترجمها:

«كيفك دانه.. منيحة؟».

جامدةً وقفت في مكانها، النفس انقطع فيها، عيناها جحظتا خارج محجريهما وكأنما انقض عليها بيديه يخنقها. لحظتها شعر بالحجر المسنن في قبضة يده، يرميه متى ما شاء على من يشاء بمقلاع لسانه.

بخفة، ينقر أصابعه على الطاولة، يهمهم *منتصب القامة أمشي* مستدعيًا استهزاء أبيه منها على مقتها الاستماع إليها على التلفاز *والله لو يهودية ما كرهتيها هالقد.. محّولة والعياذ بالله*. غضبها يفور وكاد ينفجر لولا دخول أمهما المطبخ برفقة زائر الصباح. يضع

غسان استفزازه أخته موضع التأجيل ويتأمل الزائر الغريب. ظنه عاملًا استدعته أمه لتصليح غرض ما وجاء أبكر من موعده، إلى أن استوعب ملامح وجهه. كان يرتدي بنطال رياضة أسود وبلوزة بنية فضفاضة، حذاؤه الرياضي أبيض شبه متهالك من كثرة الاستعمال، أما يده الضخمة فيتدلى منها كيسٌ صغير. أمه واقفة جانب الزائر، قمة رأسها بالكاد تصل كتفه وهذا مع ارتدائها للكعب. وقوفهما معًا بدا له مشهدًا من *طرزان*، في أي لحظة قد ينتشلها من خصرها ويتأرجح بها على الأشجار.

«حبيبي غسان هذا جارنا عبدالله.. صاحبك».

يرفع عبدالله حاجبيه متفاجئًا بافتراض علاقة الصداقة التي أعلنتها الأم بكل حماس. أما غسان فيلوذ بالصمت ويحدجه بنظرة متوجسة. صمتٌ محرج يخيم على الجميع قبل أن يتقدم عبدالله نحو الطاولة ويضع عليها كيس الأدوية، ويتناول من داخلها علبة:

«هذا مضاد حيوي، تاخذه مرتين في اليوم بعد الأكل، خالتي قالت لي إنك أكلت، فالحبة الأولى تاخذها الحين».

النظرة المتوجسة لا تغادر عيني غسان، فيجيبه بنبرة باردة مستهينة بعنائه:

«طيب.. شكرًا».

ويتناول منه علبة الدواء ويرمي بها جانبًا. يظل عبدالله على مكانه لا يتحرك، وغسان، متجاهلًا إيماءة أمه، يسأله مستنكرًا بقاءه:

«شو بدك كمان؟».

«الدوا».

«نعم؟!».

«الدوا.. لازم تاخذه الحين».

ليس غسان الوحيد الذي استغرب هذا الإصرار، بل عبدالله نفسه استغربه، فما يعنيه إن تناول غسان الدواء أم لا. ألا يكفيه أنه أحضر الكيس بنفسه ما إن عثر عليه في حقيبته الرياضية حيث دسَّ صباح البارحة بقميصه الأبيض المبقع بدم غسان. أم باتت غريزته الآن إقحام حبوب الأدوية في حلق كل مجنون يراه؛ إذ ها هي أصابع يده اليمنى تتكور في قبضة محكمة تأهبًا للإمساك بعنق غسان وإرغامه على ابتلاع حبة الدواء إن أبى ابتلاعها برضاه.

«عبدالله.. حبيبي.. اقعد ليش واقف».

يجفل إثر لمستها الحنونة على عضده، بصوتها الدافئ تناديه باسمه، بتحبب لم يسمعه دهرًا، لا على لسان أمه ولا عمته. هي الأولى، الأولى التي تناديه حبيبي. وبكل حواسه، استجاب لها.

«مشكورة خالتي».

مبتسمة، راحة يدها الآن على كتفه، صححت له في غنج:

«مشكورة.. آنتي غادة».

يحدج غسان أمه لكن لا تكترث. تتهادى نحو المنضدة جانب

حوض المغسلة، تتناول كأسًا من الخزانة وتصب فيه الماء ثم تعود وتضعه على الطاولة أمام ابنها. واقفةً في مكانها تتناول لوح الحبوب من داخل العلبة، وبأناقة تشق بظفر إبهامها المصبوغ بالأحمر شقًّا صغيرًا تدفع عبره بالحبة نحو كف يدها، وتتوجه بالسؤال نحو عبدالله:

«في حبة ثانية؟».

يومئ ومرتبكًا يتناول علبة أخرى من الكيس ويسحب منها اللوح ويناولها إياه، كان عليه أن يوضح أن حبة المسكن تؤخذ ثلاث مرات لا مرتين كما المضاد الحيوي، إلا أنَّ مرآها الأخاذ، شذاها الآسر، يعقدان لسانه. تعود وتؤدي ذات المشهد بذات الجمال والرونق، تعيد اللوحين إليه كي يدخلهما الكيس وتُناوِل غسان حبتي الدواء.

وإذ اللحظة، كل خلية في جسد عبدالله تتهيب تصاعد الموقف بسرعة إلى مشهد مماثل لما يعيشه في بيته: غسان يصفع كف أمه الممدودة نحوه مطيحًا بالحبتين على الأرض، يصرخ قاذفًا إياها شتمًا ولعانًا، ومع محاولتها تهدئته يفقد السيطرة ويصفعها، يرمي بكل ما تقع عليه يداه على الأرض وسيجد عبدالله نفسه مضطرًّا إلى الانقضاض عليه من الخلف. وربما لن يكون حتى بالموقف السيئ، فمن يدري، لربما إن شهدت آنتي غادة قوته الجسدية في سيطرته على ابنها المجنون ستستدعيه ثلاث مرات في اليوم لتقديم يد العون إليها، ولن يبخل أبدًا بمدها إليها. لكن لا شيء من خيالاته حدث.

غسان تناول الحبتين وكأس الماء وابتلعهما الحبة تلو الحبة. وفي زفيرٍ عميق خبط الكأس على الطاولة وتوجه إلى عبدالله قائلًا على نفس نبرة الاستهزاء:

«وشربنا الدوا، صار فيك تروح».

«عليك بالعافية».

يدفع بالكيس صوبه ومحرجًا ينهض عن الطاولة، نادمًا أشد الندم على استسلامه لفضوله وقدومه هنا. عمته كان معها حق، كان عليه ألا ينسى، ولا حتى للحظة. وبدل تمنيه العافية كان يجدر به أن يبصق في وجهه ويسدد لكمة إلى بطنه تقذف بحبتي الدواء من جوفه فيتعلم مغبة التطاول على أي كويتي. لكن قبل أن يصل باب المطبخ نادت عليه آنتي غادة:

«عبدالله حبيبي انطر شوي، غسان طالع معاك».

الصبيَّان التفتا نحوها، يعلو وجهيهما اعتراض حقيقي على مقترحها، لكنها ما اهتمت. تتجاهل ابنها وتدنو متهادية في كعبها العالي نحو عبدالله، واللمسة نفسها تلمسه على عضده، هذه المرة عيناها الواسعتان الرقيقتان إلى عينيه، حديثها له أقرب إلى الهمس:

«غسان ضايق خلقه.. والجو حلو اليوم.. ودي يطلع يتمشى شوي.. اخذه معاك تمشوا صوب الجمعية.. مو جمعية القادسية.. جمعية حولي.. وإذا حبيتوا اشتروا الكم شي تاكلونه شيبس.. ككاو..».

«مصاص قلوب!».

المداخلة الوحيدة لدانه، المستغرقة في التهام شطيرة البيض الثانية، ها هي تؤتي أكلها، وتنجح للمرة الأولى في استفزاز أخيها فيرميها بكيس الأدوية.

«انت سكتي مالچ شغل! غسان!» تتناول غادة من جيبها ورقة نقدية، «هاك.. هذي خمس دنانير اشتروا فيها اللي تبونه».

وتنتظره ينهض إلا أنه يأبى، فتمضي نحوه وتشد كفه من رسغه وتصفق الورقة فيها قائلة بحزم:

«إذا تبي تطلع تطلع معاه، والا خلك في البيت واقعد جابلني أنا واختك».

يسحب رسغه عن قبضة يدها وينهض متثاقلًا عن كرسيه، مغادرًا المطبخ نحو باب البيت دون أن يلتفت لعبدالله أو حتى ينتظره يفرغ من وداع أمه وتطمينه إياها ببلاهة:

«لا تحاتين آنتي غادة، راح أدير بالي عليه، وإذا حسيته تعب راح أشيله بنفسي وأرجعه بيته».

ما إن يودّع آنتي غادة حتى يلحق بغسان ويتأهبان للخروج. ولا أحد منهما يتوقع، أنهما بالفعل، إلى جانب الشيبس، سيشتريان مصاص قلوب. لكن خلافًا لتنبؤ دانه الساخر، فالمصاص لن يكون من نصيب أيٍّ منهما، بل من نصيب صاحبهما الثالث. ذاك الذي سيقضي نهاره معهما بعد أن قضى صباحه الباكر بصحبة الشمس، الساحرة الشريرة، وأصدقائه الزرق السنافر.

(٦)

كم مضحكٌ منظرهما معًا. العملاق الكويتي الطيُّوب والثائر الفلسطيني الهزيل يقطعان الطريق جنبًا إلى جنب، ذراعا العملاق تتدليان بحرية من كتفيه كأنها زوائد يجهل ما يصنعه بهما، يدا الثائر مدفونتان عميقًا في جيبي بنطاله الجينز.

ورغم أن لا مسافة تفصل بينهما، فكلاهما يتحاشى عمدًا الالتقاء بعيني الآخر. غير أنَّ من الواضح لها أن العملاق من يلعب دور الراعي، فخطاه على إيقاع خطى الثائر المتباطئ، كلما وقف عن مسيره يلتقط أنفاسه، توقف العملاق هو الآخر، ذراعاه متأهبتان لمساعدته. المرة الثالثة التي يتوقفان فيها، أسفل نافذتها، يلتفت الثائر نحو العملاق ويتوجه إليه بالكلام، يبتغي التخلص من رفقته، إذ بمجرد أن ينهي حديثه المقتضب يحث خطاه. العملاق لا يكترث بالرد، يحث خطاه هو الآخر، يسير خلفه بخطوتين.

متوارية خلف طرف الستار القاتم، ما كانت فاطمة لتستغرب إن رأت عبدالله يحمل غسان بين ذراعيه. لا من طيبة قلبه، بل نكايةً

فيها، يشعر بها اللحظة ترقبه. يريها كيف فلت من قبضتها بانتهازه انشغالها. كانت في غرفتها تتجهز للاستحمام لدى سماعها صوت باب البيت يصفق بقوة. لمحته من نافذتها يهرول في الشارع صوب منزل جيرانهم الجدد، في يده كيس بدا لها وكأنه كيس أدوية من المستشفى. ما كانت لتمنعه من الذهاب لو أنه سألها الإذن، لكن لأصرت عليه أن يأخذ وقته فيخلع عنه الملابس البالية التي ارتداها لشطف الحوش والدرج الرخام وفق نظام الصباح كل خميس. ما كانت حتى لتمانع أن تختار له بنفسها ملابس متناسقة مرتبة حتى لا يصبح مثار سخرية بنت *العز* من تظن نفسها وأبناءها *الفلسطن* أعلى مقامًا من أهل المنطقة.

مذ سرت في بيوت القادسية إشاعة انتقال عائلة فلسطينية إلى منطقتهم، ما انقطعت اتصالاتهم بها مطالبين إياها، بصفتها أخت الشهيد، التوجه إلى مخفر المنطقة والاعتراض على الانتقال، إذ كيف لأسرة ربها فلسطيني أن تجاورَ أسرةً ربها الشهيد. ما إن سئمت من تلك الاتصالات حتى نزعت سلك الهاتف وهكذا انقطع اتصالهم بها تمامًا، إذ لا أحد من الجيران يرتاح إلى دخول البيت بعد استشهاد أخيها ومعرفتهم بوضع أرملته.

جارهم بوعلي، صاحب البيت الذي بيع على الفلسطيني، هو وحسب من زارها بشأن الانتقال قبل أن يعلم به أحد. يومها دعته إلى الجلوس على الأريكة ذاتها حيث رقد جثمان أخيها ليلة كاملة. آثار الدم لا تزال مدغمة في قماشها النيلي. ورغم معرفته بتلك الحقيقة،

إذ هو من حمل الجثمان عن الأريكة مع ابنيه وعبدالله ودفنوه، جلس بوعليّ دون اعتراض، حريصًا أشد الحرص أن لا يظهر على وجهه أمارة امتعاض. حين أعلمها بخبر انتقال عائلة فلسطينية إلى القطعة، في هذا الشارع بالذات، ظنت أن هناك لبسًا في الموضوع، إشاعة بين عشرات الإشاعات المتوالدة كل لحظة، تثير الذعر في البيوت فيستعد أهلها إما للتموين وإما الفرار. إلا أنَّ بوعلي، الجالس يتصبب عرقًا ويزداد توترًا مع كل ثانية يقضيها على الأريكة، شرح لها الوضع على استعجال.

من اشترى البيت رجل كويتي من عائلة متوسطة الحال، لا غبار على اسمه ولا يقرب للعائلة الفلسطينية بأي صلة، لذلك لم يشك هو ولا الدلال في هوية المشتري، وإن ساورتهما الشكوك في مصدر ماله، كونه كان مسؤولًا في إحدى الجمعيات التعاونية، إلا أنَّ بوعلي استعجل البيع لرغبته في مغادرة البلد والاستقرار في الخارج، معلومة سرعان ما ندم على الاعتراف بها. لكن ما حدث أنَّ بعدها بأيام، المالك الجديد باع البيت لمواطنة كويتية من عائلة ثرية ومتزوجة فلسطيني.. والعائلة ستنتقل إليه عن قريب.

«تبي تقول لي إن جاري الكويتي اللي أخوي مات حتى لا أحد يطلعه من بيته وديرته.. باع بيته على فلسطيني حتى يطلع من الكويت.. كفو بوعلي.. كفو.. وهالجار الفلسطيني شسمه وشنو وظيفته؟ حتى نعرف نرحب فيه وفي مرته وعياله»، سألته مع ابتسامة متكلفة. وفي صوتٍ خفيض أجابها مطرق الرأس، «أبوهم مات يوم

التحرير.. مقتول». كان يفرك كفيه، لا يجرؤ على رفع عينيه، ولأول مرة مذ خمسة عشر عامًا كادت عيناها تدمعان؛ لسانها نطق موجوعًا، «خاين؟» لم يجبها.. ولم تزد هي حرفًا. مضت نحو الباب المفتوح ووقفت في انتظاره يغادر، وما أسرع نهوضه عن تلك الأريكة، وكأنما طردها له كان عطية لا إهانة.

مجيء بوعلي شخصيًّا لزيارتها وإبلاغها بالخبر ما كان إلا من باب الحصول على صك الغفران من أخت الشهيد، لكن ما ناله. فما إن عرف أهل المنطقة حتى وجهوا إليه تهم التنازل عن المبادئ الوطنية وبيعه تراب الكويت الغالي. وأشيع بعدها في اتصال ورد لها لاحقًا، من بين كم الاتصالات الهائل، أن بوعلي كان على علم مسبق بهوية الشاري الحقيقي وأن القصة التي ما يفتأ يقولها ما هي إلا كذبة رخيصة، فقد قبض مبلغًا كبيرًا مقابل البيع وحوله إلى حساب بنكي في الخارج يستفيد منه متى ما فرَّ من الكويت. فالكل بات يتوقع الغزو كل ليلة يخلد فيها إلى فراشه، السماع بخبره كل صباح يفتح فيه عينيه؛ فإن كانت عاصفة الصحراء العاتية دحرت الغزاة عن الأرض إلا أنها لم تدحر الخوف في القلوب، لم تُذهِب عنها الروع من كابوس التكرار.

وها هما العملاق والثائر عن ناظريها يغيبان. تتركهما يكملان مسيرهما وتدلف نحو مزينتها وتجلس منتصبة الظهر أمام المرآة. على الطاولة فنجان قهوة عربية -شذرة صغيرة تشظت مذ زمن عن حتاره- ومنديل أبيض مطوي مطرز بزهرة اللافندر، وإلى

جانب المنديل منشفة صغيرة. تصب في الفنجان معقم يود وتتناول كرة قطن منتفخة وتغمرها فيه. تخلع عنها برنس الحمام، تتفحص نهديها وعنقها وجيدها وكتفيها وزنديها. تفتح طيات المنديل، في داخله كسر صغيرة من الزجاج والخزف. أثرٌ من البارحة. تنقب في المجموعة بتأنٍّ وتتناول كسرة، تتأمل حجمها وزواياها الحادة، وبكرة القطن المعقمة تمسحها وتضعها على المنشفة المفرودة. كرَّتين تعيدها، كسرة زجاج والثانية خزف.

تأخذ نفسًا عميقًا، تتلمس نهدها الأيسر بيمناها، لا تأبه لعلامات التمدد البيضاء المحفورة فيه ولا لذبوله، أمر طبيعي مع امرأة على عتبة الأربعين. ترفع نهدها المترهل برفق وتتفحص الآثار الغامقة المستورة أسفله حيث غرزت كسر الزجاج وشقت جلدها يوم زارها بو علي، ومرة يوم انتقال الفلسطن إلى بيتهم الجديد. تمر بأناملها على الثُّلَم مثل أعمى يمرر أنامله على أحرف بريل، تكف أناملها عن التحسس ما إن تمس الموقع المناسب لنقش حرف جديد. تتناول كسرة الزجاجِ الأولى بيسراها وتغرزها، تشق شقًّا دقيقًا بالغ الصغر في جلدها علَّ دمعةً تنساب منها، لكن كل ما ينسرب منها دمها، قانيًا حدَّ السواد. لا بأس، ستعيد المحاولة مرة أخرى، كما هي عادتها لأعوام وأعوام، على سائر جسدها.

ثلاثة جروح جديدة

ثلاثة ثقوب صغيرة

تغمس كرة قطن أخرى وتمسح الدم عن ثقوبها، قبل أن تغطيها

بلاصق الجروح البني الدائري. ترتدي برنسها وتنهض. تفتح باب خزانتها الوسطى، تقف على رؤوس أصابعها، ومن على الرف الأعلى تتناول صندوقًا خشبيًّا مزخرفًا أهداها إياه أحدهم في عامها الأول في إسكتلندا لدى رحلتهما إلى سوق أغراض مستعملة.

تعود وتجلس إلى مزينتها، تضع الصندوق أمامها، تتلمس النقش وسط الغطاء ثم تنزاح عن الوسط وتتلمس أغصان الزهور الشائكة المحدقة به من كل الجهات. تحني رأسها وتلثم النقش، وما إن ترفع رأسها حتى ترفع الغطاء. تدس أناملها ومن جوفه تتناول كيس مخمل أحمر صغير، تدس فيه الكسر الثلاث، وتسحب طرفي الحبل الذهبي؛ تنتشل ورقة مطوية صفراء مبقعة ببصمات دم باهتة، تفتحها، تقرؤها، ثم تعود وتطويها؛ تتناول غرضًا ملفوفًا بشماغ، تضعه بتؤدة على الطاولة جانب الصندوق، تفرد طيات الشماغ على مهل كأنما تفرد بتلات زهرة كي ترى بعينها ما المخبوء فيها. وها هي تراها، تلك اللمعة، الفوهة، الزناد، العقب. تتلمس آثار الدماء الجافة عليه، وها الذكرى تبصرها الآن.

عين الفجر دامية

خيالٌ مرعوب يجره رجلان ملتحيان مدججان بالسلاح

ساقاه ترفسان عبثًا رمال الخلاء

وها الخيال جاثٍ أمامها

أحد الرجلين يميط عن فمه الشماغ

غير مصدق يرفع الخيال نظره نحوها

يلمح المسدس في يدها يلمع في وهج ضوء السيارة الأمامي خلفها

فاطمة.. فاطمة.. فاطمة..

يردد الخيال اسمها منقطع الأنفاس وكأنما يود تذكيرها باسمها لعلها نسيت

منشان الله.. منشان الله فاطمة.. والله كانوا راح يقتلوني ويقتلوا مرتي واولادي

أتت تحمل في يدٍ مسدسًا

وفي جوفها صراخًا

بيد أن الصراخ ظلَّ عالقًا في طمي أساها

ترفع مسدسها وتصوبه نحو العين اليمنى

ساخطًا يثور الخيال في وجهها

نسيتِ يا منيوكة إنه أنا اللي

المسدس يهوي عن يدها

طنين الرصاصة يصم أذنيها

تجثو على ركبتيها عند مصب الدم

الروح ما زالت عالقة في الجسد المنتفض

تتناول الشماغ المرمي

تفرشه بتروٍّ على حجرها

ترفع المسدس وتلفه به

وقبل أن تنهض عن الأرض

تميل نحو أذن الدكتور وليد

تهمس صرخة وحيدة انتزعتها من جوفها

لا .. ما نسيت

(٧)

لم تنفع محاولته في إثنائه عن المضي معه، وما كان قادرًا على مقاومته أكثر، فقرر أن الاستسلام للوضع المزعج الذي خلقته أمه هو الخيار الأفضل.

لم يتوقع أن يلقى من عبدالله اهتمامًا حقيقيًّا متى ما غادرا البيت، توقعه يساير أمه وسيدخل بيته ما إن يصلا إليه. لكن ها قد غادرا الشارع ولَمَّا يزل معه. ألهذا الحد فُتن بجمال أمه، أبهذه السرعة التفت خيوط شبكتها حول قلبه وأذعن كليًّا لمشيئتها. لن يكون الصبي الأول الذي يعلق في خيوطها.

يذكر جيدًا تجمع أصحابه القدامى حوله عند بوابة المدرسة على أمل أن تصطحبه أمه. مع انتقاله إلى الصف الثاني متوسط، بات اصطحاب أمه له من المدرسة أمرًا مستحيلًا، وغدت مهمة اصطحابه جيئةً وذهابًا، العام الأخير ما قبل الغزو، حكرًا على والده. غير أنَّ الكل ظل يقف منتظرًا. الكل تعلق بأمل الالتقاء بها، أمل الاستماع لصوتها تنادي عليه حبيبي *غسان* من نافذة سيارتها المرسيدس.

كم كان محرجًا منها، كم مرة ودَّ لو بإمكانه أن يُسر إليها بإحراجها إياه كلما نادت عليه بهذه الطريقة علنًا أمام الناس، لكن لم يشأ أن يجرحها. غير أنَّ الوضع استفحل سوءًا بعد تعمد أحد طلبة الرابع متوسط إلى التصفير كلما لمح سيارتها تقترب، ينادي على غسان *حبيبتك وصلت*، فيضحك الجميع وأولهم أصحابه وزملاؤه في الفصل. لم يجرؤ أحد على نهره أو إيقافه، فعمره يتجاوز الطلبة في فصله، أعاد صفين من المرحلة المتوسطة وليس بصبي مثلهم بل يكاد يكون رجلًا. حتى مدرس الإشراف لم يتعامل معه بحجة أن ما يجري خارج حدود المدرسة وإن على الرصيف المقابل للبوابة ليس من شأنه. يائسًا من قدرته على التعامل وحده مع الإحراج اليومي، وجد نفسه يلجأ إلى الخيار الأمرِّ. استغل خروج أمه من البيت مع أخته ذات مساء لحضور عرس إحدى بنات عمومتها وقرر أن يُسرَّ بمشكلته لأبيه.

مترددًا دخل صالة الجلوس حيث وجد أباه كما بات يجده كل مساء وحتى الحادية عشرة، وأحيانًا بعد الثانية عشرة مع التلفاز مفتوحًا حتى بعد انتهاء البث. وجده مضطجعًا على الكنبة المجاورة لباب غرفة النوم الرئيسة حيث بات ينام معظم النهار؛ في النهار يرتدي دشداشة صيفية بيضاء مخططة بالأزرق، تشف من تحتها فانيلته النصف كم وسرواله الطويل، وفي المساء يكتفي فقط بالفانيلة والسروال. الكنبة هي هي لا يغيرها، إلى ما يزيد على عام اتخذ منها متكأً ومائدة ومضجعًا، مذ ألغت أمه ترخيص مكتب الاستيراد والتصدير وأقعدته في البيت، بتحريض من خاله

كما اتهمها أبوه كي يذله ويقف في سبيل تحقيقه ثروة تفوق ثروتها وأخيها، وكم كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيقها، لولا أن الحظ ما انفك يعانده.

مذ ذاك اليوم اتخذ أبوه من الكنبة وطنًا، والغريب أن لا أحد شاركه يومًا الجلوس عليها، لا زوجته، لا ابنته، لا ابنه. لا يدري إن كان أبوه هو الرافض لمبدأ المشاركة، إذ ما سبق أن سأله أحدهم الجلوس إلى جانبه ليتسنى له الرفض أو القبول. وما كان ليسأله ساعتها إذ لا جدوى من فتح باب مغلق بينما هو على وشك فتح باب آخر. استجمع شجاعته وجلس على الكنبة المجاورة لأبيه، أقرب ما يكون إلى الجلوس جانبه، وبعد لحظات من الصمت استدار إليه وسأله، «شلونك بابا». لم يتلق إجابة على سؤاله، فقد كان والده مشغولًا بصب الشاي الذي أحضرته لتوها الخادمة الفلبينية، تبادل معها بضع كلمات همسًا ثم غادرتهما وهي تضحك، وأشعل هو سيجارته. استغرب غسان مما رأى إذ ليس من عادة أبيه إلقاء النكات، لكن ربما كان الأمر لصالحه، على الأقل سيضمن أنه في مزاجٍ رائق.

«بابا.. عندي مشكلة في المدرسة»، بهذا التصريح استرعى انتباه أبيه الكامل، كأنما لحظتها فقط انتبه إلى وجوده، وأجابه في جفاء، «احكي.. شو صاير معك». ومباشرةً دون مواربة دخل غسان في الموضوع، وصف له أفعال الطالب المشاغب وتصفيره، ضحك زملائه ومشاركتهم إياه التصفير، ووقوف مدرس الإشراف

متقاعسًا عن نهره. المنحى الذي وصف فيه غسان معضلته بدا وكأنما المشكلة تكمن في الطالب المشاغب لا في تصرف أمه. ما كان ليهاجمها بغتةً من وراء ظهرها، لذا ترك لأبيه مهمة استنتاج المكمن الحقيقي في شكواه.

ما إن سرد مشكلته كاملة، حتى سحب والده النفس الأخير من سيجارته الثالثة، أمعن في دهس عقبها في المنفضة، ثم فعل أكثر ما كان يخشاه غسان، جرَّ والده شكواه جرًّا نحو عمود فلسطين، وهناك كبَّلها وبعقب سيجارته أضرم النيران المستعرة أسفلها في حطب لا ينضب أبدًا.

«شوف يا ابني.. لازم تعرف انك في الأول والآخر فلسطيني.. أبوك في عمرك وأصغر منك كان مناضل.. شبل من ظهر أسد.. شايل السلاح على كتفه.. روحه على كفه.. فإياك تسمح لك كرامتك تخلي حدا يهينك وخصوصي هدول الناس.. فتِّح أَدَنيك واسمعني منيح.. مش لأنك نص كويتي تفتكر حالك صرت منهم.. عمرك ما راح تصير منهم.. لأنه نصك الفلسطيني.. نصك من أبوك.. هو الأهم.. مو نصك من إمك.. يعني انت ابني مو ابنهم.. انت ابن منصور أبو العز مو ابن خالك.. سمّعني.. سمّعني اسمك».

كم كان غبيًّا حين ظن أنه سيجد حلًّا لمشكلته عند أبيه. لكن بما أنه فتح الباب، فلا خيار سوى مسايرته إلى أن ينقضي الأمر ويفر مسرعًا إلى غرفته.

«غسان.. غسان منصور».

إلا أن أباه عاد ومنفعلًا أصرَّ عليه:

«كمان مرة.. كمان مرة عيد.. هالمرة مع اسم عيلتك».

فعاد وردد متململًا:

«غسان.. اووف.. غسان منصور أبو العز».

«وليش عم تحكيها وانت متأفف وموطي راسك.. خجلان مني.. خجلان من أبوك يا كلب!».

لم يتوقع غسان الصفعة، لم يتوقع أن ينهض أبوه عن كنبته، لم يتوقع منه أن يرمي بالطاولة الصغيرة وما عليها من رماد وشاي وسكر على الأرض، لم يرَ في أفضل توقعاته ولا في أسوئها أن يبذل أبوه بالفعل أي جهد للوصول إليه.. تخطي تلك المسافة بينهما والاقتراب منه.. حتى وإن بصفعة.

في حياته، في حياته كلها ما تعرض غسان للضرب، ما مسه أحد بسبة ولا شتيمة. أمه ما كانت لتسمح.. ما كانت لتسمح أبدًا لأيٍّ كان.. أيٍّ كان.. أن يتطاول عليه بلمسة أو يجرحه بحرف. لذا لم يعرف غسان ما يجدر به أن يفعل أمام هول صراخ أبيه، أمام جسده الضخم يتجلى فجأة أمامه كأنما يراه للمرة الأولى في حياته. تجمد غسان في مكانه. البطولات التي راح أبوه يقذفها في وجهه تلتف حول جسده، تكبله على كنبته، جبرًا ترغمه على الاستماع إليها كلها حتى وإن كان يحفظها كلها عن ظهر قلب وعصيٌّ عليه تصديق ولو بطولة واحدة منها، إذ ما تخيل أباه يومًا بطلًا، قادرًا حتى على حمل

سلاح ورفعه في وجه أحد. لو كان بيده لصرخ مستغيثًا كي ينتشله أحد من سيل الهراء الجارف، لكن لا أحد في البيت سواه وأبيه، الخادمة في غرفتها على السطح وأمه وأخته لن تأتيا إلا بعد ساعات، حينها يكون السيل همد وقفل عائدًا نحو مصب الماضي البعيد.

وأخيرًا.. أخيرًا جسد أبيه المتضخم يفشّ نحو حجمه الطبيعي ولاهثًا عاد إلى كنبته. تناول عن الأرض ولاعته وعلبة سجائره، سحب سيجارة وقبل أن يشعلها.. تردد للحظة..

«قلت لي إمك تنادي عليك حبيبي *غسان*.. هه.. طيب.. طيب خليني أحكي لك سر عن إمك.. إمك اللي تحبك كتير... إمك اللي تعطيك مصاري لتشتري لها الهدايا.. عطور وورد وقلائد ألماس وذهب.. وما تعطيك دينار.. دينار واحد.. حتى تشتري لي هدية في عيد ميلادي.. خليني أخبرك عنها..». يشعل سيجارته، يودعها شفتيه، يسحب نفسًا، يزفر سحابة الدخان في الهواء، ويستهل حكايته.

«إمك في الثانوية حبت واحد فلسطيني، كان مدرس في الكويت وبعدين صار يكتب في الجريدة.. يكتب مقالات ويؤلف قصص.. فلسطيني مصدق حاله إنه شايل القضية بسلاح قلمه.. حلوة هالنكتة.. سلاح القلم! على أساس انه المثقف الفلسطيني هو اللي راح يحرر الأرض ويرجعنا على بيوتنا.. المهم.. إمك حبته.. لا إمك ما حبته إمك عشقته.. تخيل.. تخيل تركت كل بنات عوايل الكويت ورافقت بنت إخته اللي كانت معها في المدرسة.. بس..

بس كرمال تصير قريبة منه.. بس عمرها ما التقت فيه.. أنا بعرف هالشي.. تعرف كيف أنا بعرف هالشي.. اسألني.. اسألني.. اسأل! بعدها عيونك تدمع متل البنات.. يلعن تربيتك تربية مره.. مو مشكلة.. ضلك قاعد تبكي أنا راح اخبرك.. أهلي وأهله كانوا جيران من أيام فلسطين.. في نفس اليوم تهجرنا من يافا.. أهلنا هربوا فينا على مخيمات التنك وتركوا وراهم بيوتهم ومزارع البرتقال لليهود.. لما تهجرنا أنا كنت بعدي في اللفة على صدر أمي وهو كان ولد في عمرك.. في عمرك هلق تمام...احنا ضلينا في صيدا في عين الحلوة وأهله راحوا بعدين على حلب.. بعد سنين طويلة التقينا في لبنان بعد ما هو هجر الكويت.. وأنا اندحرت من عمان مع بو عمار.. وقتها كنت زهقت من النضال.. وهو نصحني أروح الكويت وأجرب النضال على أرضها.. بيني وبين حالي فكرت.. ليش لأ.. تعرف.. الفلسطيني فيه يناضل من أي محل.. وقد ايش الكويتية متحمسين لقضيتنا.. متحمسين أكتر منا احنا.. ههه.. وقتها كنت متخيل انه عم ينصحني.. هلقيت بس فهمت انه كان عم يتمسخر عليّ! لكني صدقته.. رميت سلاحي ورجعت هجرت المخيم بعد ما لقيت لي واسطة فلسطينية تجيبني الكويت.. وبدل ما أناضل لأحرر أرضي لقيت حالي أعمّر بلد مو بلدي..».

السيجارة بين يديه هوت رمادًا، ومضة جمرة على السجادة، يتأملها أبوه قبل أن يخمدها بإبهام قدمه.

«تصدق أنا وياه.. أنا وياه عندنا نفس الحكاية الفلسطينية لنحكيها.. بس لأنه هو كتبها مرة وحدة على فنجان قهوة وأنا

ضليتني أحكيها ألف مرة على كاسة شاي.. صار هو المناضل وأنا اللي صارت حكايتي مملة وما تتصدق.. أنا بعرف إنك مو مصدقني وعمرك ما صدقت كلمة وحدة خبرتك فيها عني.. بس مو مهم.. راح يجي اليوم وعن قريب كتير تشوف السلاح في ايدي مرة تانية، ووقتها راح تعرف أبوك الحقيقي. نرجع لرفيقنا، لما عرف إني رايح الكويت، بعث معي رسايل لأخته وهدية لبنت أخته وعطاني رقم تلفونهم وعنوانهم. وأول ما وصلت اتصلت عليهم، ورحت بيتهم تاني يوم المسا، طرقت الباب، وشفتها.. شفت أمك المصون تفتح لي الباب كأنه بيتها.. شعرها أسود طويل وميني جيب قصير.. قصير كتير.. حلوة تاخد العقل متل غصن البان. عرفت إنه مستحيل تكون بنت أخته أو تقرب له بشي، مع إنه نفس العمر، ستّعش أو سبعتعش، ومع إنه عمري وقتها تلاتة وعشرين وقفت قدامها متل الصبي الأهبل وما عرفت شو بدي أحكي.. بنت إخته إجت على طول واستقبلتني وخبرت إمك عني ومن مين جايب الرسايل. ويا ليتك تشوف النظرة اللي اطلعت فيها عليّ، لأول مرة في حياتي كلها حدا يطلع عليّ وكأني أهم شي في هالدنيا كلها.. كأني أعز حدا على قلب حدا.. وبعد ما دخلنا كلنا وأخدنا واجب الضيافة وصار وقت إطلع.. مع أهل البيت ودعتني إمك من عند الباب.. مدت إيدها وسلمت عليّ.. هيك مدت إيدها.. عطني إيدك.. عطني.. هيك.. هيك مسكتها.. ما كانت خجولة بس كمان ما كانت وقحة.. استغربت إنه أصابعها ضمُّوا إيدي بقوة.. وحسيت.. حسيت بالورقة الصغيرة اللي تركتها في كفي ومن غير صوت

حركت شفايفها *اتصل عليّ* أنا الوحيد اللي سمعتها.. أحلى صوت سمعته في حياتي.. ومن لحظتها مشتاق إسمعه مرة تانية. ما صدقت صاحبي يرجعني على البيت بعد ما اعتذرت عن سهرتنا وضليتني عند التلفون اطلع على الساعة المعلقة عالحيط.. ضليت افرد الورقة الصغيرة واطويها.. افردها واطويها.. رقم تلفون بيتها حفظته من أول مرة بس كان لازم اتأكد إني حفظته صح.. دقت الساعة ١١ واتصلت.. رنة وحدة وردت على طول.. سألتها عن حالها وكنت ناوي أخبرها قد ايه انها حلوة.. كنت مجهز حكي حلو كتير بس إنت تعرف إمك.. إذا بدها شي على طول تدخل في الموضوع.. سألتني عن صاحبنا تتطمن عليه وعلى أحواله وكتاباته.. كانت متلهفة كتير.. بيني وبينك يمكن أكون زودت شوي في الحكي عنه.. ألفت كتير.. كأنه عن جد رفيقي وما إله في هالدنيا حدا غيري.. هون خبرتني انها تحبه وبدها تتقرب منه بمساعدتي.. وإذا على الأقل فيني أبعت رسالة منها إله.. خبرتها انه متزوج والكل يعرف انه متزوج وعنده أولاد كمان.. هي ما فرق معها.. بالضبط قالت لي *أنا أبيه يحبني*.. وقتها كنت سامع إشاعة انه يحب مره تانية على مرته.. كاتبة متله.. متلها متل هالنسوان يكتبوا عن غرامياتهن اللي يتخيلوها مع الرجال على سرايرهن.. المهم.. خبرتها القصة حتى تنساه وتلتفت لي.. هي خبرتني انها قرأت للكاتبة.. أبوها أهداها مجموعة قصصية من تأليفها لما رجع من سفرته الأخيرة للبنان.. بس ما حسيت عليها زعلانة وهي تحكي.. فتصورت انها نست الموضوع لما شافت إنه ما في أمل.. نزوة خيال مراهقة وتروح

لحالها.. أنا الحقيقي قدامها.. وقبل ما تسكر التلفون خدت رقم تلفون الشقة اللي قاعد فيها مع رفيقي واتنين شباب غيرنا وخبرتني انها سعيدة بتعرفها عليّ وإنها تتمنى نضل اصحاب.. أنا تمنيت شي تاني بس ما خبرتها فيه.. في أمور مش لازم تخبر فيها البنات.. عيب! اليوم اللي وراه سألت عن عيلتها وعرفت إنه أبوها تاجر كبير يلعب بالمصاري لعب.. من يومها ومن قبل يومها جدك غني وجد جدك كمان.. المسألة ما إلها علاقة بالنفط صدقني.. هدول الناس حظهم قوي يفلق الصخر.. ربك يضل يغرف من خيره ويعطيهم من غير ما يتعبوا حالهم .. ويحرمنا احنا اللي عم نهلك طول النهار ونعمل كل شي صح وفي الأخير ما يطلع معنا فلس.. خلينا من ربنا.. بعد أسبوع اتصلت عليّ.. وقد ايه كنت طاير باتصالها.. ما حكت شي غير انه عطتني عنوان بيتها وطلبت مني أمر عليها لأنه عندها شي بدها تعطيني اياه.. لما مرينا أنا وصاحبي لعندها على المعاد اللي اتفقنا عليه.. أنا واياه طلعنا من السيارة نستناها ورحنا ندخن على الرصيف مقابل البيت.. لأنه البنات ياخدوا وقت طويل ليتحركوا من مكانهم.. لما تكبر وتصير رجال راح تعرف هالشي عن البنات.. بتذكر منيح وقت همس لي رفيقي *اطّلع فوق*.. إمك كانت تشوفنا من شباك غرفتها..وما صدقت عيوني.. شعرها الطويل قصته كاريه متل الكاتبة.. عيونها مكحلين بنفس الطريقة.... أشرت لي ألف من ورا البيت.. من عند الباب الخلفي.. رحت أنا ورفيقي.. دقايق وانفتح الباب.. وطلعت إمك حاملة في إيدها رسالة.. بس لحظتها ما همني شو حاملة قد ما كنت مذهول فيها.. مدت إيدها

وسلمت عليّ وجيت أعرفها على رفيقي بكل فخر.. *أعرفك على* وقطعتني في نص الحكي وقالت *غادة*.. يا الله على جبروت إمك.. حتى اسمها غيرته.. تخيل! من موضي لغادة! مو بس هيك! ضلت ورا أبوها لحتى أقنعته يغيره في السجلات الرسمية.. وغيّره بعد كم شهر.. ما هيّ بنته المدللة وما يرفض لها طلب.. شو بدك كمان.. هيني كشفت لك اسم إمك الحقيقي.. امسح هالدموع عن وجهك حتى أعرف أكمل لك.. أنا من داخلي ضحكت عليها.. بس بعدين شفقت عليها.. هاد عيب إمك.. هاد عيبها.. دايمًا تبالغ في كل شي.. ما تعرف تحط حد لا لعشقها ولا لكراهيتها.. لا لرضاها ولا لزعلها.. تعرف.. تعرف أوقات أقول لحالي يمكن لو ما غيرت اسمها احتمال.. احتمال كان اللي قاعد قدامك هلق يحكي قصته مع إمك هوّ صاحبنا الكاتب مو أنا.. وأكيد يومها ما راح يكون اسمك غسان.. الابن ما فيه يتسمى باسم أبوه إلا في حالة وحدة.. إذا مات أبوه قبل ما يولد.. عمومًا هو مات.. هو وبنت إخته.. قبل ما إنت تولد بخمس سنين.. أما رسالة إمك اللي لحد اليوم مفتكرة إنه قرأها..وما كلف خاطره يرد عليها.. فحرقتها بسيجارة.. وفي الزبالة رميتها».

عينا أبيه تشيحان عنه ويزفر، نوبة سعال تداهمه. يتناول سيجارة أخرى من العلبة ويشعلها لكن لا يعاود الكلام. فحكايته همدت، لفظت آخر أنفاسها الدخانية، وحتى مماته لن يعود ويبعث بها للحياة.

في اليوم التالي تحاشى غسان صالة الجلوس، ما شاهد التلفاز

ولا حتى قضى وقتًا برفقة أمه وأخته. لدى اطمئنان أمه عليه تعذَّر بانشغاله بإعداد الواجبات وتحضير الدروس لامتحانات الأسبوع القادم. وهكذا قضى يومه بأكمله في غرفته، وما إن استيقظ متأهبًا صباح السبت للذهاب إلى المدرسة، حتى فوجئ بوجود أبيه في دشداشة بيضاء جالسًا مستوي الظهر على مائدة الإفطار يقرأ القبس، أما أمه ودانه فما زالتا في غرفتيهما. السيجارة في يد أبيه يهوي رمادها على سطح الطاولة لا في المنفضة. متوجسًا دخل غسان وجلس على الكرسي الأبعد في انتظار أمه، ما التفت حتى إلى أبيه ولا ألقى عليه السلام. لحظاتٌ من الصمت المتوتر ونقل له أبوه الترتيب الجديد دون أن يرفع عينيه عن الجريدة:

«من اليوم وطالع إمك راح تتولى توصيل إختك... أنا راح أتولاك... هالقسمة بيني وبينها ضابطة أكتر... مو هيك؟».

طوى الجريدة ونظر إليه، عيناه محتقنتان، وكأنما استيقظ للتو من كابوس يجثم على صدره، أو قضى ليله يبكي ندمًا على غرضٍ عزيز انكسر وبات تصليحه محال.

وهكذا كان، مذ ذاك السبت تولى والده مهمة التوصيل اليومي للمدرسة، حكاياته البطولية أصابها العجز والوهن وباتت حكايا يائسة، انهزامية، مذلة وموجعة بتفاصيلها الدقيقة مهما تكررت على شفاه أبيه، تروي العقاب الإلهي لكل من اختار هجر داره والفرار بأطفاله مصدقًا وعودًا كاذبة وخطبًا حمقاء رنانة بأن جيوشًا جرارة من دول أخرى ستتحالف وتأتي حاملةً راية الحق وتتولى

تحرير أرضه وإعادة كلِّ مهجر إلى بيته. *مستحيل.. مستحيل غيرك يضحي بحاله ويحرر أرضك.. مستحيل.*

مستحيل استحالة عودة أمه إلى توصيله، ليس بعد إحراجه إياها أمام أبيه. بيد أنه استيقظ كل صباح على أمل وقوع معجزة، وكذا كل رفقائه المنتظرين عند البوابة. توقعها تستغل أي فرصة كي تقله من المدرسة. كل يوم، مع دنو جرس الحصة الأخيرة، تخيلها تقف عند باب البيت بكامل أناقتها وزينتها، مكتفة ذراعيها كما تفعل متى ما نوت فعل شيءٍ رغم أنف الجميع. أبوه يهبط درجات السلم منكس الرأس بعد أن قضى نهاره في السبات، يدنو نحو الباب، وبكل هدوء وحزم ستمد كفها نحوه قائلة *عطني المفاتيح*. يبادلها بنظرة جافية من عينيه الباردتين ولا يتعنى الاستجابة لأمرها، يعمد إلى تجاوزها وفتح الباب إلا أنها ستنقض عليه، ستنتشل المفاتيح من جيب دشداشته، ستفتح الباب ولن تغلقه من خلفها حتى يراها زوجها تحقق مشيئتها أمام ناظريه وستقود السيارة مسرعةً نحو ابنها، وما إن تصل بسيارتها حتى تدهس الطالب الذي يضايقه، وكل أصدقائه سيهللون لها، ستنادي عليه بأعلى صوتها حبيبي *غسان* وسيقف الجميع مشدوهًا، لا أصحابه وحسب، بل حتى معلموه. الكل سيسعد بعودة غادة الأحلام بعد طول غياب، لأن الأمل الذي لأجله انتظر الجميع دهرًا ما خيب ظنهم. ويومها لن يخطو نحوها متثاقلًا بل سيجري نحوها جذلًا، خفق قلبه يسبقه مرفرفًا إليها، سيلقي بجسده في أحضانها، سيطوق خصرها بذراعيه السمينتين ويتشبث بها، وكلاهما سينسى ما جرى وتؤول الأمور إلى سابق عهدها.

غير أنَّ أمه ما حضرت يومًا.

«غسان وقف!».

الرعونة التي حطّت بها فجأة يد عبدالله على كتفه أجبرته على الوقوف وكادت تخل بتوازنه. ورغم يقينه بأن لا نية لدى عبدالله بإيذائه، ارتأى استغلال تلك الزلة للتملص منه وإكمال جولته وحده. استدار إليه ناويًا الصراخ في وجهه، إلا أنَّ عيني عبدالله لا تنظران نحوه، بل إلى حيث يشير، نحو العمارة على الشارع المقابل لهما.

يلتفت غسان، العمارة لا تفرق في شيء عن عمارات حولِّي. تلفت انتباهه مجموعة أولاد يلهون بالكرة، لكن لم تكن تلك المجموعة ما يشير نحوها عبدالله، بل صوب صبي صغير يجلس على الأرض وحيدًا يتكئ بظهره على عمود العمارة الأقرب نحو الرصيف، ركبتاه مضمومتان نحو صدره، قدماه حافيتان، يرتدي شورتًا أبيض وبلوزة زرقاء حمراء بيضاء. يدنو غسان نحو حافة الرصيف ويمعن النظر في الصبي لربما يستدل بنفسه على الأمر المثير للغرابة فيه. أتراها الخدوش الدامية على ركبته؟ أتراه انزواؤه؟ عدم مشاركته تهليلات الأولاد حين سدد أحدهم الكرة بقوة إلى العمود حيث يتكئ؟ أم تراها تمتمته لنفسه والتفاته إلى الوراء كأنما يتوقع من شخص خلف العمود الإجابة عليه. ويرفع الصبي الصغير رأسه كأنما أحس بغسان يتأمله.

أتراهما تلكما العينين الدامعتين

تلك النظرة الحالمة لطفل عالق في متاهة المنام

أم تراها تلك الابتسامة العريضة من القلب تكشف أسنانه الصغيرة بمجرد أن رآه

تلك السرعة التي نهض بها باستعجالٍ أخرق عن الأرض

يجري نحوه مندفعًا كأنما يفر بجلده من صاروخ سيسقط عليه من السماء

قطعه الشارع دون التفاته يمينًا ويسار

ناجيًا بأعجوبة من السيارة التي كادت تدهسه

أم تراه عناقه الحميم بمجرد ارتمائه في حضنه

ذراعاه النحيفتان تطوقان خصره

مبتهجًا يصيح باسمه

صديقي غسان.. صديقي غسان

كلها

كلها علامات حاول أن يستدل بها السبب وراء إشارة عبدالله نحو الصبي.

بيد أنَّه أدركها

أدركها ما إن همس عبدالله في أذنه مبددًا في ذاكرته سحب الدخان:

«أيمن مرعوب».

(٨)

متربعًا على الأرض، حاضنًا إحدى وسائد الكنبة، قضى أيمن صباحه الباكر يشاهد عرضًا مسجلًا لحلقات السنافر. شريط الفيديو وجده موضوعًا على الطاولة بانتظاره، مع ثلاثة أشرطة أخرى، جانب صحن بلاستيك يحمل عروسة لبنة مع خيار، وإلى جانب الصحن علبة عصير.

مشاهدة الحلقات المعادة من السنافر صباح كل خميس بعد تناولهما فطورهما المفضل -عرايس لبنة وخيار- كان طقسهما الأسبوعي. اعتادا الجلوس متربعيْن على الأرض، كلٌّ يتوسد وسادة على حجره، مقابلهما صحن السندويشات وكاسة الشاي وعلبة عصير الكوكتيل. فهكذا تفضل أمه مشاهدة التلفاز متى ما عرض حكاياتها المفضلة: السنافر، غرندايزر، فلونه، حكايات عالمية، رأفت الهجان - *اللي بس شاطر يصاحب البنات الإسرائيليات* ولسبب لم يفهمه ولم يسأل أمه عنه أبدًا فرأفت لم يفكر يومًا بمصاحبة الأولاد - ليالي الحلمية مع الباشا والعمدة و*الشرموطة نازك* بعينيها الفاتنتين

تخرب البيوت وتحطم قلوب الأطفال، مغامرات الرجل الخفي الذي ما يفتأ يتنقل في الزمن ويتقمص شخوصًا من كل الألوان والأجناس على أمل الوصول يومًا إلى نفسه، غير أنه دائمًا ما يفشل، ولا صديق له في الدنيا يعرف حقيقته ويخفف عنه سوى رجل لا يراه أحدٌ سواه. وجيسيكا.. آه جيسيكا.. العانس الذكية التي تكتب الروايات، في كل حلقة تحل الجريمة الغامضة بذكائها وقوة ملاحظتها لأن *بالها فاضي ما تجوزت ولا جابت على قلبها ولاد.*

مع مستهل كل حلقة، تدندن أمه موسيقى السنافر أولًا ثم تعطيه الإشارة بالدخول، إشارتها له ضمة على صدرها مع قبلة على جبينه. ما إن تضغط زر العرض حتى ينتظر إشارتها تلك بفارغ الصبر. عنوان الحلقة يتجلى أمامهما، تقرؤها له وتفسر له الحكاية كأنما تروي له حكاية عن عالميهما. قطة شرشبيل *هلهول* ما هي إلا البسّة السوداء التي تفزعه كلما اقتربت منه أسفل العمارة، وعليه أن يعرف أنها لن تعود وتفزعه متى ما كفَّ عن الخوف منها.

لا تصير جبان متل إمك

إنت رجال

والرجال قلبه قوي

لا يخاف من القطط ولا يرتعب من الناس

أما السنافر، فكل سنفور، وبحيلة سحرية، تحوله أمه إلى شخص موجود فعلًا في حياتهما. أكول جارتها أم سمير التي لا تكف عن أكل الحلو والبذر متى ما زارتها.

يلعن حريشها قد ايه انها مفجوعة

قوي جدها الذي لم يلتقِ به سوى تلك المرة الوحيدة التي سافر بها عمّان فصل الشتاء بصحبتها.

جدي قلبه كبير وشجاع وكله عضلات بس ما في براسه مخ، ضيَّعنا الله يسامحه

مغرور سلفتها التي لا تطيقها.

شايفة حالها على شو ما بعرف، آه لو فلسطين ما راحت، شفت عمتك هاللي رافعة أنفها فوق، والله ما كنت اقبل فيها حتى خادمة عندي

ومفكر.. في البداية سنفور مفكر كان أباه

شوف متله متل أبوك

ذكي ويحب يقرأ كتير وفي يوم، عن قريب ان شاءالله، راح يصير كاتب كبير ومشهور

مو بس سنفور مفكر.. أبوك كمان سنفور وسيم

قبل توقفها في الأشهر الأخيرة عن مشاهدة التلفاز لأن التلفاز حرام *وربها راح يزعل منها إذا ظلت تشوفه*، صححت معلومتها ومعلومته. أبوه في الحقيقة ليس بسنفور مفكر ولا وسيم، بل الساحر شرشبيل، ألقى على نفسه تعويذة حولته إلى سنفور حتى يخدع سنفورة للزواج منه فيدمر حياتها وحياة كل السنافر في القرية.

سأقضي عليكم.. سأقضي عليكم جميعًا ولو كان آخر عملٍ في حياتي.. ستندمووووون

كم كان يضحك على أدائها دور أبيه رغم اعتراضه الخفي على المقارنة المجحفة بحقه، بيد أنَّها فعلًا كانت مضحكة متى ما أدتها. عيناها تحولّان، ترفع ذراعيها في الهواء، أصابعها معقوفة متأهبة للانقضاض عليه، تردد مقولة شرشبيل بصوت أبيه وتهمد عليه تدغدغه، ومثل سنفورٍ صغير يحاول التملص من قبضتها، وما إن يفلت راكضًا من بين ذراعيها حتى تلاحقه حول الطاولة تقهقه كما الأشرار. ومتى ما كفَّت عن اللحاق به، لاهثة، يعدو إلى حضنها ويطوق خصرها بذراعيه فتمطره بالقبلات، في غمرة حبها يرفع رأسه ويسألها مَنْ من السنافر هو، آملًا أن تكذب عليه ولو مرةً واحدة فتجيبه سنفور ذكي، إلا أنَّ ردها دائمًا ما كان يأتيه:

إنت سنفوري الغالي.

كم مرة خططا للهرب معًا نحو الغابة المسحورة بحثًا عن قرية السنافر. خططهما لا تزال كلها مرسومة على كراس أحلامه. لا غابات هنا في الكويت، هي بحر وشمس وصحراء وبيوت وعمارات وسيارات وشوارع. لكن هناك غابة مسحورة في عمَّان، غابة ما عاد أحد من البشر يجرؤ على الاختباء فيها بعد أن أحرق التنين الطائر كل من لجأ إليها في يومٍ أسود اصطبغت فيه الشمس بالدخان والدماء. إن وجدا طريقة للتسلل من شقتهما في الكويت دون أن يعلم شرشبيل باختفائهما، إن تحلى كلاهما بالشجاعة ودخلا

الغابة المسحورة بقلب قوي لا يفزع، فهناك سيجدان القرية الزرقاء ويعيشان معًا في بيت المشروم. غير أنَّ عليه أن يتذكر أن نجاح خطتهما تعتمد على رحيلهما متى ما كان شرشبيل نائمًا فلا يتعرض لهما بالأذى إذا ما أحس بتسللهما. ومتى ما استقر حالهما في بيتهما الجديد لن تبقى حبيسة البيت تطبخ وتكنس وتمسح، بل ستجد لها وظيفة وتعمل بينما يلهو أيمن في حقول الزعررو السنفوري مع أصدقائه السنافر، وكلهم سيعشقون صحبته ويغدو أعز صديق على قلب كل سنفور.

وهناك، في تلك القرية السعيدة المخفية عن عيني الإنسان، لا معنى لسؤال أيمن أمه كل صباح إن كان اليوم عطلة أو دوام، فلا مدارس هناك في قرية السنافر، ولا عطل. الكل يولد عالمًا ما يحتاجه من دروس القراءة والكتابة والمهارات، كلٌّ حسب مهنته المقدرة له مذ كان سنفورًا في بطن المشروم. ومتى ما جاع لن ينتظر أمه تطهو له، سنفور طاهي سيعد له كل ما لذَّ وطاب من الكعك والحلويات وسيلتهمها كلها دون أن يخشى على نفسه أن يستفرغ أو يمرض أو يتبول على نفسه أمام الناس. أما هي فستتعلم المعالجة بالدواء والتعاويذ على يد بابا سنفور، وستساعده كذلك في إدارة شؤون السنافر إلى أن يأتي اليوم الذي تأخذ محله في حكم القرية متى ما مات. وأول قرار ستأخذه بصفتها ماما سنفورة إعداد خطة هجوم كاسح تهزم فيها شرشبيل بضربة قاضية واحدة وتنفيه خارج قلعته في الصحراء، هو وبسّته الغبية، فيعم الأمن والسلام بيوت أهل القرية إلى أبد الآبدين.

تلك كانت خطتها الأصلية قبل أن تبدلها بخطة بحثها عن جنة الله لأنها اكتشفت أن الوصول إليها أسهل بكثير. فالطريق إلى جنة الله مستقيم واضح متى ما التزمت بالخريطة التي تقرؤها كل صلاة وتسمعها في المكالمات الغريبة التي تطول ساعات مع جارتها صاحبة السيارة. فأمه يئست، يئست من انتظار بابا سنفور يرسم لها خريطة الوصول إلى قريتهم في الغابة المسحورة، يئست من انتظاره منحها وصفة تعويذة الإخفاء كي يتسنى لها الهرب هي وابنها من قلعة شرشبيل. هي يئست منه ومن السنافر ومن كل الحكايات. بيد أنَّ أيمن لم ييأس، ظل على إيمانه المطلق بوجود القرية، بخطة أمه المحكمة للوصول إليها. لهذا كافأه بابا سنفور بتسخير أبنائه السنافر لمساعدته على مواصلة حياته في البيت إلى أن ينتهي من إعداد تعويذة الإخفاء، إذ يبدو أن الوصفة ليست بالسهلة أبدًا، ليس مع غياب المكون السري.

وكما أنَّ أمه امرأةٌ مؤمنة -صفةٌ ما تنفك ترددها ولا يفقه من معناها سوى تعنتها- فهو أيضًا مؤمن وقرية السنافر جنته التي سيسعى للوصول إليها والحياة فيها مهما تطلب الأمر، حتى وإن كان يعلم يقينًا، في قلب قلبه، أن الطريق إليها أبدًا لن يكون بالمستقيم ولا الواضح.

حتى صباح أمس الأربعاء، آمن أنه وحده من سينطلق في الرحلة نحو قرية السنافر، فأمه انسحبت وسلكت طريقًا آخر نحو قرية أخرى في السماء. أما أبوه، فبمجرد سماعه للخطة سيصفها

بالغباء ويتأكد يقينًا أن أيمن ليس حقًّا بابنه وأن خطأً فاحشًا بالفعل ارتكبه الملاك الذي أوصله عتبة بيته؛ سيصرخ بتلك الحقيقة في أعلى نوبة غضب يشهدها أهل العمارة قبل أن يشد الرحال بحثًا عن ابنه الحقيقي في كل البلدان. ولن يستصعب أبوه مهمة العثور عليه، إذ يكفيه أن يسأل كل من يصادفه على الطريق عن بيت أذكى ولد موجود في العالم وسينتشله من حضن أبيه المزيف.

ومن يدري، لربما أمه أيضًا ستشد الرحال مع أبيه بحثًا عن ابنهما الحقيقي فتتخلى بذلك عن خطتها البديلة كما تخلت قبلها عن خطتها الأصلية. لكن اليوم، الخميس، استيقظ أيمن على أمل جديد، اليوم لديه صديق.

رفيق يحبه كتير

صديق يعيش وجعَ ألَّا ينتمي إلى البيت الذي ولد فيه *لأنه ولد مو منيح*، صديق يعرف إحساس الجلوس وحيدًا في غرفة صغيرة وضيقة خانقة برائحة البول والقيء في انتظار أبيه ينتشله من ذاك الكرسي البلاستيكي الذي يكاد يهوي من تحته، ينتظر وينتظر بأملٍ يائس لا يرجى منه أمل. صديق يفهم غرابة أن يولد فلسطينيًّا ومع ذلك ما رأى ولن يرى يومًا أرض فلسطين. عذاب الله لهما واحد.. هو هو ذاته.. ولهما أن يتشاركاه ويدخلا جنة الله معًا مرفوعي الرأس يدًا في يد دون أن يعمل أحدهما عملًا واحدًا كي يرضيه.. أكيد.. أكيد غسان سيقتنع بجدوى الرحيل وسيهرب معه، سيأخذ محل أمه في الخطة، بل سيتفوق عليها.

غسان يخشاه الكبار ولا يخاف هو من أحد، لا يخشى صراخهم وسبابهم ولا يبكي إثر ضرباتهم الموجعة. ولن يسمح لأيمن أن يخاف، لا من شرشبيل ولا البسة السودا ولا الساحرة الشريرة ولا أستاذه العربي وقلمه الأحمر ولا من الطالب الشاطر ولا التنين الطائر. كل هؤلاء سيفرون ذعرًا ما إن تقع أعينهم على غسان.. هو.. هو غسان.. غسان من سيحكم قرية السنافر لحظة وصوله.. لا ماما سنفورة ولا شرشبيل.. هو من سيدين له بالمحبة والولاء من كل قلبه حتى اليوم الذي يموتان فيه.. لكن كيف له أن يصارحه بخطته؟ كيف له أن يضمن أن غسان سيصدقه ولن يسخر منه ويفضح أمره أمام الجميع. أو يرتكب الأبشع بحقه، يشفق عليه؟

ساهيًا في أحلامه وخططه، مستغرقًا مشغول البال بما سيقول لبابا سنفور وما سيقول لغسان، تنساب اللبنة وتلطخ بلوزته. ينتبه إلى شريحة الخيار تسقط على حضنه وإذ يلمح اللطخة، مذعورًا يرمي بالعروسة عن يده، فحتمًا بابا سنفور سيغضب إن رأى صورته ملطخة فيتخلى عنه وتنهار خطة هروبه. يثب عن السجاد ويتلفت باحثًا عن علبة المحارم، لا يجدها لا على الطاولة ولا على المناضد، يبحث خلف الأرائك لعله يجد واحدة، غير أنه لا يجد. لا يخطر له الذهاب إلى الحمام حيث ورق الحمام، فورق الحمام لا تمسح به وجوه الناس وملابسهم، كذا نهرته عمته حين أحضر لفافة إليها تمسح بها وجه ابنها بعد أن عجز عن العثور على علبة محارم، وضحك عليه

الجميع، أعلاهم ضحكًا أبوه. ولن يفعلها الآن مع بابا سنفور الذي لا بد يراقبه الآن مع أبنائه السنافر.

يائسًا يقف، يتأمل الرواق الضيق المعتم، لا بد سيجد علبة لدى أمه، في حجرتها. فهناك على المنضدة جانب سريرها توجد علبة محارم، فهي لا تستغني عنها أبدًا. يخطو متمهلًا نحو حجرتها، يسند رأسه إلى بابها ويرهف السمع، غارقة في منامها، وبالتأكيد لن تشعر به إن دخل غرفتها.. ربما.. *يا الله!* كيف فات بابا سنفور إحضار علبة محارم لغرفة الجلوس!

خطته كلها.. جنته.. سعادته مع غسان.. تقف على تحليه اللحظة بالشجاعة.

لا تخاف.. لا تخاف

يسمع غسان يهمسها في قلبه. وفي نفسٍ عميق يمسك بمقبض الباب. يدفع بكل روية، يحبس أنفاسه على صوت صرير المفصل فاضحًا تسلل طفل إلى منام أمه. يتريث للحظة، لا يسمع صوتًا، فيرفع يده عن المقبض وينسل عبر الحيز الضيق. الغرفة معتمة، الستائر مغلقة، الهواء داخلها ثقيلٌ كامد. جسد أمه من رأسها إلى أخمص قدميها مدفونٌ تحت تلة من الأغطية، لا يصله منها سوى أنفاسها العميقة، تعلو وتنخفض. ما إن يدنو خطوة حتى يعرض عقله مشهدًا يجمده في مكانه، ماذا إن لم تكن تلك أمه المدفونة تحت الكومة؟ ماذا لو أنَّ ذئبًا ابتلعها، قابعًا في انتظاره يقترب منه كي يبتلعه هو الآخر؟ أو أنَّ الذئب مندسٌ تحت الكومة غير أنه لم

يبتلع أمه، لأن الخطة تقتضي بابتلاعه هو وحسب، لأن بابا سنفور متواطئٌ مع أمه، كلاهما ينويان الغدر به، لهذا تعمَّد إخفاء علبة المحارم الموجودة في غرفة الجلوس كي ينصب له هذا الفخ، وبذا يضمن ألا يصل إنسان أبدًا قرية السنافر، وتضمن أمه محبة الله لها لأنه حقق وعده وخلصها من ابنها. لكن على بشاعة ما رأى فما همّه إن يكن فخًّا أم لا، فهو عالقٌ في متاهة الظلال وسئم منها، ولا شمس هنا تمسك بيده. فإن يرد الذئب ابتلاعه فليبتلعه، فليبتلعه ويسعد كلا أبويه بالتخلص منه، حتى غسان سيسعد بالتخلص منه. لا.. لا.. غسان لن يسعد أبدًا بفقدانه، سيبكيه، حتمًا سيبكيه العمر كله. يأخذ نفسًا عميقًا ويحبسه، يخزر عينيه باحثًا عن العلبة وسرعان ما يلمح خيالها على الوسادة جانب رأس أمه.

يزفر أنفاسه الحبيسة، يبلع ريقه، ويأخذ الخطوة الأولى نحوها. لا حركة ولا صوت يصدران عنها. يلحق خطوته الأولى بأخرى.. وأخرى. خطوة صغيرة تفصله عن رأس السرير، غير أنه يؤثر الوقوف عند هذا الحاجز الخفي. عيناه على تلة الأغطية، ساقاه متأهبتان للفرار إذا ما كشف الذئب عن نفسه. حذرًا يميل بظهره نحو الرأس، يمد ذراعه اليمنى، بخفة يدخل إصبعيه في الشق منتصف العلبة ويحملها بروية، وإذ بعواءٍ موجع يضغو من أسفل تلة الأغطية يجمد أوصاله، فتفلت العلبة من إصبعيه وتقع، ويتيقن أيمن بلا ذرة شك أن من يختبئ تحت اللحاف لهو حقًّا ذئب، وذئبٌ جريح. يعود الذئب ويعوي. أنين عوائه يثير الشفقة فيه، فكيف له أن يفر الآن من الغرفة متجاهلًا ألمه. ولو كان الذئب يريد الانقضاض عليه لانقض

عليه. لربما تراجع في اللحظة الأخيرة حين أدرك أن صنيعه سيؤلم طفلًا لا ذنب له، ولأنه قرر الانسحاب من الخطة الشريرة عاقبه بابا سنفور ورماه بصاعقة من السماء نفذت في صدره. أفلا يستحق منه الآن الشفقة، ألا يستحق مساعدته ولو بشربة ماء. ومن يدري، لربما هو والذئب سيغدوان صديقين ويجولان العالم معًا، يهجران البحر والصحراء ويبحثان عن أمه الحقيقية التي أنجبته على سفوح قمم جبال الثلج، تنتظره في كوخها الصغير هناك.

متجاهلًا نواقيس الحذر، عقله ينهاه عن الاقتراب أكثر، يقطع أيمن الحاجز الخفي. وها هو يقف تمامًا عند الرأس. تنسل يده في ثنايا الألحفة، يرفعها رويدًا رويدًا، يدس رأسه وتتبدى له عينا الذئب المتورمتان، خطمه الكبير المنتفخ، شفته العليا الدامية. مشفقًا يهمس في العتمة:

«انت منيح؟».

لا جواب.

«لا تخاف.. أنا اسمي أيمن.. وراح اصير رفيقك ونهرب سوا من هون».

ويفتح الذئب عينيه. عيناه محتقنتان دمًا ودمعًا، ترمقانه بأسىً ولؤم. ينقض عليه بمخلبه وفي نشيجٍ خشن يدمدم *بكرهك بكرهك*. مذعورًا ينتشل أيمن ذراعه من مخلب الذئب ويفر من غرفة أمه، مشرعًا الباب خلفه ومفقوء العقل يركض حول الطاولة، لهاث الذئب على عنقه يلاحقه، جلده يقشعر كلما كادت مخالبه الحادة

تنقض عليه. يجري ويجري مطلقًا ساقيه للريح في دائرة لا نهاية لها، يطبق أذنيه بيديه عله يصم موسيقى السنافر وأحاديثهم وتهديدات شرشبيل ومواء هلهول وعواء الذئب، لكن لا فائدة. الكل.. الكل يصيح في رأسه.

يجري

يتعثر

يثب

يفلت بشعرة من قبضة فكي الذئب

وهكذا

هكذا أنفاسه المقطوعة تستحيل طعنات سكين، تسلب صدره الهواء الذي يحتاجه كي يبكي ويصيح، فالجميع تخلى عنه، أمه، أبوه، السنافر، وهو.. هو تخلى عن غسان حين اختار الذئب رفيقًا بديلًا منه. وسيظل يجري في هذه الدائرة الملعونة ومن خلفه الذئب مثل الفتاة ذات الثوب الأحمر ترقص وترقص وترقص بحذائيها الجديدين إلى أن ماتت، حينها فقط كفت ساقاها عن الرقص. وكذا ساقاه، لن تكفا عن الجري إلا لحظة سقوطه ميتًا على الأرض.

أيمن!

أيمن!

لا يصدق أذنيه، صوت بابا سنفور ينادي عليه، يصرخ بصوتٍ واهن مبحوح راجيًا أن يستمع إليه.

من هنا بُنَيَّ!

من هنا!

اهرب من قلعة شرشبيل!

اهرب من قلعة شرشبيل ولا تعد أبدا!

الصوت يأتيه من خلف باب الشقة المفتوح لا من التلفاز، بابا سنفور لم يغدر به، الآن، الآن سيدله على قرية السنافر.

يتعثر

يعاود النهوض بسرعة

ويهرع نحو الباب.

لا يتوقف.

يندفع نازلًا الدرج.

لا يتوقف.

باب بيته من الأعلى يصفق بقوة.

لا يتوقف.

يفر من بوابة قلعة شرشبيل لاهثًا ولا نية له أن يتوقف.

لن يتوقف

أبدًا لن يتوقف

غير أنه في النهاية توقف.

ها الذئب انقض عليه من يساره وأوقعه أرضًا. صياح الأصوات المتزاحمة في عقله يتلاشى، دقات قلبه الضاربة في عظام صدره كما الرجم تخْفت. مخاوفه ما عاد لها معنى.. اسمه واسم أبيه ما عاد لهما معنى. كل ما يراه في خياله تلك الفتاة الراقصة، ساقاها مرفوعتان في الهواء تتباهيان بحذائها الأحمر في السواد، يجبرانها على الرقص والدوران حول نفسها رغم إعيائها.. وها هو سيموت مثلها.. مثلها تمامًا. إلا أنه تنبه إلى قدميه الحافيتين فارتاح، هو الولد الذي قتله الذئب لا الحذاء. ميتةٌ تليق بأطفال فلسطين وحتمًا سيفخر بها أبوه أمام الناس. سينتزع عن جسد ابنه الممزق قميصه الملطخ بالدماء وسيرفعه ويلوح به في الشارع، وسيراه كل أطفال وآباء العالم على نشرات الأخبار.

أنا ابني رجال.. صحيح ولِد غبي.. وعاش غبي... بس مات رجال...

وعلى وقع أهازيج أبيه، غشاوة سوداء تنسدل على عينيه مثلما تنتهي كل الحكايات التي شاهدها مع أمه على التلفاز. وفي الظلمة الدامسة، ها هو يشعر بها، تميل فوقه بردائها الأزرق الطويل، تحتضنه في صدرها الحنون، تلثم برقة كفي يديه ووجهه وساقيه وقدميه، تلثم شفتيه الباردتين، أناملها تنساب كما الماء العذب الدافئ بين أضلعه المتجمدة، ورويدًا رويدًا ترفعه عن الأرض نحوها في السماء. يسمعها تهمس له واعدةً إياه بحمله إلى كوخ الساحرة الشريرة، فهي تنتظرهما وحيدة في كوخها وسيتناولان معها العشاء. بيد أنَّ الذئب يتنبه إليها ويعدو مسرعًا تجاهها،

تلحق به ذئابٌ أخرى. أخيلة الذئاب تزاحم الشمس الخجولة. فتنسل أناملها عن أضلعه ويعود يرتطم بالأرض. الذئب الضخم يجثو منحنيًا فوقه يكاد يلتصق بوجهه، أنفاسه الحارة ورائحة عرقه الزاكمة تخنقانه، بيد أنه يبقي على عينيه مغمضتين في استسلامٍ تام لأنيابه.

لكن ما الذي يفعله الذئب الآن؟ لم يقلبه على ظهره؟ لم يهزه من كتفيه؟ لم يضع يده المتعرقة على جبينه ويربت على خديه؟ وعلام كل تلك الذئاب تعوي حواليه؟

هاد أيمن، الله ياخدك كان لازم تشوت الكرة عليه!

وأنا شو عرفني! أنا كنت رايح أسدد جول على العمود هو اللي ما بعرف من وين طلع لي.

أيمن.. أيمن.. ولى أيمن..

فجأة يتملك السعال أيمن ويجبره على فتح عينيه. لا ذئاب حواليه. لا ذئاب حقيقية. بل حموده وأولاد العمارات المجاورة، كل منهم يوجه إليه سؤالًا دون أن يمنحه الوقت للإجابة عليه.

انت منيح؟

نطلع ننادي إمك وأبوك؟

أبوه مو هون وإمه ما فيها تطلع.

آه صحيح، صراخها عبى البناية البارحة هي والمجنون جوزها.

ماما لما شافت الضرب اللي أكلته على وجهها كانت من رعبتها راح تتصل بالإسعاف والشرطة بس بابا ما خلاها.

بعرف.. إمك اتصلت على ماما.. وماما كانت رايحة تشوفها كمان بس بابا منعها عند الباب من الروحة على بيتهم.

ليش؟

ما بدنا فضايح.. هيك سمعته يقول.

مو عشان الفضايح يا ذكي.. عشان لا يشحطوه الشرطة على الإبعاد ويسفروه على بلده وبعدين يسفروا كل واحد له علاقة فيه.. ما بتعرف انه ناطرين علينا الزلة حتى يطردونا؟

وليش الفلسطيني على وين بدهم يسفروه.. على إسرائيل!

خلاص.. كل واحد فيكم يسكر نيعه.. وانت أيمن.. هيه.. يلله استرجل شوي وقوم.. ما فكش شي!

حموده قائد الأولاد الفلسطينيين في عمارات حولي بلا منازع بعد رحيل كل منافسيه، لذا حتى وإن لم ينتم أيمن إلى دائرة الأولاد الذين يلعب معهم حموده أو حتى يكترث بتبادل كلمة معهم، يظلُّ خاضعًا له ضمن دائرة الأولاد الذين يحكمهم. لذا ما إن تلقّى الأمر حتى رفع ظهره عن الأرض، ورغمًا عنه راح يصيح.

«هلقيت كنت ساكت شو اللي خلاّك تعيط.. يلله قوم روح على بيتكم عيط عند إمك متل ما بدك».

نحيبه يستفحل مع صراخ حموده في وجهه. ليته يعلم أن لو بيده

لما بكى، لما ذرف دمعة واحدة. غير أن حموده خيط صبره قصير، قصير جدًّا، وها هو ينتشله من الأرض ويجره جرًّا وراءه، نحو أبعد عمود من أعمدة العمارة. يدفعه على الأرض ويحدد له بقدمه أربع بلاطات صغيرة.

«تضلك قاعد هون ما تتحركش ولا تطلع صوت.. إن سمعت منك النفس وحياة الله راح أضربك كف يهرّوا أسنانك وأرميك عند أهلك المجانين.. فهمت علي!».

عينا أيمن مسمرتان على البلاط، فورة صياحه تخبو إلى نشيج متقطع الأنفاس، فيعود حموده أدراجه يضرب كفًا بكف نافضًا يديه، يصيح فيهم معلنًا العودة إلى المباراة. يرفع أيمن ركبتيه ويضمهما إلى صدره. الكرة تستأنف تأرجحها بين الأقدام الراكلة، كلما أصابت الهدف تعلو صيحات ابتهاج الرامي وسباب الحارس. الدمع عالقٌ في عينيه، لا يرمي بدمعة منها أرضًا، بل يؤثر تركها تهوي من تلقاء نفسها. قطرات الدم النازّ عن الخدوش على ركبته اليمنى وكوعه الأيمن لا يمسحها، يدعها تيبس وحدها، وتاليًا لن ينفك ينتزعها عن جلده.

من خلف العمود الذي يتكئ عليه، تتناهى إليه أصوات بابا سنفور وأبناؤه يتهامسون. حديثهم يصله غمغمة. يا ترى هل يشعرون بالأسف عليه، أم بالامتنان لفشل مسعاه.

«سامحني بابا سنفور.. أنا حاولت».

عن جد إنك واحد حمار.. شوف الكرة قد راسك..

«أستاهل اللي صار لأني وسخت بلوزتك.. ولأني فكرتك شرير وسودت وجهك قدام ولادك السنافر».

جووووووووووول جوووووووووووووووول

«معليش.. معليش تسامحني هالمرة؟».

الأرجنتين خمسة وألمانيا اتنين!

«هالمرة بس.. وأوعدك إني ما أعملها مرة تانية في حياتي».

أنا بدي اكون أرجنتين هالمرة! ليش دايمًا حاطيني ألمانيا!

لا جواب يأتيه من بابا سنفور، فيدرك أن الوقت حان ليعود من حيث أتى. ليس مكتوبًا له الفرار من هنا، سيبقى مدى الدهر عالقًا مع أبيه وأمه وحموده والأولاد ومعلمه وقلمه الأحمر وروائح بوله وقيئه على مقعده في الباص وتلك العالقة على وسادته وسريره وعلى كل شبر من سجادة غرفته، ولن يجد طريقه أبدًا.. أبدًا.. نحو جنة السنافر.

يائسًا

منكسرًا

يرفع أيمن عينيه

وها هو يتجلى أمامه

يداه في جيبيه.. ينظر باهتمام تجاهه.. يتأمل بقلق حاله

أتاه سيرًا من بعيد فقط كي يطمئن عليه

ينتظره أيمن ينادي عليه

لكن لا.. لن يناديه باسمه، لن يلوح له بيده في الهواء

بل سيبقيها في جيبه

سيظل واقفًا في مكانه ولن يدنو منه خطوة أخرى

لأنَّ أيمن

أيمن ولا أحد غيره عليه أن يقطع المسافة الفاصلة بينهما

وهكذا كان

وثب أيمن عن الأرض

وأطلق ساقيه للريح تجاه غسان

حموده.. حموده الولد رجع جن!

ركض تجاه الشمس الشجاعة التي لن تغيب وتتركه وحيدًا بين الذئاب

ركض تجاه أبيه الذي لن ينكره وتجاه أمه التي ستروي له الحكايات

بالك السياااااارة

يا الله.. يا الله

ركض تجاه جنته التي وعده الله بها دون أن ينتظر منه في المقابل أيَّ عملٍ كان،

جنةٍ لا مخفية في قلب الغابة المسحورة ولا موعودة في عرض السماوات،

بل متجلية أمامه

في عينيه

في كفيه

في قلبه وعلى صدره وبين ذراعيه

في حضنه

في حضنه الذي ارتمى عليه.

(٩)

أول ما استرعى انتباهه الخدوش على ركبة أيمن وكوعه. أراد أن يطمئن عليه. أراد التأكد أن جرحًا لم يصب قدميه الحافيتين. غير أنه لا زال متعلقًا بغسان، متشبثًا به، رافضًا فك ذراعيه عن خصره رغم محاولات غسان تهدئته بالتربيت على رأسه. يلاحظ نظرة الانشداه على وجه جاره فيهمس في أذنه اسم الولد. بالأحرى همس لقبه. فبهذا الاسم وحسب يعرفه، حتى وإن لم يرُق له مناداته به، ولا راق لأبيه الذي نظر إليه شزرًا ما إن سمعه ينطقه.

مذ مغادرتهما ووالده يسير جانب الفلسطيني كتفًا بكتف، لا التفت خلفًا إليه ولا تبادل الحديث معه ولو بكلمة، يكتفي وحسب بابتسامة ترتسم على شفتيه كلما شهد محاولات غسان الفاشلة في التملص من مرافقة ابنه. غير أن عبدالله لم يمانع صمت أبيه، إذ قضى الطريق مسلوب العقل بتلك الدقائق المعدودة التي عاشها في بيت غسان.

كان منتشيًا بلمسة يد آنتي غادة ومستغرقًا في أثرها الدامغ

على جلده، قبل أن يقطع عليه أبوه دابر خيالاته بوكزة على كتفه، مسترعيًا انتباهه إلى ولد صغير يجره صبي أكبر منه حجمًا ويدفع به على الأرض. ما إن رآه عبدالله حتى عرفه، فكل صباح يمر به الباص على العمارة المقابلة لها، ويراه واقفًا وحيدًا ينتظر. سمع الكثير عنه من تعليقات الأولاد. سمع عن أبيه العنيف، عن أمه الفلتانة التي حاولت الهرب ذات ليلة والسفر دون رضاه إلى أهلها في الأردن تحت ستار فوضى الأيام الأخيرة قبل التحرير، كيف تابت إلى ربها توبةً نصوحًا، لكن ليس قبل أن تنال العقاب الشديد من زوجها. حتى أن هناك من يقول إن الولد ليس بغبي رعديد بل مجنون، وأستاذ عاصم منح والده سنة واحدة مراعاةً لظروف الغزو، من بعدها لن تقبل المدرسة بتسجيله وعليه البحث عن مدرسة أخرى تقبل التعامل مع حالته.

يكف أيمن عن الصياح الهستيري باسم غسان، وشيئًا فشيئًا يهدأ. لم يتعامل غسان معه بأي لؤم، بل كان حنونًا وعطوفًا عليه. ما إن هدأ بعض الشيء، حتى أمسك غسان بذراعيه وفكهما عن خصره، جثا على ركبته، ومسح عن عيني أيمن الدموع العالقة فيهما، وابتسم له قائلًا:

«كيفك أيمن معروف؟ كيفه صاحبي اللي اشتقت له كتير من البارحة لليوم؟».

يعود أيمن ويرتمي على صدر غسان، ذراعاه تطوقان عنقه بكل ما فيه من قوة، وكأنما ريحًا عاتية قد تعصف اللحظة وتقتلعه من بين

يديه. لكن لا يصيح باسمه هذه المرة بل يبكي، لا بكاء طفل، بل نحيبًا مفجوعًا، أشبه بنحيب أمه.

«الظاهر أحد أذاه.. أو صار شي في بيتهم».

يحاول غسان برفق فك عنقه من قبضة ذراعي أيمن. شبك أصابعه بكفي الولد وحاول سحبهما بتؤدة. لكن على وقع زعيق الذعر ما إن شدَّهما حتى رفع يديه، والآن حاوط بهما جذع أيمن ونهض به. ساقا أيمن تطوقان الآن خصره.

«الظاهر هيك.. هاد بيته؟».

«إي».

يقطعان الشارع، شلة الأولاد كانت كفت عن اللعب لحظة جرى أيمن، أعينهم المشدوهة ما انزاحت عنهم. وما إن وطئا الرصيف حتى أقبل عليهم الصبي الذي جر أيمن قبل دقائق تعلوه نظرة تحدٍّ واستقواء، كأنما يستنكر دخوله وغسان ساحته دون إذنه.

«أيمن.. أيمن يا حمار عم أحاكيك».

يتشبث أيمن أكثر بغسان، يدفن رأسه أكثر في جوف كتفه وراجفًا ينهت. وقبل أن يتسنى لغسان الصراخ في الولد، يجد عبدالله نفسه يسبقه، ويفعل ما لم يفعله قط في حياته كلها. يدفع بالصبي الوقح من كتفيه ويسقطه أرضًا.

«الحمار أبوك اللي خلّفك سامعني!».

لأول مرة في حياته يدع غضبه المكبوت يفور. ما اكترث بمشاعر

الصبي الذي دفعه وأهان أباه، ولا بمشاعر الأولاد المتجمدين حوله. لم يخطر له حتى احتمال تصاعد الموقف إذا ما رد عليه الصبي الإهانة، أو إذا ما نقل أحد الأولاد ما جرى لأهله واجتمع عليه كل أهل العمارات من فلسطينيين وأردنيين ومصريين وسوريين وانهالوا عليه بالضرب والسباب. فليتكالبوا عليه وسيذيقهم سوء العذاب، سيطيح بهم الواحد تلو الآخر في كومة من عظام، ولن يعتاز في يده مسدسًا ولا سكين، سيحطم أعناقهم بيديه العاريتين، العنق تلو العنق. فليأتوا إليه، فليخرجوا من جحورهم الضيقة التي تنوء بهم وبأطفالهم وسيقتلهم جميعًا، ولن تفي دماؤهم المسفوكة في ساحتهم حقَّ قطرة من دماء أبيه المتخثرة على عتبة بيته.

«أنا ... أنا آسف».

لا، الاعتذار لا يشفي غليله فيركله بقوة على مؤخرته.

«والله.. والله أنا موقصدي شي.. وهاد الولد.. هاد الولد مجنون.. مجنون وأهله مجانين.. شفت.. شفت بعينك كان راح يموت في الشارع لولا ستر ربنا».

يتلعه عبدالله من بلوزته، يجره وراءه نحو نفس العمود في الزاوية ويلقي به أرضًا.

«إن سمعتك تضايقه بكلمة أو حركة راح أَدْبِنِك.. راح أدبنك وأدفنك هنيِ إنت وابوك الحمار!».

«حـ..اضر.. حـ..اضر».

دموع الصبي وحسب تشفي غليله، انبطاحه ذليلًا على مرأىً من صحبه رافعًا كفيه باستسلام يهدئ روع قلبه. يتلفت باحثًا عن غسان فيراه ينتظره متململًا عند باب مدخل العمارة ما يزال يحمل أيمن على صدره، ومن خلفهما يقف أبوه. يشيح بنظره عنهم ويعود يلتفت إلى الصبي المفزوع:

«شقة أيمن في أي طابق؟».

«الثالث.. الثالث على اليسار».

منتشيًا بالقوة التي اكتشفها فيه، يعود ويرفسه مرة أخرى. ينظر حواليه، أعين الأولاد مذعورة، يقرأ فيها حيرتهم القاتلة عمن سيختار منهم حتى تحل نقمته عليه. ليت بيده الوقوف أطول والتلذذ بحرق أعصابهم، لكن لا بد أن ينضم إلى صاحبيه وأبيه. ما إن يدنو من غسان حتى يرى على وجهه أمارات التعب، لكن لا يلمح عليه أمارة خوف ولا فزع كحال أقرانه؛ وما خيب أمله أكثر، لسببٍ يجهله، أنه لم يلمح عليه أمارة انبهار ولا حتى إعجاب.

«منيح اللي سألته للحيوان عن الشقة.. الولد ما عم يردّ عليّ».

يرفع عبدالله عينيه عن غسان نحو أبيه الغاضب من تصرفات ابنه المشينة تجاه أحد إخوته الفلسطينيين. ليته تجرأ وفعلها في حياته، مع أي فلسطيني أغاظه يومًا في مدرسته، وقتها كان سيسعد أكثر برؤية نظرة الخيبة التي يراها الآن.

«اِطلع بالمصعد، أنا أطلع الدرج».

يفتح باب المصعد لغسان، ويضغط على زر الطابق الثالث.

«ألاقيك فوق».

أبوه لم يبقَ معه، بل دخل مع غسان المصعد دون أن يلتفت إليه. خيرًا فعل، فهو ليس في حاجة إلى رفقته الآن. يصعد عبدالله الدرج وحيدًا، بخطىً بطيئة، يداه مدفونتان عميقًا في جيبيه. في طريقه إلى الأعلى تتبدى له حقيقة لم تخطر له من قبل: رائحة عمارات المقيمين هي ذاتها، أيًّا تكون المنطقة وأيًّا تكون جنسية ساكنيها، هي هي ذاتها. رائحة ثقيلة بعبقها، محفورة في شقوق جدران لا تمسها الشمس، رائحة لن تشمها أبدًا في بيوت الكويتيين، أبدًا! لكن لماذا لم يلتقط تلك الرائحة في بيت آنتي غادة رغم وجود صبي وفتاة فلسطينيين يسكنان معها؟ يا ترى هل كانت موجودة في بيتها السابق حيث عاشت آنتي غادة مع زوجها الفلسطيني، وحين مات برصاصة في رأسه تلاشت الرائحة معه؟ هل حين يكبر غسان ويضحو رجلًا ستعود رائحة أبيه تسكنه وتسكن بيت أمه؟

يصل الطابق الثالث ويجد باب الشقة على يساره مفتوحًا، يدق الباب، ومن داخل الرواق المقابل يطل غسان جزعًا كأنما توقع شخصًا آخر، فيزفر مرتاحًا لدى رؤيته ويخبره بصوتٍ منخفض:

«أبوه بره وإمه نايمة.. تعا استنى عالكنبة، شوي وأطلع لك».

يشير له عبدالله أنه سيبقى خارجًا. يلمح غسان يفتح بروية باب غرفةٍ في الرواق المعتم، يطل برأسه أولًا، يدخل ويلحق به أيمن ويغلق خلفها الباب. أبوه بقي خارج الغرفة. يتوقع من أبيه

الآن القدوم نحوه حتى يعاتبه، يلقي عليه أمثولة وطنية أو بيت شعر من قصائد المناضلين التي يهواها وما انفك يرددها، حتى في الغزو، بل حتى أكثر في الغزو، وبعنفوانٍ رجولي، إذ أخيرًا تسنى له أن يجد نفسه بطلها لا قارئها. بيد أنَّ أباه يلتفت إليه للحظة، تعلوه نظرة مشفقة، ويدير له ظهره مبتعدًا في الرواق الضيق إلى أن تلاشى في العتمة. لا بأس، سيعود. ما دام باقيًا مع غسان سيعود.

يتراجع خطوتين ويسند ظهره إلى الحائط جانب الباب. برهة قصيرة وتتناهى إليه خطىً ثقيلة تصعد الدرج، يطل من الدرابزين، يلمح رجلًا في بنطال رمادي وقميص أبيض مبقع بالعرق، قمة رأسه بدأ يتسلل إليها الصلع وإن لم ينل منه بعد. بين كل عدة درجات ينهت، يحمل تحت ذراعه مجموعة ضخمة من الأوراق، إذًا إما هو مدرس أو موجه فلسطيني، وتلك الإضبارة نماذج أسئلة وامتحانات تعود بتاريخها إلى أعوام وأعوام. لكن ما الحاجة إليها هذا العام، فالكل ناجح بقرار حكومي، تلك عيدية التحرير لكل طلبة الكويت، مواطنين ومقيمين! إلا إن كان منهم من لا يزال يهتم بالتنافس على المركز الأول، ولا يعنيه النجاح شيئًا إلا إن عنى هزيمة كل من معه في الفصل.

يصل الرجل مبسط السلم ويتوقف في مكانه، كلٌّ يتفحص الآخر في صمت. لم يكن رجلًا كبيرًا في العمر كما تصور، بل في عمر أبيه، وحتى أصغر. ومن يدري، فربما في أيام مضت كانا صديقين، فمعظم رفاق أبيه فلسطينيون، إن لم يكن جميعهم، وكم تمنى عليه

أبوه أن يحذو حذوه في رفقته لهم، كم تمنى عليه أن يصادق أحدهم طوال سني دراسته في مدرسة النجاح التي ألحقه بها كي ينتمي إليهم وقوميتهم العروبية. لكن لا فائدة.

الصمت يرين عليهما، ورغم ملامح القلق الشديد التي اعترت الرجل فإنه لا يسأله عن سبب وجوده ولا يسأله شيئًا عن باب الشقة المفتوح. يشيح بوجهه عنه ويتناول مجموعة الأوراق من تحت ذراعه. يتصفحها سريعًا، لم تكن بنماذج امتحانات، بل أوراق فولسكوب مدون عليها بخط اليد، بالحبر الأزرق، لا مساحة بيضاء عليها يمكن للعين أن تلتقطها، الكلمة لصيقة الكلمة، السطر لصيق السطر، أما اللون الأحمر المرسوم دوائر حول بعض فقراتها فتصرخ لافتةً النظر إليها. لم تكن تلك الدوائر الوحيدة التي لفتت انتباهه بل كذلك الدوائر الحمراء متناهية الصغر، القاتمة، المكتومة، المتناثرة على كم قميصه الأيمن. يتابع الرجل تصفح أوراقه إلى أن يتوقف عند الصفحة الأخيرة، الكلمة الوحيدة التي استوعبها عبدالله، الوحيدة التي لا تحيط بها كلمة ولا يحدها سطر، تبعد مسافةً بيضاء شاسعة عن أقرب سطر لها من الأعلى.

النهاية

أما من أسفلها على مسافة أصبعين، فسطرٌ قصيرٌ من اسمين، في اليسار، بخطٍّ أزرق كبير، كبيرٍ جدًّا، يحاذيه من أسفله **الكويت - ١٩٩٠**. السطر القصير ذو الاسمين يشطره خطٌّ أحمر وحيد. الرجل يتنبه إلى استراقه النظر ويكاد ينهره غير أنهما فوجئا بأنينٍ

غريب صادر عن الشقة، الإضبارة تفلت من يدي الرجل، لا بد سيهرع فائرًا نحو الشقة.. هي ذي.. هي ذي اللحظة التي سيشتبك بها في عراكٍ عنيف لن يسلم منه أحد، لا هو ولا أهل العمارة.. تمامًا.. تمامًا كما كاد يحصل مع غسان في سوق الخضار لولا أنقذته أمه قبل أن يمسه أحد وهرعت به خارجًا تشده من ساعده على دوي صيحات أم أحمد، كلاهما خالي الوفاض دون غرضٍ من الأغراض المرمية التي تولى عبدالله بنفسه رفعها وإعادة كل غرض إلى الرف الذي ينتمي إليه.. محتفظًا لنفسه بكيس البرتقال.

غير أنَّ توقعاته ذهبت هباء. إذ ها الرجل ينحني ويلم أوراق الإضبارة عن الأرض حاملًا إياها تحت ذراعه من جديد، يدير ظهره ويهبط درجات السلالم على عجل. ما التفت خلفه ولا حتى مرة واحدة. ضحكةٌ خافتة تفلت من عبدالله على ما شهده.

إذ ما بال الآباء اليوم

ما بالهم يديرون ظهورهم لأبنائهم

ما بالهم يشيح الواحد منهم عينيه عن عيني ابنه

يتقاعس عن إنقاذ ابنه

ابنه من يحمل اسمه

مَنْ عروقه يسري فيها دمه وشذرات ذاكرته

مَنْ يداه الصغيرتان حطمتا أماني أبيه

ولمّا يزل

يخيّب كل أملٍ ارتجاه يومًا منه.

(١٠)

دقة، دقتان. لا رد. الألم في ضلوعه ورأسه ما عاد محتملًا. والولد يشتد التصاقًا به مع كل نفسٍ يتنهده. وأينه عبدالله؟ أين الراعي الذي أعطى وعده البار لآنتي غادة برعاية خروفها الضال وإعادته سالمًا إلى حضنها؟ حمله بين ذراعيه إن تطلب الأمر؟ على مرأى اعتدائه على الصبي اطمأن غسان أن صاحبه بشر وليس بالملاك الذي ادّعاه البارحة في الباص والمستشفى وصباح اليوم في بيته. فالملائكة لا ترفس الأولاد ولا تهين آباءهم ولا تعطي وعودًا كاذبة للأمهات برعاية أبنائهن. ولربما هو صدقًا ملاك، فحتى الملائكة لها أساليبها الملتوية في إلحاق الأذى. فليكن ما يكن، ملاكًا أم إنسان، ما عاد غسان قادرًا على انتظاره أكثر، ما عاد قادرًا على الوقوف أكثر.

«أيمن.. أيمن.. في حدا جوه بيتكم؟».

لا يجيبه، بل يدفن أنفه في عنقه. فيعود ويسأله، يربت برفق على رأسه:

«أيمن.. صحيح أنا رفيقك بس أنا واحد غريب، إنت اللي لازم تفتح باب بيتك بنفسك، إنت رجال وتعرف هالشي».

نشيج همهمة يتناهى إليه:

«أنا رجال؟».

كيف له أن يجيب على السؤال بصدق دون أن يتحايل عليه، كيف له أن يشرح لصاحبه الصغير أن الرجولة هي في فعل ما يعجز عن فعله الرِّجال.

«آه.. آه أيمن إنت رجّال.. ما حدا يقطع الشارع متل ما قطعته لتجي عندي إلا إذا كان رجال».

هل أقنعته الإجابة؟ هل اقتنع الولد أن حماقته التي كادت تودي بحياته هي دليل رجولته؟ يبدو أنه اقتنع، فها ذراعاه الخانقتان تخففان من قبضتيهما. وفي لحظة ينسل الصبي عن جسده مثلما تنسل سمكةٌ ملساء من بين أصابعه.

يقف. يستعيد توازنه. ومترددًا يمسك أيمن بمقبض الباب. غير أنه يلتفت إليه وكأنما أراد أن يخبره بشيء، لكنه يتراجع، فيضع غسان يده على كتفه:

«لا تخاف.. أنا معك».

«توعدني ما راح تتركني وتروح؟».

أمام عينيه المتوسلتين، لم يساور غسان أوهى إحساس بالذنب في قطع وعد لا يعني له أي شيء.

«أوعدك».

يدفع أيمن بالباب على مهل، ويدخل غسان. يلفت نظره الكراسي الملقاة على الأرض حول مائدة الطعام في الجهة اليسرى من الشقة. يمضي نحو غرفة الجلوس جهة اليمين ويجلس على أقرب كنبة تاركًا أيمن واقفًا مكانه على العتبة. شبه دوار يرغمه على التقاط نفس عميق ومسح وجهه بكفيه، وفي ثوان يستعيد كامل وعيه. يتأمل المكان، على المنضدة الوسطى أشرطة فيديو، على السجاد صحن بلاستيك فارغ وعلبة عصير وعروسة نصف مأكولة ومرمية، أما التلفاز فيعرض مسلسل السنافر. كم يمقت تلك المخلوقات المزعجة. فينهض دون تردد ويغلق التلفاز.

واقفًا يتلفت حوله، أدرك أنها المرة الأولى في حياته يدخل بها شقة. فكل أصدقاء طفولته كويتيون، وبيوتهم لا تختلف كثيرًا عن بيته، القديم والجديد، بالطبع منهم من يسكن بيتًا أصغر من بيته، لكن بالتأكيد ليس بهذا الصغر. فكل شيء هنا يبدو ضيقًا، غرفة نومه أكبر من غرفة جلوسهم، غرفة الجلوس أكبر من مساحة شقتهم، سقف بيتهم أعلى بكثير من سقفهم، وينتابه إحساسٌ مفاجئ بالاختناق وكأنما الجدران حوله ستطبق عليه بأي لحظة. إذًا هكذا يعيش الفلسطيني الحقيقي! هذا ما كان يتحدث عنه أبوه في حكاياته عن صباه في المخيمات، مأساة الانتقال من وسع الأرض إلى ضيق علبة حذاء. يا للعجب، صدق أبوه، الحياة في هذه العلبة مأساة، مأساة!

«في حدا معك هون؟».

واقفًا ما يزال على العتبة، يشير أيمن نحو الرواق.

«أبوك؟».

يهز أيمن رأسه.

«إمك؟».

يومئ.. إيماءة من ليس موقنًا من إجابته.

«تعال.. فرجيني غرفتك».

يظل أيمن على جموده، فيسير غسان نحوه ويمسك بيده، ودون أن ينتظر منه ردًّا يجبره على المضي معه، فلن يطيق تفاهة مسايرته المخبول دقيقة أخرى. يقفان عند أول الرواق، هناك بابان مغلقان: بابٌ على يمينه وآخر على يساره، وبابٌ ثالث قبالته نهاية الممر.

«أي غرفة غرفتك؟».

يشير له أيمن صوب الغرفة اليمنى فيتجهان إليها. رائحة منظف تغمره حدَّ الدوّار، وما إن يبلغ باب غرفة أيمن حتى يشمها من سطح الباب. يأخذ خطوة أبعد، وها هو يراها، على الحافة، تنزع عنها غمام العتمة وتنجلي له، على المفصل الأوسط، رذاذ دم، ليس بالكثير، لكن ما يكفي كي يقف جامدًا بينما رائحتها تنسل من تحت غطاء شذى المنظف.

أيا ترى فعلها أخيرًا؟ هل قتل الأبُ الأمَّ على عتبة باب ابنهما؟

أتراه قتلها بطلقة واحدة من مسدسه في رأسها أم طعن قلبها ألف مرة بسكين حاد؟ إن فتح الباب هل سيجد جثتها مرمية في الداخل على السجاد غارقة في دمائها مثل جيفة حيوان، أم سيجد جثمانها مسجى بوقار على سرير ابنها بأمان؟

القاتل! القاتل عاد حتى يجهز على ابنه!

وجلًا يلتفت غسان نحو الباب لكن لم يكن القاتل بل الراعي. أخيرًا شرَّف وأتى يطمئن على شاتيه الضالتين، والراعي لا يود دخول الحظيرة مفضلًا الانتظار خارجها. خير له. يفتح غسان الباب على مهل، يطل برأسه أولًا ويلقي نظرة خاطفة على الغرفة، رائحة المنظف نفاذة لكن لا جثة هنا. فيدخل ويسحب أيمن معه ويغلق الباب خلفهما.

على خلاف غرفته الفوضوية في بيته الكبير، غرفة أيمن جد مرتبة. لا أثر فيها لفوضى الأطفال، لا كرة قدم لا رجال آليين لا سيارات متحركة لا دفاتر وأوراق وأقلام وكتب مبعثرة على المكتب، فلا مكتب أصلًا في غرفة أيمن. حقيبته المدرسية متكئة وحسب على درفة الخزانة. لا ملابس مرمية على الأرض، المشجب في الزاوية لا ملابس معلقة عليه، قميصٌ أبيض أكبر من مقاس أيمن مفرودٌ على ظهر الكرسي جانب السرير.

«نضيف!».

لم يعِ غسان مقصد أيمن، أتراه انتبه إلى ما يجول في باله عن نظافة الغرفة، أتراه يصف نفسه؟

«ما خليت ماما تغسله حتى لا ترميه.. هي دايمًا ترمي أواعي الشحاده.. بس.. لأ.. مو قصدي انه قميصك أواعي شحاده.. القميص.. القميص كتير نضيف.. وما تركته يتوسخ بأي شي.. بأي شي حتى فيني..».

علامَ اهتمام الولد الزائد بالقميص، أمه اشترت له ستة قمصان بيضاء، خمسة على عدد أيام الأسبوع والسادس احتياط، وبالتأكيد لن يفتقد قميصه هذا، فالقميص ليس نضيف كما يدَّعي، أو يتخيل.

«شكرًا إنك حافظت عليه نضيف.. خليه عندك.. هديتي إلك.. وهلق خليني أساعدك تغير أواعيك حتى نطلع من هون... أحسن ما تقعد لحالك... وين بوطك؟».

تلك الابتسامة مرة أخرى! غريبٌ أمر الولد كيف تتأرجح عيناه بين قمتي الرعب والجذل في لحظة واحدة. الولد الذي كان منهارًا ملتصقًا بصدره ها هو يجري بكل اندفاع نحو خزانته، يفتح الجارور السفلي حيث أحذيته وجواربه مرتبة، يلتفت إليه متحمسًا يسأله:

«أي واحد فيهم غسان.. أي بوط فيهم ألبس؟».

إن ترك الأمر له سيطول بقاؤهما هنا، وقد يعود القاتل أية لحظة، ويكتشف الصبي أن أمه لن تعود تنظف ملابسه وترمي أواعي الشحاده وتحافظ على ترتيب غرفته ونظافتها كأنما الغرفة غرفة مسنٍّ يحتضر في مستشفى لا غرفة ولد. يلحق به صوب الخزانة ويتناول من الجارور حذاءً رياضيًّا أبيض وجوربًا أزرق. يفتح دفتي

الخزانة، يفاجأ بوجود هذا الكم من الملابس والغيارات الداخلية، كمية تكفي ثلاثة أولاد. يلقي نظرة سريعة على الصبي، أيختار له ملابس بيت تتلاءم مع ملابس الراعي، أم ملابس أنيقة تتلاءم معه هو؟ ينقب في الملابس المعلقة واحدة تلو الأخرى إلى أن يجد ضالته، يتناول بنطال جينز ويناوله إياه. وبعد سلسلة من بلوزات السنافر أخيرًا يجد بلوزة مرسوم عليها جونكر، فليكن، رجل آلي تنتهي مغامرته بالموت فداءً لكوكب لا ينتمي إليه أصلًا يتفوق بأميال على أي سنفور تافه.

يتناولها ويصفق دفتي الخزانة.

«بدك تروح الحمام بالأول؟».

«لأ.. أنا حممت حالي الصبح وخلصت».

«عن جد! والله شاطر، أنا ما بدأت أحمم حالي إلا لما صار عمري عشرة».

سيسايره الآن، لكن سيحرص أن يذهب به إلى الحمام قبل خروجهما، فآخر ما يرغب فيه التعامل مع ولد يتبول على نفسه علنًا. يتناول من أيمن البنطال ويجثو على ركبتيه، يمسك بأيمن من ذراعه ويدنيه نحوه، يخلع عنه بلوزته الملطخة بالزيت واللبنة ويرميها دون اكتراث على الأرض، وإذ به يلمح القلق في عيني الولد ما إن رماها.

«شكلك تحب السنافر».

«آه أكيد.. السنافر أصدقائي.. كتير أوقات يساعدوني.. إذا عرفتهم غسان راح تحبهم كتير».

«ما في داعي.. أنا بعرفهم منيح».

السنافر! ما هي قوة السنافر الخارقة سوى الاختباء في قريتهم، يحصدون التوت والزعرور في انتظار شرشبيل يعكر عليهم صفو حياتهم. مع ذلك، يقيناً لن يصارح أيمن برأيه هذا، فعلى ما يبدو هو يؤمن حقًّا بوجودهم، مثله مثل طفل لم يدخل بعد الروضة.

«خبرني أيمن.. قد ايه عمرك؟».

«عمري ثمانية.. عشرة عشرة راح أصير تسعة».

«أوووه عن جد.. والله مو بعيد.. شهر بس.. منيح اللي قلت لي حتى أجهز هديتك».

رعشةٌ تسري في جسد أيمن ويحس بها غسان لدى نزعه البلوزة عنه، وكأنما أهداه هديته اللحظة. يلبسه بلوزة جونكر، وما إن يخرج رأسه، وبينما يدخل ذراعيه في الكمين يسأله أيمن متحمسًا:

«وإنت قد ايه عمرك غسان؟».

«عمري أربعتش».

«طيب وإيمتى عيد ميلادك.. حتى أجهز لك هديتك من هلق!».

«راح نتأخر على عبدالله .. خلينا نستعجل».

يدس غسان إصبعيه خلف حاشية خصر السروال الداخلي دون قصد، يفك زر الشورت، ولأنه متعجل يخلع عنه بخشونة الشورت والسروال دفعةً واحدة ساهيًا عن فتح السحاب. أنينٌ عالٍ وحاد يأخذه على حين غرة، غير أنَّ ما يجفل عليه حقًّا هو ما يراه. الجلد أعلى باطن فخذيه ملتهب، بثورٌ أشبه بالفقاقيع البيضاء بعضها ينز عنها صفارٌ متقرح، كأنما جلده يكاد ينسلخ عن لحمه، وتلك الآثار ليست حتى على باطن فخذيه فحسب، بل يراها على عضوه.

«في.. في شي غسان؟».

على مرآه شابكًا ذراعيه على صدره، لا شيء سوى الخزي في العينين العسليتين المنكسرتين، يميل غسان ويلثم في قبل رقيقة باطن فخذه الأيمن، وأخرى أرقّ على باطن فخذه الأيسر، وما إن يدنو فمه للأعلى حتى يعود مرتعدًا إلى رشده.

«آسف.. مو قصدي».

«عادي.. عادي غسان.. احنا أصحاب ورجال متل بعض!».

ورغمًا عنه يضحك، لا ضحكة استهزاء، بل إعجاب بهذا الولد المتأرجح في الهواء كما البهلوان الطائر بين حبلي السعادة والأسى، بلا شبكة أمان أسفله. كيف لقلبه أن يحتمل العيش هكذا! لا عجب أنَّ عقله لا يواكبه، لا عجب ينوء وهنًا تحت تلك الأرجحات التي لا تنتهي إلا بموت صاحبها في سقوط مدوٍّ.

«في عندك كريم لأدهن رجليك؟».

«ما في داعي.. أنا دهنت حالي الصبح بعد ما تحممت.. أنا كبير وبعرف أعمل كل شي لحالي».

فخورًا يومئ وبرفق يكمل خلع الشورت عنه.

«صحيح إنت كبير.. وذكي كمان.. تعرف أيمن.. لو كنت انت سنفور.. أكيد كنت راح تكون سنفور ذكي».

ما كاد غسان ينهي جملته حتى ارتمى أيمن عليه.

«بحبك غسان.. بحبك كتير».

يطوقه غسان بذراعيه ويضمه أكثر إلى صدره يقبل عنقه وخصل شعره. دفءٌ يفور في صدره يباغته، يخشاه، فيفك أيمن عن عناقه.

للحظة خشي تضايق أيمن من تقبيله إياه، لكن لا يرى في عينيه سوى الحب:

«تعرف شو، الشمس اليوم قوية على بنطلون الجينز، خليني ألبسك شورت تاني، أخف عليك». فينهض ويتناول من الخزانة شورتًا قطنيًا آخر، رمادي، يجثو أمامه من جديد ويلبسه بروية السروال الداخلي ومن ثم الشورت، حريصًا أشد الحرص ألا يتسبب له بأي إزعاج أو ألم.

«تعرف انه بابا اشترى لي البلوزة هاي».

«لأنه أبوك بيفهم.. بس خبره مرة تانية يشتري لك بلوزة عليها غرندايزر».

يضحك أيمن لسبب ما، لكن لم يمانع ضحكه، بل وجد نفسه سعيدًا بسعادة الولد. أخيرًا يلبسه فردتي الجورب وفردتي الحذاء. ينهض عن الأرض ممسكًا بيد أيمن، ولدى مغادرتهما الغرفة يسأله:

«بدك تروح الحمام بالأول؟».

لم يتردد أيمن بالإجابة:

«آه أحسن».

يترك أيمن يده ويركض نحو الحمام نهاية الممر. واقفًا في انتظاره يتناهى إليه صوتٌ من داخل الغرفة المقابلة، أشبه بالعويل المكتوم. إذًا هي لم تمت بعد، لا تزال حية تتنفس. لكن ما الفرق؟

إن يكونا على بعد خطوة

أو يفصل بينهما طابق

هو الوضع ذاته

لا فرق

لا فرق.

(١١)

هو من ينبغي به أن يغلق باب بيته، هو ولا أحد غيره، هكذا علمه غسان. ما إن يعد من الحمام ويمسك بيده، حتى يعرف كم غسان فخورٌ به من قوة قبضته. يجد عبدالله في انتظارهما، لا يقول لهما شيئًا، بل يكتفي بالابتسام ويفتح لهما باب المصعد. غسان يرفع يده الأخرى معترضًا:

«خلينا ننزل الدرج أحسن».

هو وغسان ينزلان السلالم وعبدالله يلحق بهما. لدى وصولهم الساحة لا يجد أحدًا. هل انتهت المباراة بهذه السرعة؟ هل ضاعت الكرة ولا أحد يود البحث عنها واسترجاعها؟

«جوعان؟».

يومئ رأسه بالإيجاب. مذ زمن طويل لم يشعر بجوعٍ كهذا، بشهية عارمة لتناول أي طعام.

«أنا وغسان رايحين الجمعية، تعال معانا».

لم يشعر بالخوف من تربيت عبدالله على كتفه، بل بالأمان. ما تحادثا قط، إلا أنه اعتاد رؤيته مرتين كل يوم في الباص، ومن بين كل الأولاد هو الوحيد الذي لم يضحك يومًا عليه ولم يبدِ قرفه. بينهما، يسير واثق الخطى، يده اليسرى تمسك بيد غسان. يرفع رأسه إلى الأعلى، لا وجود لسحب سوداء، إلا أنه لا يزال يشعر بها، لن تخدعه بتواريها عن الأنظار.

فمذ ذاك اليوم الذي احترقت فيه السماء أمه ما عادت تحبه، كما لو أنه هو من أحرقها بيديه. لكن لا بد أن التنين حارس الغابة المسحورة من أحرق السماء يومها، فأيمن أفشى عن غير عمد بخطة أمه الهروب من قلعة شرشبيل. كانت حقيبتهما معدة، اتفقت مع قريب لها كي يقلهما بسيارته عبر الحدود. كل ما كان على أيمن فعله ألا يخبر أحدًا، وهو ما كان سيخبر مخلوقًا على الإطلاق. لكن حموده، حموده أسرَّ إليه بأن متى ما دخل جيش التحالف الكويت، متى ما انتصر بوش على صدام، فكل فلسطيني سيقتل، الكل، لا فرق بين من تعاون مع العراق ومن بقيَ وفيًّا للكويت. الذكي من يهرب قبل أن يفتك به الرصاص ويُلقى بجسده على أكوام الجثث في ساحات العمارات. فقد فعلها اليهود من قبل وفرَّ الفلسطينيون، ومن بعد اليهود الأردنيون وفرَّ الفلسطينيون، ومن بعدهم اللبنانيون وفرَّ الفلسطينيون، وها قد أتى الدور على الكويتيين، ولا بد أن يفرَّ الفلسطينيون. فكيف له من بعد سماعه كل قصص القتل والفرار أن يترك أباه خلفه بعد أن عرف بما سيجري، كان لزامًا عليه أن يخبر أباه بخطة أمه كي يهرب معهما، ومتى ما اقترب الثلاثة من الغابة

المسحورة، يفترق هو وأمه عنه، ما كان ليراه مرة أخرى لكن لا بأس، لأنه سيحيا مطمئنًا إلى أن أباه حي يرزق يؤلف كتبه في قرية أخرى، وليس جثةً هامدة في ساحة العمارة مرمية في كومة واحدة مع جثة حموده. هو لم يخطئ.. لا.. لم يخطئ في إخبار أبيه، فها هو غسان، ألم يقتل الكويتيون أباه الفلسطيني برصاصة في رأسه؟ ليته كان يعرف غسان من قبل، لكان شاركه تحذير حموده، ولتمكن يومها من الفرار بأبيه.

لم يطل بهم المسير، فالجمعية قريبة من عمارته. على بعد ثلاثة شوارع. ما إن يدخلوها حتى يترك غسان يده ويحمل سلة المشتريات الصغيرة ويمضون مباشرةً نحو ممر الشوكولا والشيبس والمصاص.

«شنو ودّك تاكل؟».

لم يدرِ كيف يجيب على عبدالله، فكأنما أباه دخل رأسه لحظتها وراح يزعق به: *الفلسطيني ما يمد إيده لحدا! كرامتنا ما نبيعها بالدنيا كلها!*

«ترى العزومة على صاحبنا».

ويلكم عبدالله ساعد غسان مشاكسًا ويرد غسان اللكمة بمثلها، قبل أن يتناول من جيبه ورقة نقدية ويلوح بها في وجه عبدالله:

«احنا الفلسطينية أهل كرامة. نعزم.. ما ننعزم».

إذًا لا مشكلة! هو مع غسان، المال في يده مال فلسطيني، وهما من يعزمان الكويتي.

«تعرف أيمن.. بخاطري آكل شيبس.. أي نوع ما يفرق.. بدك شيبس معي ولا بدك شوكولا؟ شو رأيك عبدالله تاكل شيبس معنا؟ طبعًا أنا وأيمن كل واحد فينا يكفيه كيس.. انت ما شاءالله بدك عشرة لتشبع!».

«عن الطنازة.. ما تشوف روحك هيكل عظمي متحرك!».

«أنا بدي شيبس الوجوه الضاحكة!».

يقاطعهما في منتهى الحماسة، فهو الشيبس المفضل لدى أمه ولديه. فقد اعتادا كل مرة تصحبه برفقتها إلى الجمعية على تناول كيسٍ منها، تفتحه ويتشاركانه معًا إلى أن ينتهيا من جولة شرائهما.

«أنا وعبدالله معك.. روح جيب تلات اكياس وحطهم في السلة».

جرى أيمن نهاية الممر حيث رفوف أكياس الشيبس، من خلفه صوت عبدالله ينادي عليه *خلهم خمسة!* يقف يتأمل الرفوف، لأول وهلة لا يعثر على شيبس الوجوه الضاحكة حيث مكانه المعتاد بين المونشوز والبفك، لكن سرعان ما يجد ضالته. يتناول خمسة أكياس يضمها إلى صدره ويعود جريًا إلى غسان ويضعها كلها في السلة التي تركها على الأرض.

«مادري عنكم .. بس أنا حيل جوعان».

يتناول عبدالله كيسًا ويفتحه، يمده أولًا نحو أيمن، ثم يمده نحو غسان فيلتقط منه وجهًا واحدًا وحسب.

«خذ أكثر.. أحسن ما تدوخ».

مع إصرار عبدالله وإبقائه يده ممدودة، يتناول غسان عدة وجوه يودعها كفه، ومتلكئًا يأكل الواحدة تلو الأخرى. عبدالله يتناول حفنة وجوه من الكيس ويأكلها في قضمة واحدة. غسان ينخر ضاحكًا على صوت جرشها، فيجرشها عبدالله بصوتٍ أعلى. نفد الكيس الأول ورماه في السلة. فتح الكيس الثاني وأعاد الكرَّة. هذه المرة امتزج أكلهم الشيبس بتبادل الحديث. بدأه عبدالله بسؤاله غسان عن مصارعه المفضل، هكذا دون مقدمات، فيجيبه غسان:

«أكيد هوغن».

«وأنا كمان!» هتف أيمن متحمسًا.

«هوغن زين.. بس وايد يمثل.. أنا أشجع بولدوغ.. بولدوغ قوي».

«هو قوي.. بس مو قوي كتير.. هلق إذا حطيت بولدوغ وهوغن ضد بعض أكيد هوغن راح يفوز.. مو هيك أيمن؟».

«أكيد هوغن راح يفوز.. راح يفوز على كل المصارعين في العالم!».

«شفت.. أنا وأيمن غلبناك».

«أيمن لا يقص هذا عليك.. اسمعني أنا.. أنا أقول لك بولدوغ راح يفوز على هوغن».

«لا لاخلاص.. أيمن قال كلمته وما راح يغيرها».

«انت خايف يقتنع بكلامي.. لأنه كلامي صح».

الثلاثة يتشاركون كيس الشيبس معًا في الرواق غير مكترثين بالمارة، كل من عبدالله وغسان يحاول إقناعه بمن هو المصارع الأقوى. وجوده معهما شعورٌ لم يألفه أيمن من قبل، الوقوف ضمن مجموعة أصدقاء.

ففي ساحة المدرسة اعتاد الجلوس على الرصيف قبالة باب فصله، إلى جانبه علبة غداء السنافر، فيها علبة عصير وشطيرة جبنة وخيار، أو لبنة وخيار. يتناول شطيرته ويشاهد ما يجري على الساحة أمامه كمن يجلس يشاهد التلفاز، عالمٌ بأكمله تدور حكاياته أمام عينيه، لكن لا دخل له بها، لا تأثير له على مجريات أحداثها. لكنه يعرفها جيدًا، يحفظها بكل تفاصيلها الدقيقة: من صاحب من، أي المجموعات المشاغبة وأيها المسالمة، أي مجموعة تتشارك اللهو والصياح، وأيها تتشارك الدراسة وحل الواجبات، حتى أن له أن يحزر أي المجموعتين ستغلب إن دخلتا فجأةً في عراك، ودائمًا ما يصيب تخمينه. أسماؤهم، وجوههم، قصصهم مع معلميهم وأهاليهم وأولاد عماراتهم، كلها تصل إليه، تصل أذنيه نتفًا لدى مرور المجموعة على الرصيف الجالس عليه، لكنه اكتشف أن بإمكانه معرفة النتف التي لم يسمعها من القصة: عقله يتولى رتق الحكاية الممزقة فتكتمل لديه. ومتى ما اكتملت تترسخ الحكاية محبوكة بإتقان في ذهنه حدًّا لن يعود باستطاعته معرفة أي الأجزاء سمعها حقًّا بأذنيه وأيها رواها له عقله.

«أيمن جيب لي كيس مصاص».

«أي نوع بدك؟».

«مصاص قلوب.. اختار لي أكبر كيس فيك تلاقيه وجيبه».

رف المصاص لم يكن بعيدًا عنه، خلفه على بعد ثلاث خطوات. يتأمل الأكياس، يتناول كيسًا حجمه وسط ويرفعه لغسان كي يراه.

«جرب دور كمان، شوف إذا في أكبر من هيك».

إذاً هو مصر على مسألة الحجم. ينقب في الرف ويجد كيسًا أكبر، ويرفعه بكلتا يديه فوق رأسه، ويشير غسان بإبهامه موافقًا. يناوله الكيس، فيضحك غسان ويتوجه بالحديث نحو عبدالله:

«شو رأيك نشتري كيس هالمصاص لإختي وأرميه في وجهها».

«ماله داعي، ما كان قصدها شي».

«ما كان قصدها شي! انت عندك اخوة بنات؟».

«لا».

«أيمن؟».

«لا أنا لحالي».

«أحسن لك. ربنا يحبكم انتوا الاتنين، لأنه لو كان عندك أخت متل اللي عندي كنت راح تفهمني، وكنت راح ترمي هالسلة هاي كلها بوجهها، وبدل كيس المصاص عشرة! صدقني ما فيك تفهم على النسوان أبدًا..يا زلمة إمك.. إمك ما فيك تفهم عليها.. كلهم مجانين».

«ما أدري».

الضيق في تمتمة عبدالله لا يفوت أيمن، ولا بد غسان لاحظه هو الآخر، غير أنه يظل على موضوع النسوان ولا يحيد عنه:

«صدقني، النسوان كلهم هيك، يعرفوا كيف يجرحوا قلبك بنظرة.. بكلمة.. يطيروا عقلك من راسك ويخلوك كل يوم تفكر إما تقتلهم.. أو تقتل حالك بس حتى ترتاح من وجع قلبك معهم».

«راح تقتل حالك!».

يسأله مذعورًا، ولا يداري روعه مما سمع، لأن الأمر عظيمٌ جلل. فغسان فلسطيني، ألا يدري أنَّ الشرط الوحيد لدخوله الجنة مهما فعل هو ألا يقتل نفسه. ألم يخبره أبوه بتلك الحقيقة؟ أم تراه مات ناسيًا أن يورثها ابنه.

«ما عليك منه.. غسان يمزح.. أصلًا حرام الواحد يقتل نفسه والا يروح النار، الله ما يرضى بهالشي».

ويرمق عبدالله غسان بنظرة حازمة، يسحب الآخر على إثرها كلامه في امتعاض:

«لا تزعل أيمن.. ما كان قصدي.. أنا وعبدالله كنا نمزح معك، أنا أحب إختي كتير فوق ما تتصور، أصلًا هاد الكيس هو إلك مو إلها، بس كنت حاب أعرف بالأول إذا انت تخاف عليّ أروح *النار* والا لأ».

احتار لما سمعه، إلا أنه تذكر مشاهداته في ساحة المدرسة.

تلك الصيحة *ليش زعل أنا كنت عم بمزح* كلما عصف أحدهم خارج دائرة أصدقائه غاضبًا واحتل ركنًا يقف فيه وحيدًا في انتظار اعتذار، إلا أن لا اعتذار يصله، الدائرة إما تواصل الاستهزاء منه، وإما تتجاهله. وحتى لا يكتشف غسان وعبدالله أن هذه المرة الأولى له في دائرة أصدقاء، وحتى لا يعصف خارجها غاضبًا فيستمرا هما في الاستهزاء منه، أو الأشد إيلامًا، تجاهله، يساير غسان كما لو أنَّ تهديده بقتل نفسه لا يتعدى كونه مزحة، مزحة سمجة مثل أي مزحة لا تثير الضحك يتفوه بها سنفور مزوح:

«آه.. أنا كنت بعرف انها مزحة».

يلقي غسان بكيس المصاص في السلة ويربت على وجنته ويمسد عقص شعره. علامات الارتياح على وجه غسان تطمئن قلبه إلى رضاه التام عنه.

«هالولد بحبه كتير.. كتير.. أحسن صاحب يمكن يتمناه أي حدا».

ويوافقه عبدالله، مربتًا بيده الثقيلة على كتفه:

«أيمن خوش ولد.. وأنا فرحان انه احنا صرنا أصحاب.. علشان جذي لازم ندير بالنا وما نزعّل بعض.. مو جذي غسان؟»

«أكيد.. أنا عمري ما راح أزعل أيمن.. صحيح أنا مجنون بس مَنّي ندل».

«في هذي صدقت».

ويضحك الاثنان، عبدالله وغسان. ويضحك أيمن معهما، وإن لم يفهم تمامًا المغزى من ضحكهما، كأنما ثمة رقعة مقصوصة مما يجري أمامه، فيرتجي عقله أن يروي له أي شيء، يرتقها بأي شيء، كي لا يشعر بالضياع أمام تلك القصة الناقصة. إلا أن خيط المغزل سرعان ما ينقطع ما إن تقع عيناه على امرأة ترتدي عباءة سوداء على كتفيها، تقف خلف غسان وعبدالله على مسافة منهما، ترقبهما بعينين ذكَّرتاه بعيني أمه ما إن أدركت أنه هو من أخبر أباه بخطة هروبهما. يتنبه عبدالله إليه ويلتفت خلفه وسرعان ما تتبدل ملامحه.

«خلونا نروح نحاسب ونطلع نتمشى شوي».

ويلتقط غسان عدوى النبرة القلقة ما إن يراها:

«أحسن.. خلي المصاري عندك انت حاسب.. أنا وأيمن نستناك بره».

يتناول عبدالله الورقة النقدية من غسان، غير أنه يمسك بيده ويدنيه إليه هامسًا:

«طلعوا بسرعة.. ولا تدخل في مشاكل قدام الولد».

يسحب غسان يده ويمسك بيد أيمن ويسرع في خطاه. من خلفه يسمع المرأة تنادي على عبدالله بحدة وهو يجيبها باحترام «شلونج خالتي». وفجأة يعلو صوت المرأة باللعن والسباب، وبدل أن يتعجل غسان، خطواته تتباطأ، ملامح وجهه تتشكل على نفس الصورة التي رآه فيها أول مرة في الباص. مع خطوة واحدة تفصله عن باب الجمعية يقف، فصوت عبدالله هو الآخر بدأ يعلو.

«أنا مجنون بس منّي ندل».

لم يدرِ أيمن إن كان غسان يحادثه أم يحادث نفسه.

«أيمن؟».

يلتفت نحوه، هي ذي النظرة المستهترة التي أثارت جنون عمو عادل، ذاتها حين سدد المسدس بين عينيه في مكتب المشرف، وها ذي ابتسامته الماكرة، ويدرك أن غسان عازمٌ الخوض في مشكلة.

«انت معي؟».

«أنا معك غسان، أنا معك!» هتف من كل قلبه.

ويشد غسان قبضته على يده:

«خلينا نرجع عند عبدالله ونطلع كلنا سوا من هون».

يستديران عائدين، وسيدخلان في مشاجرة لا ريب. ظن أيمن أنه سيخاف، أن الرعب سينال منه، أنه سيستفرغ ويتبول وتتجمد ساقاه ولن تتحركا خطوة واحدة، إلا أنَّ نشوةً تفور فيه من أخمص قدميه إلى رأسه، قوة غسان تسري حاميةً بحرارتها إليه، عبر كفيهما المتشابكتين، عروقه تنبض بالحياة كما لم تنبض من قبل، ساقاه تهرولان، إيقاع خطواتها على إيقاع ساقي غسان المندفعتين، ولأول مرة في حياته قبضة يده اليمنى تتكور متأهبة على وضعية اللكم.

فلا فرار بعد اليوم.

لا فرار.

(١٢)

لم يتوقع اتصالها. أتراها طلبت من أخيها رقم الهاتف أم تحتفظ به لديها؟ يقينًا تحتفظ به، فأمه خالتها، حتى وإن لم تكلف خاطرها يومًا السؤال عنها. فوزية زوجة أخيها تسأل عن أمه، تقوم بواجب الزيارة، وكثيرًا ما دخل البيت ليجدها ضيفةً فيه. وإن كان يقدر لها زياراتها، فهو أعلم بالنيَّة وراءها: تناول غادة بالنميمة. فهي لا تطيقها ولا تطيق زوجها *اللي شايف روحه* ولا طفليها *الشحّوط واللَّزْقه*، لكن أمه ما كانت لتشاركها نميمتها. تصب لها الشاي، تعيرها أذنًا مصغية، وما إن تفرِّغ فوزية الغل من صدرها، تجيبها أمه بمقولتها الشهيرة: الله يهدي الجميع. وها هي أمه المسكينة تجلس متربعة على وسائد أرضية، من أمامها صينية الشاي على فرش من النايلون. جانبها مذياعها المحمول وعلى أثير إذاعة الكويت يصدح صوت عايشة اليحيى. لدى دخوله الصالة يقبّل رأسها ويأخذ مكانه على الوسائد مقابلها، وتصب له أمه استكانة الشاي.

«يُمّه أنا اليوم معزوم عالغدا.. فلا تنطريني».

تتناول أمه المذياع، تخفض الصوت، لا تعيده على الوسادة بل تضعه في حجرها.

«ومنو هذا اللي عازمك يمّه؟».

«غادة».

«منو!».

«يمّه موضي.. موضي بنت اختچ».

أمه لم تعترف يومًا بتغيير الاسم، وعلى مدار كل تلك الأعوام، كلما أراد أحدهم أن يحادثها عن غادة فلا بد أن يصحِّح. فوزية الوحيدة التي لا تكلف أمه هذا العناء.

«موضي! وليش تعزمك؟ وليش مو عبدالعزيز اللي يعزمك على بيته!».

كان قد توقع ردة فعلها، فالدعوة أثارت استغرابه هو الآخر. حين وجهت له غادة الدعوة لم يجبها فورًا، حين عادت وكررت عليه الدعوة تيقن من صحة ما سمعه المرة الأولى.

«لا يمه مو عبدالعزيز، موضي عازمتني عندهم على الغدا في بيتها الجديد في القادسية».

«ليش مو بيتهم كان في الجابرية؟».

«يمه قلت لچ من قبل باعوه.. أكيد ما راح يرجعون يعيشون فيه عقب ما مات منصور».

«رحمة الله عليه.. كان خوش ريّال.. ما قصر معانا لما ضيفك في بيته وقت ما كانوا يدورون عليك العراقيين».

«ما كان بيته يمّه.. كان بيت موضي.. موضي هي اللي خلتني أدخل».

«والله يمه ما ظنتني موضي لو كانت موجودة وقت الغزو تخليك توطوط بيتها».

أمه معها حق. غادة ما كانت ستقبل.

ليس تكهنًا منه بل منصور أبلغه برفضها، بحجة خشيتها أن يجر وجوده نقمة الجيش العراقي في حال اكتشف مخبأه فيتأذى ابنها، غير أن منصور طمأنه فورًا إلى استقباله، فالبيت بيته بعد أن هجرته هي، وهو من يحق له فتح بيته لمن يشاء.

«على كلٍّ يمّه.. أنا اليوم رايح عندهم».

تتناول أمه المذياع وتخرس عايشة.

«ولدها شصار عليه.. شخباره.. بعده أطرم؟».

ليت بيده أن يسر إليها أن قبوله دعوة الحية الرقطاء ليس سوى للاطمئنان عليه. من شدة قلقه ليل البارحة جافاه النوم، كلما أغمض عينيه تجلى له غسان جثةً هامدة بين يديه. سماعه صوتها لحظة استيقاظه من كابوس فقده كانت رحمة من الله.

«لا يمّه.. رد يتكلم».

«الحمدلله.. الحمدلله.. هالولد طيب بس.. حسبي الله على اللي كان السبب».

وعلى من تحتسب أمه، على أم الولد أم أبيه، على صدام أم عرفات، أم على وحيدها؟ لا يدري، غير أنه متيقن من صدق حرصها على الاطمئنان عليه. ففي تلك الأشهر التي قضاها غسان لديه، أمه من تولت رعايته في الأيام الأولى من بعد مقتل أبيه. كان عاجزًا عن فعل أي شيء.. أي شيء. حتى قضاء حاجته. كان خائر القوى، ساقاه تأبيان حمله، لسانه عفا عن الكلام، يداه واهنتان عن حمل أي غرض. حين رأى التعب والإجهاد الذي نال من أمه مع معاناتها من السكر وصعوبة التعامل مع وزنه، أخبرها بأن عليها أن ترتاح وهو من سيتولى رعايته، وهكذا فعل.

كل صباح يوقظه من سباته، يرفعه عن فراشه، يخلع عنه بيجامته، ينهض به نحو الحمام، يساعده على التبول ويشطفه، يغسل يديه ويفرش أسنانه. يعود ويجلسه على الفراش ويلبسه، يسنده ويتوجه به إلى الصالة ويجلسه على الوسائد جانبه حيث أمه تنتظرهما مع صينية الفطور. يتناول بإصبعيه الطعام ويدخله بروية في فم غسان، مرغمًا يتناول لسانه اللقمة من بين إصبعيه، إما يبتلعها وإما يلفظها خارج فمه. يسقيه من كأس الماء ويمسح آثار الطعام عن شفتيه وعنقه. بعدها يتركه في عهدة أمه في الصالة إلى أن يعود. فمع فرض الأحكام العرفية استدعوا كل المنتسبين إلى الجيش والداخلية لأداء الخدمة ولا مجال لديه لطلب إعفاء. متى ما عاد من خدمته،

نهارًا كان أم مساء، وجده مضطجعًا متدثرًا بلحاف أمه. نائمًا دونما لقمة سوى تلك اللقيمات التي تناولها من بين إصبعيه.

«يمه شِمْوديك عندها، شيقولون الناس إذا شافوك داخل على بيت أرملة؟»

يضع جانبًا استكانة الشاي ويحتد:

«قبل ما تكون أرملة هي بنت خالتي، وبعدين أنا رايح لهم الظهر مو تالي الليل».

«هالشي ما يجوز.. ما يجوز».

ما كان ليقبل برفضها ذهابه إليها، كذلك ما كان ليرتاح إلى عدم رضاها عنه، فيهدئ من حدة صوته ويلتمس عطفها:

«الصراحة يمّه.. غادة تبيني أساعدها مع غسان.. البارحة تورط في مشكلة مع راعي الباص في مدرسته الجديدة.. والولد مو راضي يسمع كلامها ولا كلام خاله.. فقالت يمكن يرد عليّ إذا كلمته.. هذي هي السالفة كلها».

«لا مو هذي السالفة.. السالفة شي ثاني!»

فوجئ بردة فعلها، بزجرها إياه بأعلى صوتها، فمذ كان ولدًا لم يرَ أمه تثور أعصابها عليه، ولا على أي أحد. تحمل المذياع عن حجرها وكادت ترميه به قبل أن ترميه تجاه الصينية وتوقع إبريق الشاي واستكانته. شعر جلده ينتصب ذعرًا، أتراها تعلم بحقيقة مشاعره ونواياه.

«هي تبيك لها.. تبيك تصير بو عيالها».

ويقهقه خالد ضاحكًا. هو وغادة! عاريين على فراش واحد! ما كان ليطيق نفسه أبدًا إن فعلها، غادة ما كانت لتطيق نفسها. ما إن تهدأ ضحكته حتى يميل نحو أمه المحتقنة غضبًا ويضع يده على يديها المتشابكتين على حجرها مطمئنًا إياها:

«يمه انت فاهمة الموضوع غلط».

تنفض يده عنها وتعاود الصراخ في وجهه:

«لا أنا فاهمته صح.. وحدة زوجها مات خاين للديرة اللي أكل منها خير يغنيه هو وأهله ليه يوم الدين.. منو راح ياخذها وهي عندها عيال منه.. لا وواحد من عيالها مو صاحي!».

«يمه لا تقولين عنه چذي!».

«وأنا صادقة عند ربي.. الولد مجنون.. والبارحة فوزية دقّت علي وقالت لي سالفته مع المدرسة.. هذا ولد ناوي على زواله.. ما فرق عن أبوه.. يبي الشارة بس إنه أي أحد يذبحه.. وموضي تدري إنه أخوها ماله خلق يتعامل معاه.. يكفيه فضيحة زوجها.. وإنت تدري انه عبدالعزيز ما رد عليها يوم دقوا المدرسة.. إنت اللي تركت كل شي من إيدك ورحت تركض عند ولدها وحليت المشكلة.. قول لي.. لو نيتها صافية.. ليش ما عزمتني معاك!».

«هي سألتني عنچ وعزمتچ بس أنا قلت لها انچ تعبانه.. أدري ما ترتاحين لها فما حبيت أضايقچ».

كلاهما يعلم أن ما نطق به كذبة تافهة لا ترقى حتى لوصفها كذبة بيضاء. عدد المرات التي وصلت بها غادة خالتها من بعد وفاة أمها وطوال سني زواجها لا تتعدى أصابع اليد الواحدة. أترى إصرار أمه على مناداتها موضي هو ما يثير غيظها منها، أم أن الصدع الذي انشق بين الأختين بزواج إحداهما بغنيٍّ والأخرى بفقير استحال هوة شاسعة. أيًّا يكن السبب، هي المرة الأولى التي تلفظ فيها أمه عن صدرها شراسة غضبها ونقمتها على ابنة أختها.

«شكلك معزِّم تروح عندها.. روح.. بس حط في بالك إنه موضي ما تحبك ولا تحب أمك.. وأنا ما راح أمنعك تتزوجها.. تظل بنت إختي وراح تستر عليها.. بس اسمعني زين.. تستر عليها وانت عارف هالشي.. الأرملة ليه رضت تاخذ ريّال من بعد زوجها.. مو بس هي اللي تصير حلاله.. هي وماها وعيالها حلاله.. حلاله.. سمعتني.. يسوي فيهم اللي يبيه».

ينهض خالد ويقبل رأسها دون أن ينبس بكلمة. يمضي نحو غرفته ويقفل الباب خلفه بالمفتاح. يقف يتأمل نفسه على صفحة المرآة الطويلة التي أحضرتها له أمه حتى يتأكد دومًا من ترتيب هندامه العسكري، من هامة قبعته العسكرية حتى كعبي جزمته.

عيناه محتقنتان، شعر رأسه عند الصدغين بدأ بالانحسار، ووجهه بلا ظلّ القبعة العسكرية وجه رجل غريب؛ جسده في دشداشته الصيفية، منزوعٌ عنه التمويه الزيتي، ليس سوى جسد ولد ضعيف. يبلع ريقه، يحني ظهره ويسحب سرواله الطويل إلى الأسفل، يرفع

حاشية دشداشته إلى صدره، يغمض عينيه، يده اليسرى تمارس عادتها، وما إن يفرغ، حتى يتنهد من أعماق قلبه وعلى مهل يفتح عينيه، يرفع سرواله ويسدل دشداشته. يتناول من درج منضدته السفلي جانب سريره ممسحة صغيرة ومنظف نوافذ ويمسح البقع عن المرآة. يقرأ الوقت على ساعته، لديه وقت كاف للاستحمام والاستعداد لتلبية دعوة الغداء. يمنح نفسه دقيقتين يتمالك فيهما نفسه، إذ لا عادة مثيرة للشفقة، مهينة لرجولته، أكثر من هذه العادة.

لكن قريبًا

قريبًا جدًّا سيتبدل الحال.

بزواجه غادة سيمارس رجولته كاملة مكتملة

حلالًا دون نقصان.

جسدها حلاله

مالها حلاله

ابنها حلاله

وسيمارس بحلاله ما يشاء

وقتما يشاء.

(١٣)

استغرب النظرة التي اعتلت وجه عبدالله لدى التفاته إليه. توقع خيبة أمله من عدم إيفائه بوعده. لكنه فوجئ به ينظر تجاهه كأنما كان في انتظاره، وحين التفت ورآه مقبلًا عليه في خطىً حثيثة، اكتشف أنه محل ثقة، أن أمله في صاحبه كان في محله.

يقف غسان جانب عبدالله، تاركًا أيمن خلفهما. لن يكون هناك حائط سد بينه وبين المرأة. إن كانت ستسبه وتلعنه فلتفعلها وهي تحدق إليه، في عينيه، في وجهه، في جسده. لم ينسَ تهجمها عليه بعربتها في الجمعية، بعد كل عنائه في جمع الفاكهة والخضراوات جاءت هي ورمتها كلها على الأرض أمامه وشرعت فمها بما ينوء به قلبها، صوتها يحتد ولعناتها تعلو والألم في جسده يخمد كأنما الحمم الحارقة المتفجرة من قلبها المفجوع شلشالُ ماءٍ بارد يطفئ نار قلبه. إلا أنَّ أمه قطعت عليه راحته وجرَّته خارج السوق.

«إنت شتبي؟.. شتبي قاعد في ديرتنا ما تروح عند أهلك الخمّة!».

«ما أنا هون عند جمعية أهلي الخمة.. إنت شو عم تعملي عندنا.. ما تروحي ترجعي على جمعيتك.. جمعية الكويتيين..».

«غسان! خالتي اهدي ما يصير جذي.. ترى هو جارنا.. هو صج فلسطيني بس ترى أمه كويتية».

«جيرة السو! أنا ما أعتب عليه.. شنو تتوقع من أشكاله.. بس إنت! قاعد تشوفه وتسمعه يصرخ في وجهي وقاعد تبرر له.. حسبي الله عليك من ولد.. إذا إنت نسيت ولدي اللي ذبحوه.. شلون تنسى أبوك.. شلون يهون عليك.. أبوك استشهد جدام عيونك.. الكلب العراقي فجر راسه عند باب بيتكم.. وهالأنجاس هم اللي علّموا على أبوك وعلى ولدي والحين قاعد تضحك وتنكت وتاكل معاهم اللي ما بيَّن في عينهم خير ديرتنا اللي كلوه.. عساه سم هاري يهري بطونهم وبطون عيالهم ليه يوم الدين».

نيّة غسان سبها بالقحبة وتفجير الجمعية بمن فيها تلاشت. يلتفت إلى عبدالله، إذًا هو رأى ما رآه، رأى كيف للرصاصة الصغيرة أن تخترق رأس الرجل أسرع من لمح العين، كيف يرتطم الجسد بالأرض قبل أن يرتد إصبع القاتل عن الزناد. مثله، شم رائحة البارود، الرائحة الخفيفة للحم المحترق.. الدم.. أيا ترى انتظر عبدالله إلى أن سال الدم وصب في بركة واحدة، أتراه رأى وجهه على انعكاس صفحتها. أكانت عينا أبيه مدهوشتين، لأنه ورغم كل الدلائل، لم يتوقع من القاتل أن يقتله حقًّا! أكان فم أبيه فاغرًا هو الآخر لأن في جعبته حكاية لم يروها بعد، كذبة أخرى لم يكذبها بعد

على نفسه. لا.. لا داعي كي يزكي النار.. إذ كما اعتاد أبوه أن يقول.. *الضرب في الميت حرام*.. ولطالما سأل نفسه من أين جاء أبوه بهذا المثل الذي ما فتئ يكرره في عامه الأخير قبل الغزو.. من أولاء الذين من الحماقة بمكان أن ينهالوا ضربًا على أمواتهم.. إذ ما النتيجة التي يرجونها من ركلهم جثة ما عادت تتألم ولا تكترث.. غير أنه بات يعرف الآن.. لا أحد يفعلها سوى الأبناء.. صورته المتخيلة لنفسه وعبدالله يركلان أبويهما الميتين فجرت فيه نوبة ضحك اجتاحته رغمًا عنه، يحاول كتمها فتفور القهقهة من أعمق أعماق قلبه، يجثو على ركبتيه لأنه ما عاد يطيق ألم رأسه وضلعه، يسمعها تسأل عبدالله بصوت مرتبك:

«شفيه هذا؟».

وبدلًا أن يطمئنها ويؤكد لها أنه ليس سوى ولد مجنون، يدخل عبدالله هو الآخر في نوبة ضحك. إذًا بلا ريب هو رأى ما رآه. وفي محاولة يائسة منه للسيطرة على ضحكه، يرفع عينيه عن الأرض، وإذ يلمح ذيل عباءتها السوداء تفرُّ جارفةً معها ذرات الغبار العالقة على البلاط، كعبا شحاطتها يشخطان الأرضية، مذعورة مشوشة، وبدل أن يصمت يطلق لضحكاته العنان شفقةً عليها. ليتها رأت ما رأياه، لو فعلت لكانت شاركتهما نوبة ضحكهما. إلا أنها أم.. والأم لا تركل ابنها الميت لأنها أذكى من هدر وقتها.. هي تركله حيًّا.

ضحكه يستحيل نحيبًا، يدفن رأسه بين كفّيه، وإذ بيد حانية تربت على ظهره، تطفئ بلمستها حرقة عينيه وصدره، يرفع رأسه

وإذ هي يد أيمن. كان قد نسي أمره، غير أنه لم يكن مرعوبًا كما توقع، بل يراه هادئًا، عيناه العسليتان عطوفتان صافيتان، مستقيم الظهر، متزنًا مسيطرًا على مشاعره. ابتسامة رقيقة وحسب مرتسمة على شفتيه، وعلى مرآها يهدأ روعه. حاول التقاط نفسه والنهوض عن الأرض وإذ يلحظ الجمع حواليه، الرجل الكويتي فيهم يقترب نحوهم، بطاقة إداري الجمعية معلقة على صدر دشداشته، ويوجه الحديث نحوه باقتضاب، آمرًا إياه بمغادرة المكان فورًا. مع عدم سماعه ردًّا منه، استدار إلى عبدالله والذي كان ما يزال يضحك، وفي نبرة متعاطفة يشوبها الاستنكار:

«قول حق *رفيجك* يطلع».

وعلى عكس غسان، فورًا استعاد عبدالله رباطة جأشه:

«كلنا طالعين».

ويساعده عبدالله على النهوض. يتأكد من وقوفه متزنًا وينحني حتى يحمل السلة عن الأرض، إلا أن الإداري يأمره بأن يتركها، فيشير عبدالله نحو أكياس الشيبس الفارغة، فيؤكد له الإداري أنه سيتولى دفع الفاتورة.

«هاكَ.. هذي خمس دنانير.. احنا الفلسطينية نعزم وما نعزم!».

صدمة الإداري مما سمعه على لسان عبدالله ورميه الورقة النقدية في السلة تشعل نوبة ضحك أعنف لدى غسان، عيناه تدمعان وقطرات بول تفلت منه. ذراعه اليمنى تقبض على صدره

حيث الألم يشتد. وكاد يقع لولا أمسكه عبدالله وأسنده إلى كتفه مطوقًا إياه بذراعه القوية، يده اليسرى المتأرجحة في الهواء وكأنما تبعد عن نفسها شيطانًا خفيًّا تلتقطها يد أيمن وتتشبث بها بقوة، ويد الصبي ليست باردة كما كانت عليه طوال النهار، بل دافئة، مطمئنة.

محاطًا بهما، تنحسر عنه عاصفة الضحك ويغمر جسده هدوءٌ جارف، الصمت يطبق عليه، أذناه لا تسمعان شيئًا، عيناه لا تبصران شيئًا، عقله لا يفقه شيئًا، قدمه اليمنى تأخذ خطوتها الأولى دون انتظار أمرٍ منه بالحراك، وتتبعها خطوات صاحبيه. الثلاثة يسيرون على إيقاعٍ واحد.

إيقاعه هو.

هو في الوسط.

نصفه الفلسطيني على يساره

وعلى يمينه نصفه الكويتي

وبينهما يخطر إليه خاطرٌ عابر سرعان ما سينساه

أنهما جناحاه

ومن قعر البئر العميقة لهما أن يطيرا به نحو الشمس

أو به يهويان.

(١٤)

لا أحد منهم يرغب في صعود الدرج لذا ينحشر الثلاثة في المصعد معًا. يصل المصعد الطابق الثالث، وها هم يقفون عند باب بيته. يرفع أيمن رأسه، وجه غسان شاحب، إلا أن ابتسامة هادئة تشرق على ثغره.

«متأكد راح تكون منيح؟».

لا يجيب فورًا على سؤال غسان بل يلتفت نحو الباب، لا علم له بما ينتظره في الداخل، لكن ما عاد يأبه. فلينتظره من ينتظره، قلبه ما عاد في صدره، ما عاد هدفًا سهلًا يطعنه من يشاء وقت يشاء، فقلبه الآن خبيءٌ لدى غسان، حيث لن يجرؤ أحد والديه على الاقتراب منه.

«أكيد.. لا تخاف عليّ».

دونما خجل، يقبِّل أيمن يد غسان قبل أن يتركها ويجذب المقبض إلى الأسفل، وقبل أن يدفع بالباب يلتفت نحو صاحبيه مرة أخرى:

«اليوم كان حلو.. حلو كتير».

غسان يومئ، عبدالله يعقب بحماس:

«حلو لأنه اليوم خميس! ولأن احنا الثلاثة تصاحبنا.. علشان جذي دير بالك على روحك أيمن.. حتى نستانس مع بعض كل خميس.. أنا وغسان راح نشوفك إن شاءالله في الباص.. ونبي نشوفك زين.. ما نبي نشوفك تعبان.. توعدني؟».

«أكيد .. أوعدكم».

يلوح لهما ويدفع الباب، يدخل ويغلقه من خلفه دون أن يلتفت إلى الوراء. لا يأخذ خطوة أخرى، بل يلزم مكانه ممعنًا النظر حوله، يتأمل المكان الذي قضى فيه حياته بأسرها وكأنما للمرة الأولى يراه. الفوضى التي كان عليها المكان حين دخل مع غسان اختفت، كل شيءٍ إلى محلّه عاد. حتى شريط السنافر، عاد التلفاز يعرضه في انتظاره يجلس أمامه بقية النهار. وإذ فجأةً تنجلي له الحقيقة التي حُجبت عنه كل تلك الأعوام. فمن دون قلبه لثامًا على عينيه ما عاد أعمى. حقيقة أن هذا المكان لا يخصه، المرأة والرجل اللذان يعيشان هنا لا يخصانه. فإن كانت تلك هي الحقيقة فعلام الحزن الذي يسكنه، علام الخوف الذي يشله، يخشى كرههما وهو لا يملك حتى محبتهما، يخشى تعاستهما وهو لم يشهد يومًا سعادتهما. هو ابنهما فعلًا، الملاك لم يخطئ في حقهما. بل أخطأ في حقه هو.

يسمع صرير باب غرفة أمه إلا أن الصوت لا يقلقه. ينتظر خروج أحد منها لكن لا أحد يخرج. يتوجه نحو التلفاز ويطفئه،

يقف عند النافذة عله يلمح غسان، ساندًا جبهته إلى الزجاج، ينهل من دفء الشمس.

«أيمن.. أيمن.».

يلتفت إليها، آثار ضرب أبيه على وجهها، أبشع من أي مرة رآها عليها. صوتها مبحوح وعيناها محتقنتان.

«كيفك ماما؟».

ما عاد يشعر بأي شيء تجاهها، لا الحب، لا الكره، لا الخوف، ولا حتى اللوم. هو فقط استغرب خروجها المبكر عن موعدها المعتاد بنهار.

«جوعان؟ بدك تاكل شي؟».

لا.. لا يريد منها أي شيء. يدس يده في جيبه ويخرجها، يسير نحوها، يتناول يدها ويودع في كفها ثلاثة وجوه ضاحكة كان خبَّأها لها.

تمسك بيده بين راحتيها:

«حبيبي.. أنا..».

هل تشعر كما يشعر الآن، بالأرض تنشق بينهما، بالطريق الذي جمعهما في سبيل واحد يصطدم بلوحة خشبية عملاقة تشير بسهمين كبيرين نحو طريقين فرعيين متقابلين، اللوحة على اليمين تشير نحو الله وتلك التي على اليسار تشير نحو غسان. كلاهما يعلم كم دفع الآخر غاليًا حتى يصل هنا، ولا أحد منهما سيقبل المضي في الطريق

الذي يسعى إليه الآخر. ههنا.. ههنا لا بد أن يفترقا.. لا بد أن يعتق كل منهما الآخر إذا ما أراد له الوصول إلى سعادته.. نهاية الطريق الفرعي الذي اختار.

«ماما أنا رايح أوضتي.. لا تخافي عليّ».

يسحب يده من راحتيها، الوجوه الضاحكة تهوي من بين كفيها. دامعة العين تسبقه وتمضي في طريقها نحو غرفتها. ويمضي هو نحو غرفته.

هو يفرغ حقيبة المدرسة.

هي توضب حقيبة السفر.

يتناول كراس أحلامه وعلبة الألوان.

ترتدي ثوب صلاتها وتحمل القرآن.

كلٌّ آمِنٌ في ملكوته الذي اختار،

لا أحد منهما،

أغلق الباب على نفسه.

(١٥)

كان نهارًا رائعًا *حلو كتير*. لأول مرة يشعر كيف للقلب أن يبتهج متى ما تحرر من قيد أخلاقيات أبيه. لأول مرة يذوق حلاوة الحرية في إعلان العصيان، متعة الانزلاق من علٍ في هوة ما لها من قرار، ولن تخاف ارتطامك بالحضيض لأن ها يد صاحبك في يدك، يهوي معك.

نشوة السقوط التي سرت في جسده لحظة رميه الورقة النقدية في السلة لم يرد لها أن تنتهي، لكن ها هما يدخلان شارع بيتيهما، ومن يدري؟ أسيتسنى لهما الاجتماع معًا في رحلة مشابهة الخميس القادم، أو أي خميسٍ يليه. هل ستسمح له آنتي غادة باصطحاب ابنها متى ما علمت بما جرى في الجمعية، بإخلاله وعده لها.

«غسان.. شرايك نروح بيتي أول؟».

دون أن يلتفت إليه يجيب هازًّا كتفيه:

«ليش لأ».

بوابة بيته مفتوحة كما تركها خلفه صباح اليوم، يصعدان درجات المدخل الرخامي. ما إن يبلغا مبسط المدخل حتى يتوقف غسان ويشير نحو البلاط:

«هون؟».

«قرب شوي..».

«بعده في دم موجود».

«تقدر تشوفه؟».

«أنا شميته قبل ما اشوفه».

يفتح باب البيت، يدخل أولًا. عمته جالسة على الأريكة في بهو الاستقبال، مستعدة في حجابها وعباءتها.

«السلام عليكم».

لا ترد عليه السلام. فيلتفت من خلف الباب إلى غسان:

«حيّاك».

ما إن يدخل غسان حتى تحول عينيها إليه:

«شلونك غسان.. ان شاء الله الحين أحسن».

في نبرة خفيضة مطرقًا رأسه يجيب:

«الحمد لله.. منيح».

«الحمد لله.. مو أحسن لك تروح بيتك ترتاح عقب أمس».

يقاطعها عبدالله ويقف بينها وبينه:

«راح يروح عمتي.. بس بالأول أعطيه الدروس اللي فاتته.. هو معاي في الثالث متوسط».

تنهض عمته عن الأريكة على مهل، تخطو نحوهما، أيا تراها ستصرخ في وجهه، تصفعه، ليس من شيمها الصراخ ولا الصفع، لكن يقينًا سترتكب صنيعًا تعاقبه به، تحجمه وتحرجه أمام ضيفه، إلا أنها تتجاوزه نحو غسان، ترفع رأسه وتطوق وجهه براحتيها متأملة عينيه الرماديتين وجرح جبينه.

«أدري شكثر يهمكم تاخذون علامات كاملة حتى لو النجاح مضمون.. بس لازم ترتاح في الأول.. أنا عندي رقم بيتكم من أيام بو علي.. راح أتصل على أمك وأبلغها إنك راح تقعد وتتغدى عندنا..».

ترفع يديها عن غسان وتدلف في طريقها نحو الصالة إلا أنها تلتفت إليهما قائلة في نبرة استهزاء:

«بس ترى دير بالك.. عبد الله ساقط.. مو شاطر مثلك.. عاد الصف الثاني متوسط.. وعلاماته موهالزود.. هو محتاج من يعاونه.. فطالما صرتوا *أصدقاء* ساعده..لا تصير بوقلبين».

أهلس غسان من خلفه فيشده من يده ويصحبه نحو غرفته في الأعلى، يتأفف على صوتها من أسفل تنادي عليهما *أي شي تبونه قولوا لي*. ورغم الإحراج الذي انتابه من عمته إلا أن حسًا من

الامتنان نحو لؤمها هوّن عليه، إذ يظل أقل فوضوية من المواجهات المباشرة.

ما إن يصل غرفته حتى يفتح الباب وفورًا يغلقه من بعدهما، يسدل الستارة ويرتمي على فراشه، ويعقب غسان مازحًا:

«شو.. ناوي تقتلني وما بدك شهود؟».

«إذا بذبحك بذبحك بره في الشارع قدام العالم مو في بيتنا».

«طمنتني.. طيب وعمتك المصون.. متأكد مو ناوية تقتلني.. تحط لي سم في الأكل.. من هلق بحكيلك.. ما في لقمة تدخل تمي قبل ما أشوفك تاكل من نفس الصحن».

«كديت خير.. ترى عمتي ما عندها مشكلة تذبحني معاك.. لكن شقول.. هذي عادتكم ما تغيرونها.. تراهنون على الحصان الغلط».

يشير غسان نحوه ضاحكًا:

«أي حصان الله يسامحك.. قول على البغل الغلط».

«البغل إنت وأبوك».

«إيه.. إنت ما عندك غير هالسبة.. عمتك صدقت.. بدك من يعاونك.. لهيك راح أتولى تعليمك من قاموس المسبات.. *ابن الشرموطة.. العرص.. منيوك.. كس إمك*... يعني.. حتى تنوع.. مرة تسب الأب ومرة تسب الأم.. بس حط في بالك سبة الأم هي اللي توجع اللي قدامك وتجيب آخرتك».

«زين يا فطحل زمانك.. تعال اقعد أحسن ما انت واقف لي عند الباب مثل عزرائيل».

يجلس غسان على كرسي المكتب مقابل فراش عبدالله وبعد لحظات يتنهد في زفيرٍ عميق:

«إنت مستوعب شو صار اليوم؟».

يجيبه عبدالله محدقًا إلى السقف:

«لأ. أنا حياتي بكبرها مو مستوعبها».

«وشو راح نعمل هلق؟».

«ولا شَيْ».

يميل غسان بظهره على الكرسي المتحرك ثم يعود ويستقيم، مرة تلو المرة، كأنما يؤرجح نفسه في كرسيٍّ هزاز. يستدير نحو طاولة المكتب، عليها كشكولان وكتاب العلوم. يتناول الكشكول الأحمر، يفتحه، يتصفحه..على مهل.

«ترى إذا ناطرني أعلمك الدروس اللي خذيناها، اِنسَ، حدّي مالي خلق».

«ما لك خلق! بس إلك خلق تسطر تحت التاريخ والعنوان، لا وتكتب بخط حلو! مو ناقص غير تزينه باستكرز نجوم!».

ويجيبه في ضجر، «كيفي.. الكتب والدفاتر جدامك تبي تدرس اِدرس بروحك».

في زفير عميق يصفق غسان الكشكول ويرمي به على المكتب. يعود ويتأمل الغرفة حوله. المشجب في الزاوية ينوء بالملابس المرمية عليه، قطعٌ منها متساقطة على قاعدتها. خزانتا كتب، على أرففها الكتاب لصيق الكتاب. الجدران باهتة، عارية من أي صورة معلقة، أي شهادة مؤطرة. وخطر له أن جدران غرفته أيضًا عارية من الصور، البيت الجديد بأسره لا صورة واحدة فيه. سمع أنها في الكراتين، مع أغراض كثيرة، لكن أين تلك الكراتين؟

«عندك كتب كتير».

لا تعليق.. تأفف وكاد ينهض من الكرسي حين أجابه:

«مو كتبي.. كتب أبوي».

«قرأت منها شي؟».

«كم كتاب وقت الغزو.. كنت متملل».

«ولمين قرأت؟».

«حق ربعك..».

ينخر غسان ضاحكًا، «وليه كتب ربعي عندك؟ ليه ما عندك كتب *ربعك* في مكتبة أبوك العظيمة؟»

«لأنه أبوي من طول عمره يحبكم.. يقرأ لكم كل شي.. أشعاركم قصصكم وتاريخكم النضالي اللي أطول منه ما في..».

«مقارنة بتاريخكم النضالي اللي أقصر منه ما في..».

يخيم الصمت للحظات ثم يسأله:

«مشان هيك إنت في مدرسة عربية مو حكومة».

«إي.. مشان هيك»

«راح أسألك سؤال وأحلفك بربك تجاوبني عليه».

«ماني حالف بربي.. شتبي؟».

يميل غسان نحوه سائلًا إياه بنبرة جدية وكأنما يسأله عن أمر مصيريّ:

«السنة اللي قبل الغزو.. لما انتشرت إغنية **منتصب القامة أمشي**.. دبكت عليها؟».

عينا عبدالله المحدقين إلى السقف اتسعتا قبل أن يغلقهما، وجهه يحتقن بغضبه المكبوت.. وما إن يفلته حتى ينجلي غضبه ضحكًا يثير حماسة غسان:

«وحياة ربنا كان حاسني قلبي.. من كل عقلك دبكت! وأكيد لبسوك الكوفية ومسكوك المسبحة!».

«الله ياخذك.. إي أنا لبسوني الكوفية ومسكوني المسبحة..».
ورفع يده يميم بها حركة لف المسبحة على وقع ضحك غسان..
«بس مو بكيفي.. أبوي غصبني. وشدعوه إنت ما دبكت عليها».

«ما دبكت».

«*چذاب*.. مو معقولة.. إنت اللي أبوك فلسطيني ما تدبك!».

«معقولة.. كانوا مختاريني أنا والأولاد الفلسطينية في المدرسة حتى ندبكها في الطابور..أول ما عرفت ماما بالموضوع صرخت في بابا.. قالت له إذا أنا محسوب فلسطيني فهاد مو معناه إني مجبور إدبك.. أصلًا أنا ما بعرف إدبك ولا عمري شفت بابا يدبك.. وهو ما اهتم.. لا راح كلم الإدارة متل ما قالت له ماما ولا شي.. كل اللي عمله انه يومها ما أخدني على المدرسة وخلصنا».

«يا حظك.. آنتي غادة تحبك».

لا يجيبه غسان.. ومن بعد فتور الضحك بينهما يعود إلى صمته لوهلة ثم يسأله:

«عندك كبريت.. أو ولاعه؟».

«دوِّر عندك في جوارير المكتب.. تلاقي كبريت وشموع من أيام الغزو».

ينقب غسان في الأدراج ويتناول علبة كبريت من الدرج السفلي، يفتحها، خمسة أعواد ثقاب. يدس يده في جيب بنطاله ويتناول منه سيجارتين:

«تدخن؟».

يرفع عبدالله رأسه عن الوسادة، يتكئ أولًا على مرفقه، عيناه على السيجارتين، قبل أن ينتصب في جلوسه قبالة غسان:

«لا.. ما جربتها من قبل».

«بدك تجرب؟».

يد غسان ممدودة نحوه. يتردد هنيهة وينتشل إحدى السيجارتين. ينهض غسان من كرسيه ويجلس جانبه على الفراش، يشعل سيجارته أولًا:

«تاخد نفس عميق.. لحد ما تحس بلسعتها.. بس لا تسحبه لصدرك.. بعدين انفخ الدخان في الهوا.. شوف.. سهلة ما بدها شي.. راح ترتاح كتير من بعدها».

يتناول عود ثقاب آخر، يودع عبدالله السيجارة بين شفتيه، ويشعلها. اللسعة الأولى تفاجئه فيسعل.. *كمّل كمّل* يحثه غسان. يسحب النفس الثاني.. الثانية أسوأ.. كأنما جمرة عالقة في حنجرته.. قبضةٌ تمسك برأسه.. عيناه تكادان تقفزان من محجريهما.. يد غسان تصفع ظهره.. *صحّة صحّة*.. في صوت مبحوح يمد إليه بالسيجارة.

«الله ياخذك.. شنو هذا!».

ويدفع غسان باليد إلى عبدالله «لا تخاف.. راح أعلمك إياها وتصير شاطر فيها.. وصيّة عمتك!».

وفي غمرة سعاله يضحك.. يكرر المحاولة.. سعاله يشتد.. دوار خفيف ينتابه ويرمي برأسه على الفراش.. جسده يتعرق.. السيجارة بين إصبعيه تواصل الاشتعال...

يشعر بغسان ينهض..يسمع صوت الستار يزاح.. النافذة تفتح.. الدخان بدأ ينساب منه.. من الغرفة.

«ناقصنا طفاية!».

يسمع الأدراج تفتح.. حقيبته تفتح.. سقوط أقلام على الطاولة.

يشعر بغسان يجلس جانبه ويسحب منه المتبقي من السيجارة.. يفتح عينيه.. يراه يسحب نفسًا منها.. يوفيها حقّها قبل وداعها.. دخانها يتصاعد سلسًا من فمه.. رمادها يهوي في مقلمته.. نشوةٌ من الغيرة والإعجاب يتملكانه.

«أبوك كان يدخن؟».

«كتير.. عادي يخلص ست علب في اليوم.. وأبوك؟».

حاول النهوض، لكن ثقلًا ما زال في رأسه.

«قبل الغزو عمري ما شفته يدخن، يمكن لأنه طبيب.. بس بعد الغزو صار يدخن.. بس في الحوش مو في البيت. وإذا شفته يدخن يطفيها على طول ويعطيني درس عن مضار التدخين.. هه.. أبوك علمك تدخن؟».

«لا.. أنا علّمت حالي.. بعد ما مات».

«آنتي غادة زعلت عليه؟».

لا يدري كيف فلت منه السؤال.. لكن غسان ما مانع.. إذ أهلس قبل أن يجيبه:

«آنتي غادة.. آنتي غادة وقتها كانت تصيف في لندن.. هي وبنتها وأخوها وعيلته.. بعدين قضت شهر في مصر لترتاح من

صيفيتها الطويلة في لندن قبل ما ترجع الكويت.. ما كنت معها حتى أعرف إذا زعلت عليه.. أنا وبابا بس اللي كنا موجودين هون».

«ليش ما رحت معاها؟».

«كنت مفكر إني عم بحمي لها بيتها.. ضليتني سنة كاملة إسمع بابا يحكي لي حكايته عن يوم هو وأهله تركوا بيتهم وأرضهم وراهم لليهود.. كيف إنه هروبهم كان جريمة فلسطينية ارتكبوها بحق حالهم. إنه صار فيهم متل ما صار في يهود اسرائيل.. وقت ما هربوا من فلسطين الله لعنهم وضيعهم في الصحرا أربعين سنة.. وهيك صار معه هو والفلسطينين.. ولأن هروبهم كان أبشع.. لأنهم هربوا من وطنهم مو من بلد بعده غريب ما دخلوا عليه.. الله لعنهم بعيشة المخيمات والبهدله في كل الأرض.. بالذبح على إيد اليهود والعرب والأميركان واللي ما في أسهل منه.. ما في أرخص منه.. تشوفه في كل نشرة أخبار قدام عيون كل العالم.. ما تتخيل قد ايه خفت كتير هالشي يصير مع ماما.. فيك تتخيل آنتي غادة في مخيم! أنا ما كان فيني.. اقتل حالي وما أشوفها عايشة بهالطريقة.. مذلولة.. بالأخير اللي كنت خايف منه ما صار.. هي عاشت صيفية طويلة على حساب حكومتها وأول ما رجعت.. بكل بساطة باعت بيتها اللي أنا حميته إلها لتشتري بيت جديد.. كل شي عملته ما كان إله معنى.. معك حق.. إحنا دايمًا نراهن على الحصان الغلط..».
يسحب نفسًا أخيرًا وينفث الدخان قبل أن يطفئ العقب في باطن المقلمة. «انت وعيلتك ليش ما هربتوا؟».

حين أصغى إليه يفسر سبب بقائه شعر كأنما أبوه من يحادثه اللحظة، فكذا كان لدى إبلاغه أهل بيته منذ اليوم الأول قراره البقاء والانخراط في المقاومة *مثلي مثل كل فلسطيني شريف.. نقاوم على أرضنا وننـدفن في أرضنا*. إلا أن عبدالله آثر ألا يفصح عن تلك المقولة الخالدة خشية أن يثير في غسان نوبة ضحك، هذه المرة على سذاجة أبيه.

«في الأول كان صعب.. أمي.. أمي مريضة وأبوي خاف عليها تتعب إذا طلعنا.. بعدين دخل في المقاومة.. أكثر شي كان مهتم فيه هو علاج المرضى.. وعلاج شباب المقاومة إذا انصابوا.. كانوا يجيبونهم البيت بالسر.. دايمًا في الليل.. أو قريب الفجر. كنت أسمع صوتهم يطقون الباب الألمنيوم اللي ورا.. باب صغير يدخل على المطبخ... كل ما أسمع الصوت أدري إنه أحد انصاب وأنا وعمتي ننزل.. هي تصحي أبوي وأنا أفتح لهم الباب.. وأصعدهم هني.. كنا نعالجهم على هالفراش.. واحد منهم مات عليه.. قبل التحرير بشهر ونص كان عندنا مقاوم جريح.. رصاصة في كتفه.. بس الأدوية والمسكنات كانوا خالصين من عند أبوي.. كان في دكتور فلسطيني يهرب لنا الأدوية وكان مفروض يوصل لنا دفعة.. بس اتصل وقال إنه ما يقدر.. إنه مراقب.. ولازم أبوي يجي وياخذهم.. وهناك مسكوه العراقيين مع اثنين من المقاومة.. والباقي انت تعرفه.. عندك سيجاره؟».

«ضل عندي وحده.. قوم يا بطل حتى أعلمك».

يربت غسان على فخذه .. يتشجع ويرفع رأسه. يتناول غسان السيجارة الثالثة من جيبه، يضعها بين شفتيه، يشعلها، يسحب نفسًا وحيدًا، ثم يهديه إياها:

«التمرين الثاني.. روح عند الشباك حتى يساعدك الهوا».

يتناولها منه ويودعها بين شفتيه وينهض نحو النافذة.. يسحب نفسًا.. يعود ويسعل.. لكن أخف من السيجارة الأولى.. متلذّذًا أكثر بلسعتها.. يلتفت نحو غسان في انتظار توجيهات أخرى غير أنه اضطجع وفورًا غط في سبات عميق.. *صح بو قلبين*.. يعلق مازحًا في صدره.. ما إن تحترق سيجارته حتى يدعك عقبها على عتبة النافذة.. جانب عقب سيجارة غسان.. وبإبهامه.. كما لو كان ينقف تيلة.. ينقفهما خارجًا.. يمضي نحو الفراش.. يرفع المقلمة ويرمي بما فيها من رماد خارج النافذة.

ضجرًا من جديد راح يتأمل خزانة الكتب.. يمضي نحوها.. ينتزع بقوة ديوان شعر. نتفٌ ورقيّة أكثر تعلق هذه المرة على السطح الخشبي. يعود ويجلس على كرسي المكتب. يفتح الغلاف، الصفحة الأولى، مدونٌ عليها تاريخٌ وإهداء. ينزعها، يمزقها، يكورها، ويرمي بها في سلة المهملات. يقلب الصفحة الثانية، ينزعها، يمزقها، يكورها ويرمى بها في سلة المهملات. الثالثة ينزعها، يمزقها، يكورها، ويرمى بها في سلة المهملات...

فاضت سلة المهملات.

يرمى بما فيها خارج النافذة.

ويواصل تمزيق الصفحات.

(١٦)

ما إن ركن الجمس الأسود أمام بيت غادة حتى ذكَّر نفسه بما حدثته به أمه: غادة هي من تحتاجه. يرن الجرس. لم تكن هي من استقبلته عند الباب، بل ابنتها. لم يسبق أن تعرف عليها شخصيًّا، يعرفها وحسب في الصور العائلية المتكئة على رفوف بيت الجابرية. وحتى مذ ذاك، مذ وقعت عيناه على صورها، ازدراها. ملامحها تذكره بخالها عبدالعزيز، وسماعه زعيقها تنادي على أمها زاد من ازدرائه.

«يمه.. يمه.. في ريّال يبيچ عند الباب».

يقف مشدوهًا وكأنما تلقى صفعة مباغتة على وجهه، كلام أمه الذي ما انفك يردده على نفسه طوال الطريق طار من عقله. أيعقل أنه فهم دعوتها خطأً، فابنتها تجهل بقدومه ضيفًا على مائدتهم. راحتا يديه تتعرقان، خفق قلبه يتسارع، وما إن يراها مقبلة عليه بكامل أناقتها وزينتها، تتهادى نحوه بكل ثقة وترحِّب به، حتى يفلت ارتباكه من عقاله.

«حيّاك خالد، ليش واقف عند الباب؟».

«ما أدري.. عبالي ما في غدا.. آه.. شلونچ غادة؟».

«أنا زينة.. اطّمن في غدا.. ما راح تطلع من عندي جوعان».

نبرتها الاعتيادية في حديثها الحميم إليه يزيد من حدة السخرية التي يلمحها في عينيها. يتركها تتقدمه خطوات في المسير كي يتجنبها. لدى توقفها تستدير نحوه، وتشير له على إحدى الأرائك في ردهة الاستقبال كي يجلس عليها في انتظارها تنضم إليه لاحقًا:

«أجهز الطاولة وأناديك».

ما عاد من سخرية في عينيها، إلا أن ابتسامةً دافئة ارتسمت على شفتيها إذ على ما يبدو لاحظت ارتباكه:

«ماله داعي تستحي.. انت مو غريب».

يستجيب لأمرها ويجلس على الأريكة، في محاولة يائسة يلتقط أنفاسه عله يتمالك نفسه، ليته حضر في زيه العسكري، لكان استمد هيبته منه. ابنتها لم تعد منذ استقبالها المزعج له، لا بد في المطبخ تساعد أمها. يتفقد ساعته: الواحدة والنصف ظهرًا، كانت أخبرته على الهاتف أنها تتوقع قدومه الواحدة. تأخره المتعمد جاء محاولة فاشلة منه لإرباكها. تتناهى إليه قرقعة ترتيب الأطباق. قريبًا جدًّا سيتشارك الطعام مع عائلة غادة. يغمض عينيه، تنقبض يداه، ويأخذ نفسًا عميقًا، فمجرد تناول الطعام على مائدة واحدة مع أيٍّ من أبناء عائلة خالته لهو كابوس حقيقي.

مذ طفولته، لا سيما بعد وفاة والده، كلما وصلت والدته دعوة غداء من خالته حاول التملص منها بأي طريقة. لكن لا فائدة، أمه تصد محاولاته كلها وتجره وراءها. آخر مرة حضر بها مائدة غداء في بيت خالته كانت قبل وفاتها بأشهر، كانت غادة تبلغ ثلاثة عشر عامًا وأخوها عبدالعزيز في الخامسة عشرة. أمه كانت فخورة بشهادته وبمعدل علاماته العالي فحرصت على إحضار الشهادة معها ومشاركتها مع خالته وزوجها وأبنائها. أمه كانت تعلم أن شهادة عبدالعزيز تزينها ثلاث دوائر حمراء، إلا أنها صدقت بأن أختها ستفرح لها، وهو من دفع ثمن سذاجتها. بعد رفع المائدة دعاه عبدالعزيز مع غادة للخروج إلى الحوش كي يتسلوا بعيدًا عن الكبار. لحق بهما، لكن عوضًا عن الحوش، دخل بهما عبدالعزيز مكتب أبيه، فتح خزانة الملفات وأخرج ملف إضبارة كبير مكتوب على حاشيته **الصدقات**. *شرايكم نشوف منو الفقارى اللي أبوي يتصدق عليهم؟* أدرك خالد نية عبدالعزيز، اسم من سيقرأ مدونًا على تلك الصفحات، لا مرة، بل مرات ومرات. وعوضًا عن لكمه، صفعه، أو حتى الصراخ في وجهه، جمد في مكانه ورغمًا عنه دمعت عيناه. لم يفتح عبدالعزيز الملف، أعاده إلى مكانه وخرج برفقة شقيقته يزقزقان، تاركين إياه وحيدًا في المكتب.

«تفضل.. الغدا جاهز».

ينهض عن الأريكة وهذه المرة يسير جانبها لا خلفها في طريقهما نحو صالة الضيوف. يسحب لها الكرسي على رأس المائدة ظنًّا منه

أنها ستجلس عليه، إلا أنها أومأت إليه باسمة بالجلوس، وأخذت هي الكرسي على يمينه. ابنتها تنضم إليهما، إلا أنها اختارت الجلوس على أبعد كرسي منهما.

تتناول غادة الطبق الفارغ من أمامه وتصب له الطعام. مذ وصوله لم تسأله مرة واحدة عن أمه، كأنَّ لا وجود لها. يوثر مسايرتها فلا يتحدث عنها هو الآخر، حتى السلام الكاذب لم يتكلف نقله لها. تستهل حديثها بالثرثرة عن معاناتها مع الطبخ، عن انتظارها وصول خادمتيها من الفلبين قريبًا. أما الوليمة التي يراها أمامه فهي ليست من صنع يديها، بل من صنع يدي خادمة أخيها، والذي بالمناسبة يوجه له التحية. ثم تنتقل بحديثها عن السنة التي قضتها في لندن. جاهدة راحت تحاول جرَّ ابنتها إلى المشاركة بالحديث عن مدرستها هناك، عن أصحابها الكويتيين والأجانب الذين تعرفت عليهم، عن مشاركتها في المدرسة في معرض الأمم المتحدة حين مثلت الكويت وارتدت علمها ورفعت صورة أميرها.

«عفية عليچ.. اخترتِ تمثلين الكويت».

الصدمة التي علت وجه دانه لدى سماعها تعليقه كانت لا تقدر بثمن، كشفت له وترها الحساس الذي سيلهو خالد بضربه وقطعه ووصله، أمام عقل أمها المتفرج، أعوامًا طويلة من حياتها البائسة.

«أكيد راح تختار الكويت.. الكويت هي ديرتها وما لها ديرة ثانية غيرها تختارها».

محاولة غادة اليائسة لم تهون الأمر على ابنتها، ولا تخزير عينيها ردعها عن الاندفاع غضبًا خارج الصالة.

«ما كان قصدي.. على بالي دانه تحب فلسطين.. مثل غسان».

وأخيرًا.. أخيرًا تسنى له فتح باب الحديث عن غسان، فقد مر على وجوده على المائدة نحو النصف ساعة وكاد الغداء ينتهي ولم يأتِ بعد، أتراه ما زال متعبًا؟ كان ينوي السؤال عنه لحظة دخوله البيت، لكن مع كل الارتباك الذي انتابه ما كان ليخاطر بالحديث عن غسان، لهفة صوته وحدها كانت ستفضح نواياه.

«دانه ما تشبه غسان بأي شي.. حتى غسان.. اللي يمر فيه الحين وضع مؤقت.. وأنا ناوية أحله عن قريب».

نظرتها له لدى حديثها عن الحل أكد تفسير أمه لدعوة الغداء، خالد هو الحل الذي ترى فيه غادة النهاية لوضع غسان المؤقت. هي رمت له بطرف الخيط وهو سيلتقطه، سيتتبع الخيط حتى منتهاه:

«غسان محتاج أب يوجهه ويحبه.. يكون معاه كل يوم ويدير باله عليه.. يبعده عن المشاكل اللي يقط روحه فيها كل يوم والثاني.. غير چذي وضعه ما راح يتحسن».

ها اللحظة أزفت. بالتأكيد لن تعترض على اقتراحه الصعود إليه في غرفته للاطمئنان عليه مع طبقٍ من الطعام.

«غسان بعده تعبان في غرفته؟».

فتجيبه في حبور:

«غسان مو في البيت.. طلع مع ولد جيراننا من الصبح والحين قاعد في بيتهم.. عمة الولد اتصلت علي وطلبت مني أسمح لغسان يتغدى عندهم اليوم وياخذ الدروس والواجبات اللي طافوه أمس.. خوش ناس.. لما دقيت على عبدالعزيز وقلت له ما صدَّق.. قال لي إن الولد أبوه شهيد وبطل من أبطال المقاومة وأكيد يدرون عن منــ.. أكيد يدرون ومع هالشي ما عندهم مشكلة ولدهم يصادق ولدي.. لو تركت السالفة على غسان ما كان طلع معاه.. بس أنا أقنعت الولد لما زارنا الصبح ياخذ غسان معاه والخطة نجحت.. قلت لك.. أنا ناوية أحل مشكلة غسان.. صداقته لولد جيراننا هي اللي راح تطلعه من الوضع اللي هو فيه».

يستنهض كل ذرة سيطرة في جسده كيما يتمالك أعصابه ويمنع نفسه عن الانقضاض عليها والشد بيديه على خناقها، أراد أن يرى كيف للسخرية في عينيها أن تظل تحدق فيه وهو يدفع بروحها القذرة خارج مقلتيها. إذاً هذا هو الهدف من دعوته.. هي وابنها يلهوان به.. النوم جافاه طوال ليل البارحة.. الهواجس تجوس في صدره خوفاً عليه.. وها هو يستمتع بصحبة شخص آخر.

«خالد شفيك؟».

يراه جليًّا أمامه، ما يحدث بينهما اللحظة، ما علمه إياه في بيته، يتشاركه الآن مع صاحبه الجديد، في غرفته.

«ما فيني شي.. بس ديري بالچ غادة.. زين غسان لقى له رفيج كويتي.. بس ترى ولدچ أعصابه فالته.. وإذا تعرض بأي أذى لابن

جيرانكم.. والّا سب الكويت في بيتهم.. ترى وقتها يكون تعرض لابن شهيد.. ووقتها ما راح أقدر أحل الموضوع.. ولا راح أبي أتدخل في الموضوع».

نبرته الحازمة معها عقدت لسانها وأطفأت وميض التذاكي في عينيها. ما كان ليجلس ثانية أخرى يتحمل فيها هراءها. يتفقد ساعته ويودعها:

«سفرة دايمة..».

مرتبكة حاولت ثنيه عن الذهاب، إلا أنه لا يدير بالًا إليها. يمضي مباشرة واثق الخطى نحو باب البيت ويصفقه خلفه.

يركب الجمس وينطلق مسرعًا، لا يغادر القادسية بل يتوجه إلى مواقف الجمعية. بعد مرور ربع ساعة يدير محرك الجمس ويعود أدراجه إلى شارع بيت غادة، يقودها بتروٍّ، يفتح نافذتي السائق والراكب الأمامي، يتلفت نحو البيوت الممتدة على يمينه وتلك الممتدة على يساره، يقف ثواني معدودة أمام كل بيت، يطل برأسه، يحدق إلى النوافذ عله يلمحه يتأمل الشارع من نافذة غرفة من تلك الغرف، يرهف السمع عله يسمع صوتًا، صياحه أو صياح الولد الذي صاحبه يطرده من بيته لأنه أهانه وأهان بلده، أو لربما لأنه حاول... لكن لا شيء. كل ما يسمعه هي الأصوات المعتادة للبيوت، صيحات الأطفال، مواء القطط، أجهزة التلفاز.

يا ترى في أيٍّ منها يرقد غسان؟

في أي منها يخونه الآن؟

له أن يسأل أيًّا من الجيران عن عنوان الشهيد، إلا أنه لا يعرف اسمه، فالحقيرة لم تنطق باسمه ولا هو سألها، فما عساه يجيب إن سألوه عن الاسم. فيقرر المغادرة إلا أنه وجد نفسه من جديد ينتظر في ساحة مواقف الجمعية. ثلث ساعة ويعاود جولته، إلا أنه يصل إلى نفس النتيجة. يحتار بين العودة إلى بيته أو معاودة الجولة مرة أخرى، نصف ساعة ويعاودها. على المرآة الجانبية يتنبه إلى رجلٍ من الجيران لاحظ تلكؤه أمام البيوت فينطلق مسرعًا.

كفاه تتعرقان، رعشةٌ مؤلمة تسري في عروقه، يلتقط النفس بصعوبة، وكأنما يدٌ من حديد تقبض على قلبه تنوي انتزاعه من بين أضلعه. كل حياته، حياته كلها قضاها يسعى نحو الفرار من أمه وعائلتها، كل ما تمناه أن يصنع من نفسه رجلًا يهابه الجميع، زيه العسكري كان الدرع الذي ظن أنه سيحميه، لا شهادته الجامعية وحدها. لكن حتى الدرع الذي التجأ إليه، من بعد الغزو سقط إثر ضياع هيبة الجيش. في كتب التاريخ وذاكرة الناس أبطال الغزو هم المقاومون لا العسكر. هو انضم إلى المقاومة، وساهم في نجاح عدد من عمليات التفجير، إلا أنه مضطر إلى التواري عن بقعة الضوء البطولي، فدوره كان التسلل بالزي العسكري العراقي بين الفينة والأخرى كي يخترق حواجزهم ومقارهم. مهمة نجح بها مخاطرًا بروحه. إلا أن الزي لم يخدمه وحسب في تمويه اختراقه الجيش العراقي، بل رأى فيه التمويه المثالي لاختراق الأولاد، لا فرق معه إن كان الولد كويتيًّا أو غير كويتي، وبذا تدون الجريمة عراقية وينفض عن يديه عارها. لكن ماذا إن تذكره ولدٌ من أولاء الأولاد

إن وقعت عيناه عليه في جريدة أو لقاء، إن سمع صوته، حتى وإن بلهجة كويتية، ألن يكون قد نقف لحظتها بحصى الذاكرة على سطح النسيان، ألن تغرقه أمواجها الفائرة من الأعماق.

أكان وقوع الغزو لعنةً إلهية عليه؟ أوقع لأنه أراد الفرار من مصيره المكتوب، تحطيم دائرة طوافه القدريِّ حول بيت غادة وعائلتها. إذ ما إن لجأ إلى بيتها، ما إن عاد إلى فلكها، حتى ما عاد للغزو سبب مقنع يبرر دوامه فاندحر في عاصفة لم يشهد لها العالم مثيلًا. العاصفة اقتلعت جيش صدام إلا أنها تركته مقيدًا بحبالٍ من لهيب.

قبضة اليد على قلبه تلين

يداه تكفان عن التعرق

الرعشة في عروقه تسكن.

هذه المرة حين يدير محرك الجمس الأسود

يعود إلى بيته

مسلّمًا بمصيره تمام التسليم.

(١٧)

كادت توقع صينية الغداء من بين يديها، إلا أنها تمالكت نفسها في آخر لحظة وواصلت الصعود. الارتباك يسري فيها، يغشي حواسها، مذ لمحت جمسًا أسود يطوف الشارع في شكلٍ مريب، لا مرة بل مرتين. تبلغ مبسط السلم في الطابق العلوي، تغمض عينيها، تقنع نفسها أن ما يعتريها ما هو إلا وهمٌ من أوهامها. تتنهد تنهيدة عميقة، تفتح عينيها على مهل، وتسير رابطة الجأش نحو غرفة عبدالله.

«عبدالله.. يمه افتح الباب.. الغدا جاهز».

يتركها واقفة ثوانيَ قبل أن يفتح الباب، يتناول منها الصينية دون أن يشكرها، وبقدمه يصفق الباب في وجهها. ليس بيدها لومه، ليس بعد إحراجها إياه أمام رفيقه المزعوم. كادت تستدير عائدة إلا أنها فوجئت بالباب يفتح:

«يسلموا إيديكي خالتو».

الله لا يسلمك تجيبه في قلبها، موقنة أنه سمعها، إلا أن ردها لا يفت من جرأة ابتسامته الماكرة:

«إذا ممكن.. بس بدي أروح الحمام».

لا تتزحزح عن مكانها، فينسل عبر الحيز الضيق بينها وبين حافة الباب، تشعر به يلامس جسدها. ما إن تسمع صوت باب الحمام يفتح، تحدج عبدالله بنظرة حانقة وتنهره:

«شفت اللي سواه!».

«شسوى؟».

«إنت عَمَيْ؟ شفت شلون مر من يمِّي، اللي ما يستحي!».

«هو قالّج يبي يروح الحمام.. إنت اللي ظليت واقفة مثل الصنم.. شتبينه يسوي.. يطلعه ويبول عليج!».

لسانها يجمد على رده الوقح، عيناها مشدوهتان، تلتقط رائحة سجائر، سلة المهملات تفيض بالأوراق المجعدة، بين يديه ضبة أغلفة منزوعة عن كتبه المدرسية، يفرشها على الأرض حتى يضع فوقها الصينية. عليها أن توقفه عند حده، فليس من حقه أن يرد عليها، يزجرها، يلومها هي. هي لم تتزحزح عن الباب حتى تصد غسان، حتى تريه أنها المسيطرة، فكيف كان لها أن تتوقع ما سيصنع بها. ما إن يتناهى إليها صوت باب الحمام تهرع نحو غرفتها وتقفل عليها. ترتمي على الكرسي أمام مزينتها وتنهال ضربًا على فخذيها، كيف ارتكبت بنفسها هذه الخطيئة؟ عبدالله محق، هي من سمحت له. هي السبب.

تنهض من كرسيها، عليها ألا تفزع، ليس إلا بأمرٍ تافه، فلتشغل بالها بأمر آخر، بزينب، ستنزل إلى زينب وتطمئن عليها، ستوقظها وتحممها وتساعدها على تناول طعامها وسيهمد الهاجس الذي يعيث في عقلها. تقطع الغرفة جيئة وذهابًا، تقف وتأخذ نفسًا عميقًا، تزفره من أعمق قلبها، تستدير وتعود تقطع الغرفة جيئة وذهابًا، مرة تلو المرة. من عادة هذا التمرين أن يهدئ أعصابها، إلا أنها ما تنفك ترى الجمس في خيالها. تقطع تمرينها، تقف في قلب غرفتها المعتمة، مترددة، فقد مرَّ وقتٌ مذ لمحتها من نافذة المطبخ، وبالتأكيد لن تعود وتحوم مرة أخرى. لكن فقط كي يطمئن قلبها، لم لا تعود وتطل من جديد.

مسرعةً تمضي نحو الباب، تفتح القفل وتغادر الغرفة، تهبط السلالم متعجلة، تتوجه نحو المطبخ وتقف عند النافذة. لا أثر للجمس. تبتسم على غبائها، فتقرر إعداد الشاي حتى تهدأ أعصابها. ماء الصنبور كان يصب في الإبريق حين عادت ولمحت الجمس تجوس بخبث، رأسٌ يبرز منها يترصد نوافذ البيوت، لا تتبين ملامحه من الغترة المنسدلة. تبتعد عن النافذة وتسارع بالاتصال بجارهم، ما إن يجبها حتى تصف له الجمس وترجوه في نبرة مستغيثة كرهتها ما إن سمعتها حتى يخرج ويستفهم من صاحبها علام يحوم. تعود تقف كما الخفير عند النافذة ترقب الوضع، تلمح جارها يتوجه إلى الجمس من الخلف، إلا أن الجمس تسارعت أمام بيتها. دقائق وتسمع رنين الهاتف كما توقعت، ترفع السماعة، جارها يحاول طمأنتها، لا داعي للقلق، *واحد صايع*، ويسألها إن كانت دونت رقم اللوحة. لا ، تجيبه

خجلى. فيعود ويطمئنها، وفي طي تطميناته يؤكد عليها إقفال باب بيتها، وسينقل هذا التحذير لكل بيوت الشارع.

تقفل السماعة.

تدس يدها في جيبها،

هي أحرص الناس على قفل الأبواب، فعلام قلقها؟

تعود إلى النافذة وتسدل الستار

الإبريق يفيض بالماء

تقفل الصنبور

تفرغ الإبريق من الماء في بالوعة المغسلة.

تتناول سلسلة مفاتيحها من جيبها،

تغادر

وبعد دقائق تعود

تضع السلسلة على الصينية حيث أعدت طبقي غداء،

تحملها وتمضي نحو غرفة زينب

مطمئنةً أنها أقفلت بابي البيت

الأمامي والخلفي

ساهيةً عن نسيانها

إقفال باب غرفتها.

(١٨)

استغرب رؤيتها تتعجل خطاها نحو غرفتها، تصفق الباب من خلفها وتقفله. يتساءل عما جرى بينها وبين عبدالله، وإن كان لوجوده علاقة بما رآه منها. لدى دخوله يجد الصينية معدة على الأرض فوق فرشٍ من أغلفة الكتب المدرسية، عبدالله يجلس في انتظاره متربعًا.

«شو مالها عمتك؟».

«ما عليك منها، وحدة مو صاحية. خل ناكل، ترى أنا حيل جوعان».

يدخل تاركًا الباب مواربًا، فلا يريد لهواء الغرفة أن يعبق برائحة الطهي، ولا أن ينضح بها جلده. يجلس متربعًا هو الآخر مقابل عبدالله، ليست بالجلسة المريحة له، يمقتها مذ أيام وجرده في بيت خالد. حين أيقظه عبدالله من سباته توقع تناولهما الغداء في الأسفل على مائدة بطاولة وكراسي، إلا أنَّ عبدالله أخبره أنه بات معتادًا على

تناول الغداء في غرفته، يفرش صفحات الجرائد ويضع الصينية على الأرض وما إن يفرغ حتى يحمل الصينية إلى المطبخ ويغسل الأطباق. وحين عقّب غسان ساخرًا *وطاولة السفرة تاركينها لمين، الأشباح!* أجابه باعتيادية لم يستشف فيها أثرًا لسخرية، «إي».

يتناول عبدالله الطبق أمام غسان ويصب فيه الرز الأبيض ومرق البطاطا بالدجاج ويعيده مكانه:

«بسم الله».

لا يقولها غسان؛ ليس معتادًا عليها، لا من أمه ولا أبيه، سمعها فقط لدى المرأة العجوز التي سكن عندها، ولا يجد داعيًا لاكتساب تلك العادة الآن. يتناول الملعقة ويخلط المرق بالرز، يغرف النزر اليسير ويدنيه إلى فمه، يلوك اللقمة طويلًا قبل أن يبلعها، ولا يعقبها بلقمة أخرى، يحرك ملعقته وحسب في أرجاء الطبق. عبدالله لا يدير بالًا إليه، فهو منغمس في الأكل، يزدرد اللقمة تلو الأخرى حدَّ أنه كاد يغص. يتأمله ويقول في نفسه، ليس من الآمن تناوله الطعام وحده.

«عمتك كمان تتغدى لحالها؟».

يبتلع اللقمة ويشرب الماء:

«لا.. هي تتغدى مع أمي».

«إمك موجودة.. هون في البيت؟».

«إي.. بس معظم الوقت في غرفتها.. من يوم ما استشهد أبوي».

تخيّل أمه تحبس نفسها في غرفتها حدادًا على أبيه.. لا.. مستحيل. يرفع الملعقة بلقمتها الصغيرة وبالكاد يجبر نفسه على تناولها.

«الأكل مو عاجبك؟ والا من صجّك خايف إن عمتي حاطة سم..».

كما الجنية التي تتجلى على ذكر اسمها، تناهى إليهما صوت القفل من باب غرفتها يفتح بعصبية. أتراها قادمة إليهما؟ يثب عبدالله من الأرض ويطل من الباب.

«راحت تحت.. أكيد بتتغدى عند أمـ..». يخزر عينيه، ملامح وجهه تنشرح، يغيب عن ناظريه هنيهة ثم يعود ويطل من الباب معلنًا له في جذل:

«باب غرفتها مفتوح!».

لا يدري بم يجيب فرحته هذه، وما الرائع في كون باب غرفة عمته مفتوحًا.

يدخل ويغلق الباب من خلفه بروية، يجلس قبالته، يسرُّ إليه في صوتٍ أقرب إلى الهمس وكأن صدقًا للجدران آذان:

«أبيك تساعدني في شي... أبيك تدش غرفتها».

تفلت ضحكة متوترة منه، لأنها لا بد مزحة.

«اسمعني.. لي أغراض داخل عندها.. أبيك تجيبهم لي... صور حق أبوي.. وصور لي مع أمي وأخوي».

يعترض في همس محاكيًا همسه:

«طب اطلبهم منها.. ليه بدك أنا أدخل غرفتها!».

«طلبتهم من قبل.. ما راح ترضى.. بعدين أنا وريث هالبيت.. وغرفتها غرفتي.. هي ما لها شي عندي.. بس ما لي خلق أترجى فيها وأدخل معاها في مشاكل.. إنت روح وجيبهم.. فيه ألبومين.. ألبوم صور أصفر عليه قطوة بيضا.. وألبوم صور كبير لونه كحلي.. جيبهم.. وصورة ببرواز حق أبوي يوم تخرجه.. وصورة مبروزة لأمي وأخوي وأبوي في أول يوم مدرسة آنا مصورها.. هي ما تشيل الصور من البراويز.. أنا متأكد.. أظل أسمعهم يتراقعون في الليل..إذا صار عندك وقت.. دورلي على صورة أبوي مع المقاومة.. هو عنده صورة بولارويد بس هي خذتها من داري ..محّد غيرها.. لقت الكتاب اللي كنت خاش الصورة فيه وخذتها عندها.. أبيها.. الصورة ما تبروزت وما أدري وين حطتها.. فحاول تدور عليها في خزاناتها».

يسمعه ويجد نفسه غير مصدق، أيسمع تقارع الأموات في الليل تنادي عليه من صورها؟

«طب انت روح غرفتها.. أنا شو يعرفني بخزاناتها وألبوماتكم وأشباحكم!»

«مو يا حمار أنا اللي لازم أوقف عند الدرج.. ترى عمتي عمرها ما نست باب غرفتها مفتوح.. دايمًا تقفله.. صار لي سنين ما دخلتها.. حالف ما أدخلها!» يتريّث لحظة بعد انفعاله، ويردف في نبرة راجية أكثر، «شوف أنا أعرف عمتي.. أكيد راح تنتبه بسرعة

إنها نست. فراح أوقف عند الدرج ومتى ما لمحتها راح أصرخ: عمتي نبي شاي. وقتها طير من غرفتها ورد هني.. عفية غسان.. عفية طلبتك».

لا يدري إن كانت الحماسة دافعه، أم الولاء، الشفقة، الغباء، أو الضجر..غير أنه يوافق ويساير عبدالله في خطته. ينهضان من الأرض، يطل عبدالله من الباب، يشير إليه بالبقاء عند العتبة، يتجه نحو مبسط السلم ويطل من الدرابزين، ما إن يرفع رأسه حتى يشير إليه بالقدوم بسرعة ودخول الغرفة. يحاول غسان كتم ضحكه وهو ينفذ عملية السطو كما اعتاد رؤيتها في الأفلام، يخطر على باله إسماعيل ياسين والشاويش يتلقفه من قبة قميصه. إلا أن نهايته لن تكون مضحكة البتة إن تلقفته أخت الشهيد بالجرم المشهود، ولا ثقة لديه البتة أن ابن الشهيد سيهب لإنقاذه، ولعلها حتى حيلة منه كي يوقعه في الفخ. إلا أنَّ كل تلك الهواجس تتقهقر ما إن يفتح الباب.

عطن العتمة يخنق المكان، يكتم سعلة في صدره، ينير الإضاءة، ينقبض قلبه بمرأى ستائر كحلية دامسة وسميكة تخفي من خلفها نافذة لا بد أنها كبيرة؛ على يمينه باب، يزيحه، باب حمام. لا ورقة مهملات واحدة على الأرض، المشجب الخشبي في الزاوية معلق عليه حقيبة صغيرة واحدة، عباءة رأس وحجاب، وبرنس حمام. السرير على يسار الباب ضيقٌ وغريب، لحافه بني ولسبب ما يبدو مألوفًا لديه، ما إن يدنو ويرفع اللحاف، حتى يستوعب غسان

لِمَ يبدو مألوفًا، لأنه لحاف مستشفى، والسرير سرير مستشفى، بوسادته وملاءاته وهيكله المعدني. يعيد اللحاف ويتمهل الخطى نحو الخزائن الثلاث، هي ليست بثلاث، بل خزانة واحدة عظيمة.

يمسك بمقبض الدرفة اليمنى، يفتحها، على رفوفها كتب وأوراق وصحف وشرائط فيديو وكاميرات وبكرات أفلام، مكدسة لا خرم يدس فيه إصبعًا. يغلق الدرفة اليمنى ويفتح اليسرى، حيزها ضيق ومعلق فيها ملابس داكنة طويلة تصل حاشيتها القاع، هناك درجٌ سفلي، يجثو ويفتحه، مكدس بعلب الأدوية. يقف أمام الدرفة الوسطى ويتأمل الصورة الملصقة عليها، بطيفها الكهرمانيّ، لفتاة في مستهل صباها، تقف إزاء روشنة، ترتدي تنورة قصيرة تكشف ركبتيها وساقيها الناحلتين، شعرها الناعم الطويل منسدل كما البرقع على كتف واحدة، يغطي إحدى زنديها العاريين الصافيين. وجهها الناعم يميل شعرةً نحو اليمين، تتأمل الكاميرا بعينين محبتين واثقتين، ابتسامة عذبة مرسومة على شفتيها، أسفل الصورة مكتوب بالحبر الأزرق، *إختي الحلوة فطوم*. يتلمس الصورة برفق، كأنما يعتذر على كسر ثقتها، ويمسك بالمقبض ويفتح الدرفة الوسطى، الأكبر بين الثلاث. أربعة رفوف، السفلي يضم كل ما هو مؤطر، الأعلى منه ألبومات مكدسة، الأعلى منه دمىً وألعاب محشورة، أما العلوي، والذي لا يتبينه من مكانه، فيأخذ خطوتين إلى الخلف ويثب وثبة صغيرة، يلمح عليه صناديق خشبية. يبدأ من الرف السفلي، إلا أن قرقعة الأطر تصده عن مواصلة التنقيب فيها، على عبدالله أن ينسى أمر صوره المؤطرة إن أراد أن ينفذا بجلديهما.

يتلمس بيده حواشي الألبومات، على مهل يسحب الواحدة منها محاولًا تبين لونها، يجد الألبوم الأصفر، ينتشله من الكومة، وها هي القطة البيضاء تكشف تسلله. يفتحه ويجد صورًا لولد صغير برفقة أمه وأبيه، أخوه لا بد. وأين عساه الآن؟ ميتٌ لا بد. يضع الألبوم على الأرض ويواصل تنقيبه، يجد ألبومًا كحليًّا فيسحبه بالكامل، متنبهًا ألا تتساقط الألبومات التي تعلوه، ويفتحه، ليس الألبوم الذي يبحث عنه عبدالله، إلا إن كان يود الاطلاع على ذكريات عمته في دولة أجنبية، فهذه عمته، تعرَّف عليها من ملامحها في الصورة لا ملامحها لدى التقائه بها عند باب البيت. ذات الشعر المنسدل، ذات العينين اللامعتين الواثقتين، ميلة الوجه المغناج، التنانير قصيرة وطويلة وبناطيل واسعة بأبهج الألوان. آخر صورة لها تقف خلف سرير يشبه سريرها في غرفتها الذي يتكئ بظهره عليه الآن، محاطة بمجموعة من الزملاء والزميلات، هي أوسطهم، والكل يبتسم ابتسامة عريضة في معطفه الأبيض، رافعًا بيد لوحة مؤشرات المريض وبالأخرى سماعة القلب، إلاها هي، يداها في جيبيها، وجهها شاحب يشوبه الصفار، لا ميل غنجٍ فيه، شعرها الطويل لا وجود له، قصته، عيناها معتمتان، تحدقانً كسيرتين إلى الكاميرا، يدني الألبوم، بالكاد يتبين ابتسامة على شفتيها. يغلق الألبوم ويعيده، ويواصل سحب الألبومات إلى أن يجد ألبومًا كحليًّا آخر، يسحبه ويتصفحه على عجل، وفيه يجد عبدالله برفقة عائلته، فيودعه أعلى الألبوم الأصفر. عبدالله لم يَصِحْ بعد، ربما لديه وقتٌ كاف ينفذ فيه المهمة الأصعب، التنقيب عن صورة وحيدة

غير مؤطرة؛ له أن يخرج الآن بالألبومين ويشرح له صعوبة البحث عنها، إلا أن الفضول يأسره. يا ترى كيف يبدو الأب المقاوم الذي يدافع عن قضية ويدفع حياته ثمنًا لها؟ وهل من فرق يصنعه إن كانت القضية، التي كرمى لها اخترقت رصاصة رأسه، رابحة أم خاسرة؟ يرفع رأسه نحو الرف العلوي، صورة مصيرية كهذه على الأرجح احتفظت بها في صندوق، فيقرر البحث عنها هناك بدلًا من التنقيب في كل الألبومات. يتلفت حواليه ويمضي نحو المزينة، يحمل الكرسي ويرتقي عليه، هو صندوقٌ واحدٌ وحسب، يدنيه إليه ويأسر بصره النقش وسط الغطاء، يتلمسه، كائن غريب، مشوه، ثلاثة أجساد متنافرة منصهرة فيه، تتنازعه، أسد وماعز وأفعى، وسياجٌ شائك من أزهار مدببة تحدق به من الجهات الأربع. لو كان لصًّا بالسليقة كما يظنه عبدالله لسرقه وأهداه إلى أمه، ولكانت هديته الأولى لها التي يدفع ثمنها بعرق كدحه.

يرفع غطاء الصندوق

منديلٌ مبقع بقطرات دم متخثرة

كيسٌ مخملي مليء بكسر الزجاج

يقبض على لفافة الشماغ

دون أن يفتحها يدرك ما تخبئه في جوفها

كاد يقع

ينتشل يده عنها وتعلق بين أصابعه ورقة صفراء مطوية

يفتحها

يقرؤها

يقرؤها

يقرؤها

يطويها ويدسها في جيبه

يغلق الصندوق ويعيده محله

يهبط من الكرسي ويعيده محله

يحمل الألبومين ويضمهما إلى صدره.

يطفئ الضوء.

يغلق الباب.

يخرج ويومئ برأسه أن يعودا.

فرحًا يلحق عبدالله به

يدخلان وينتشل الألبومين من بين يديه.

جالسين على فراشه في غرفته المغلقة

يتأمله يتصفحهما

صاغرًا يسمع صدى سرده الحماسي للقصص خلف الصور.

قصصٌ يظن راويها أنه يعرفها

غير أنه لا يعرفها.

الأربعاء

(١)

بعد أن ناءت السماء ردحًا بالسحب السوداء، ها الدخان راح ينقشع بلا عودة، وها عين الشمس تبرق صافية. المعجزة الكويتية على وشك التجلي، نيران النفط ستخمد، ولعلها إذا خمدت، تخمد النار المتأججة في القلوب.

لكن ماذا عن الأربطة الصفراء الممتدة على جدران البيوت والشوارع والمدارس والملابس مثل حقلٍ من زهور عباد الشمس، تنفخ الروح في أمل يجاهد يائسًا على فراش الموت في استرجاع الأسرى والمفقودين؛ تأخذ عهدًا على نفسها والجميع *بألا* نسى. أسماء الشهداء تتردد على الألسنة كأن لم يمت أحدٌ من أصحابها، بعضهم لم يمر حتى عام على استشهاده، أهله في انتظاره، وكأن الحياة ستبعث فيه أية لحظة، فينهض عن قبره ويهيل عن شعره وكتفيه التراب ويعود إلى بيته مواصلًا حياته من حيث تعطلت. أجل! سحب النفط السوداء ستنجلي إلى الأبد بعد يومين، أسبوعين، شهرين، إلا أنَّ سحابة الصيف العابرة بين الأشقاء، ما يزال أستاذ

عاصم يشعر بها، تخيم بسوادها القاتم على أرض الكويت، ولا ثمة معجزة تطفئ لهب النار المستعرة منها.

لهذا يستعصي على أستاذ عاصم فهم الرابط الذي جمع طالبيه عبدالله وغسان، كيف لصداقة أن تنشأ بينهما، كيف لهما أن يجلسا معًا على نفس الدرج، جنبًا إلى جنب، يتبادلان الأحاديث، يزقزقان ضاحكين بلا سبب؛ ما نجا أستاذٌ واحدٌ من استفزازهما له. لا أحد منهما أدى واجبًا، حفظ قصيدة، حلَّ معادلة، ولا أجاب على سؤال في امتحان. ما عادا حتى يحملان كتبًا للمدرسة. حين استدعاهما إلى مكتبه بعد إلحاح مشرف الفصل ردُّ عبدالله الوحيد كان: *ليش أتعّب نفسي وأدرس إذا ديرتي قررت إني أنجح؟! ومو بس آنا، حتى المقيمين.. كلهم.. اللي معاي واللي ضدي!* ليغادرا فورًا مكتبه دون إذن، صوت ضحكهما الساخر منه يتردد صداه في الممر. لكن كيف؟ كيف لخطته في جمعهما، نقل غسان من فصله إلى فصل عبدالله وتوجيهه لأستاذ توفيق أن يجلسا معًا على نفس الدرج، كيف فشلت تلك الخطة في إشعال نار الحقد بينهما، كيف أصبحا أعز صديقين في يومٍ واحد! لا شيء أقل من معجزة! لا شيء أقل من لعنة!

فنجان القهوة في يده، من خلف النافذة يمعن النظر في الباص البرتقالي رقم ٦ يدخل الساحة، ومثل كل صباح، غسان وعبدالله وأيمن هم آخر من يترجل عن الباص. لكن هذا الصباح، لحظة يلمح أيمن يهدي ورقة إلى غسان ويعانقه، عاد يلوم نفسه كيف فاته التغيير الذي ألمَّ بأيمن مرعوب، اللقب الذي ابتدعه أستاذ محمد

العربي، وما فتئ يشير به إليه في اجتماع البارحة مع معلمي الصفِّ الثالث الابتدائي، ساردًا على الجميع معجزة الفصل «د».

أيمن مرعوب نال سبعة من عشرة في الإملاء الأخير، لا اثنين، لا أربعة، بل سبعة! قراءته لا تزال بطيئة *تعلّ القلب* إلا أنها تحسنت، رجفة صوته المكتوم، مآقي عينيه المترقرتين أبدًا بالدمع، الكآبة المتلفع بها من رأسه حتى أخمص قدميه امَّحت عنه، حدَّ بات يطيق أستاذ محمد رؤيته دون أن يصيح في وجهه. إذا ما زلَّ في قراءة كلمة، بدل أن يرتعش ويتلعثم ويتلفت حوله وكأنما وحشٌ كاسر سينقض عليه *على شو تتطلع يا مجنون اطّلع فيني هون*، بهدوء واتزان يعيد المحاولة. حتى خطّه المشوش ذو الحروف التائهة الممسوخة، بات مقروءًا، وإن كان لا يزال سيئًا مقارنة بزملائه. وحتى إن لم يتحسن فيه شيء، لاكتفى أستاذ محمد بكفه عن التبول والتقيؤ في الصف ليقول إنَّ معجزةً قد تحققت.

العدوى انتقلت من أستاذ محمد إلى بقية معلميه، ربع ساعة من وقت الاجتماع الثمين انقضت على ذكر ملاحظاتهم على ما رأوه فيه من تحسن ملحوظ في أدائه وتركيزه في الفصل. بات يؤدي واجباته كلها، دفاتره مرتبة، يشارك وإن على خجل، ومع كل يوم، مشاركته تتحسن. استنبط أستاذ عاصم من أحاديثهم أنَّ التغيير بدأ منذ أربعة أسابيع، حتى أحمد السكرتير أدلى بدلوه -وهو يتنفس الصعداء- كيف لم يضطر إلى الاتصال بأمه ولا أبيه لاصطحابه إلى البيت، فهو لم يتبول على نفسه مرة واحدة وما استفرغ، لا في الباص

ولا في الفصل. أحد المعلمين، أستاذ نادر، عقَّب على ملاحظة أحمد السكرتير بملاحظة أساسية من نوباته في الإشراف: وقت الفرصة ما عاد أيمن يجلس وحده كما هي عادته، بل ينتظر واقفًا أمام باب فصله إلى أن يأتي غسان وعبدالله لاصطحابه إلى المقصف أولًا من ثم التجول معه في الساحة. استغرب بدايةً اهتمام طالبين من الثالث متوسط بمصاحبة طالب في الثالث ابتدائي. وليطمئن على الوضع حرص أن يبقي عينيه على الصبية الثلاثة، لكن ولا مرة لاحظ تصرفًا مسيئًا يصدر عن أيٍّ منهما تجاه أيمن، بل على العكس تمامًا، دائمًا ما يتعاملان معه بحميمية ولطف، وكأنما يتعاملان مع أخيهما الصغير، لذا لم يجد داعيًا لإثارة مشكلة لا سيما وهو يعرف الحساسية المفرطة التي يعاني منها أيمن، والوضع الأسري الهش في بيته بعد طلاق والديه وسفر أمه. *وكيف عرفت؟ إخت صهري تعيش في العمارة قبال عمارتهم، واحد من قرايبين إمه البعاد إجى البيت وجبر أبوه بمسدس يطلقها* ويسلمه جوازها *الأردني حتى تطلع معه وعيلته من هالبلد*. ومع ذلك، فلأول مرة يراه مرتاحًا، يتصرف بشكل طبيعي كأي طفل في عمره ضمن أجواء المدرسة. جسده الهزيل بدأ يستعيد عافيته واللحم على عظمه يزيد، الاصفرار الذي اصطبغ به وجهه ذاب، كاشفًا بشرةً بيضاء كما البدر المنير.

الاجتماع انفضّ وغادر المعلمون، تاركين أستاذ عاصم يجلس وحيدًا في مكتبه، يغص بهواجسه. مترددًا، رفع سماعة الهاتف وطلب من أحمد استدعاء عمّو سمير. وعمّو سمير أكد أن الطلبة الثلاثة يتشاركون المقعد الأمامي خلفه كل صباح وكل ظهيرة؛ في الصباح

يرتقي أيمن الدرجات الثلاث واثبًا نشطًا، يجلس جانب الشباك، يخلع الحقيبة عن ظهره، يتناول منها كراس رسم، يغلق الحقيبة ويودعها أسفل المقعد، تاركًا الكراس جانبه. أما عبدالله وغسان ففي الصباح يجدهما يدخنان معًا أسفل عمود الإنارة، أمام بيت غسان، ما إن يصعدا حتى يرحب بهما أيمن بحرارة، على الأخص بغسان، يجلس غسان في الوسط ويضع كراس الرسم على حجره وعبدالله يأخذ محله على الطرف ويبدأ الثلاثة بتبادل الأحاديث أثناء تصفحهم الكراس. معظم أحاديثهم غريبة: ساحرة تلقي تعويذة النوم على الأمهات وتلتهم الأطفال على العشاء، تنينٌ ينفث الحكايا في السماء وتتبدد دخانًا، شرشبيل هجرته ماما سنفورة مع بابا سنفور ملتح إلى قرية الزرقاء وتركته وحيدًا حبيس قلعته يشد شعره ويضرب رأسه بالجدران. مطرق الرأس سرد عليه حادثة وقعت قبل أسبوعين، يومها جلس طالبٌ آخر جانب أيمن وراح يستهزئ به وبأحاديثه، محرضًا شلة أصدقائه على الإمعان في السخرية منه. في نظراته المسترقة إليه لمح الضيق يعتريه، وخشي أنه على وشك التعامل مع قيئه أو تبوله. لكن ما إن صعد غسان وعبدالله الباص، دون أن ينبس أحدهما بكلمة، حتى وقف غسان جانبًا فاسحًا الطريق، عبدالله من خلفه يتجاوزه ويقبض كما المصارعين على ساعد الطالب ساحبًا إياه من المقعد ودافعًا به إلى الخلف، صارخًا في وجهه *إن عدتها يا عرص أسفرك وأسفر أهلك!* الكل أصابه الخرس، لا أحد جرؤ على فتح فمه، ولا حتى عمو سمير نفسه. دخل غسان وبقدمه رفس حقيبة الطالب خارج المقعد، وانضم إليه

عبدالله. الطالب من ذعره جرى نحو المقعد الأخير تاركًا حقيبته، ومذ ذاك اليوم لم يجرؤ أحد على الجلوس على المقعد الأمامي أو التعرض لأيمن بنظرة أو همسة.

يقف متأملًا عبر زجاج نافذته، احتمال وقوع كارثة في مدرسته ترسخ يقينًا بعد اجتماع البارحة. ويحهم من معلمين! كيف لم يتنبه أحدهم إلى خطورة التغيير الذي طرأ على أيمن، التغيير الذي لا يراه تحسنًا على الإطلاق. فلينل عشرة من عشرة في الإملاء، فليتلو القصائد فصيحًا متقمصًا أمير الشعراء، لن يتزحزح أنملة عن موقفه أمام ولي أمره بضرورة نقل ابنه العام القادم إلى مدرسة أخرى. بصيرته المهنية والتربوية التي على ما يبدو لا أحد من المعلمين يتمتع بها سواه، تؤكد أن أيمن ليس بغبي لكن مضطرب، وما علاقته مع طالبين في سن المراهقة والقصص التي يتشاركها معهما كل صباح إلا دليلٌ دامغ على جنون اضطرابه. وارتياح أيمن الذي سعد له أستاذ نادر نابعٌ من استعداد أحدهم للاستماع إلى خيالاته ومجاراته، راحة أزاحت عن كاهليه الضغط العصبي لإخفائها ومسايرة واقع الآخرين. لا شك كان سيتحسن أداؤه المدرسي، وما علامة السبعة من عشرة سوى خدعة ابتدعها الصبيُّ لا معجزة اجترحها كما تشابه على معلميه. لكن كيف؟ كيف لم ترتعد فرائص معلم من معلميه لدى رؤية هؤلاء الثلاثة معًا، كيف لم يتمتع عمو سمير بالقدر الأدنى من الوعي وإعلامه بحادثة الباص؟ بعناق أيمن المتكرر لغسان؟ ما الذي سيدفع بصبي صغير إلى معانقة مراهق كل يوم *كل يوم!* لدى افتراقهما وكأنه واجبٌ مفروضٌ عليه؟ أتراه الثمن المطلوب منه

دفعه مقابل أن يحظى بصديق؟ ويا ترى هل لابن الشهيد نفعٌ في هذه الصفقة؟ إثر تهديده بأن يسفر أيمن ويسفر أباه؟ واحدٌ فقط تنبه مذ لقاء غسان وأيمن الأول إلى خطبٍ عظيم، وأستاذ عاصم نفسه في فورة غضبه لم يُعره أذنًا.

الدق على الباب كان خفيفًا، ولم ينتظر صاحبه الإذن بالدخول لأن دخوله كان متوقعًا.

«ملف الطالب أيمن معروف».

«خليه عالمكتب».

يتقدم أحمد السكرتير نحو المكتب ويضع الملف. يستدير أستاذ عاصم عن النافذة، يضع الفنجان من يده ويجلس على كرسي مكتبه. يترك الملف مغلقًا فهو يحفظ مضمونه لكثرة ما اطّلع عليه.

«متى موعدنا؟».

«الساعة تسعة ونص».

«اتصل فيه الساعة ثمانية وأكد عليه الموعد».

«ما أظنش في داعي..».

يحدجه بنظرة حانقة، إذ لم يعتد سماع اعتراض من أحمد على أمر من أوامره. لكن سرعان ما بادر أحمد إلى تبرير موقفه:

«البارحة كان جدًّا عصبي في كلامه، وخايف إن اتصلنا عليه مرة تانية يبطل وما يجيش».

في أوقات كهذه، أوقاتٍ باتت تحل عليه أحيانًا كثيرة، يتساءل أيهما الأسوأ في التعامل، على أيٍّ منهما يحرق دمه ويستنزف خبرته: الطلبة أم أولياء أمورهم؟ يزفر وينتزع نظارته، يميل بكرسيه إلى الوراء، تقع عيناه على الفنجان الأسود المتخثر، ويدرك أنه لم يحتسِ منه رشفة، بل ظل حاملًا إياه في يده كما الأحمق، والقهوة لا بد باتت باردة الآن. يضرب بيده طاولة المكتب غير عابئٍ بوجود أحمد؛ مذ متى فلت الزمام من يده، مذ متى صار يسهو عن التفاصيل، مذ متى ثلة أولاد مجانين فاشلين باتوا ندًّا له. حتى الرجل الواقف أمامه، والذي يومًا لم يقاطعه ويناقش أوامره، ها هو يفتي عليه وكأنما يفوقه فهمًا وعلمًا.

«راح آخد بكلامك هالمرة، بس إذا ما حضر، فالمسؤولية عليك».

«بإذن الله هيحضر».

يقولها مترددًا. إذًا هو غير واثق، ومع ذلك يؤثر تعريض نفسه للتوبيخ الشديد على أن يتعامل مع ولي أمر من نوعية معروف. قبل أن يغادر يحمل أحمد معه فنجان القهوة، مطمئنًا إياه أنه سيرسل إليه بفنجان آخر بعد دقائق.

شمس اليوم الساطعة ستغرب على يومه الأخير رجلًا تربويًّا، على الرجل الذي صنع كل تلك السنين، المعلم الذي كرس حياته لطلبته، الوكيل الذي نصَّب نفسه حاميًا على قلعة مدرستهم؛ اليوم، الساعة التاسعة والنصف، هذا الرجل سيسقط. المعركة انتهت

وغسان انتصر عليه. السكين التي وضعها في يد أيمن مرعوب مذ صباحهما الأول، سينتزعها أستاذ عاصم من يد الولد ويودعها يد أبيه. يفتح الدرج العلوي، يتناول ملف غسان ويضعه جنبًا إلى جنب مع ملف أيمن. يفتح الملف على صفحة بياناته الشخصية حيث صورته وعنوان بيته. الصورة المدبسة أعلى الورقة لا علاقة لها بشكله اليوم، وحدها لن تكفي. هو حتى لا يبدو اليوم كما بدا أمامه قبل أربعة أسابيع حين جلس على المقعد أمامه. مذ تلك اللحظة وهو يكره في غسان كل شيء، وإن يظل محتارًا أيهما يمقت فيه أكثر، كويتيّته التي ينكرها، أم فلسطينيته التي يدَّعيها.

ما إن يسمع قرع جرس طابور الصباح ينهض عن المكتب ويعود يتأمل الساحة الترابية المهجورة، آثار أقدام الطلبة، الباصات الكبيرة البرتقالية تقف متهالكة، مثقلة بصدى أرواح من غادروها. رائحة فنجان القهوة تسبق أحمد، لا يلتفت إليه لدى دخوله ووضعه الفنجان على المكتب.

«أستاذ عاصم».

«نعم».

«عمّو سمير بلغني إنه عمّو عادل هيجي الساعة تسعة ونص، نفس موعدكم مع الأستاذ معروف، بس أنا راح أخليه يدخل بعد ما تخلصوا اجتماعكم».

«لأ، موعده صح، خليه يدخل مع معروف».

«آه.. تمام».

ردحٌ من الزمن يمر على صوت إغلاق أحمد الباب، القهوة لا بد بردت.

وللمرة الأولى من مرات عديدة لن يحضر أستاذ عاصم الطابور.

لن يقف على شرفة الإدارة ويرقب الطلاب يهتفون بالنشيد.

لن يكترث إلى خفوت حماسهم على مر السنين.

سيتأملهم طالبًا طالبًا من خلف نظارته،

ولن يأبه أيٌّ من طلبته العاقل،

أيّهم الكسول،

أيهم المشاغب،

وأيّهم سيأتي مدرسته مضطربًا محملا بالسكاكين والقنابل.

لن يفزع كل مرة يتلفت حوله في اجتماعات المعلمين،

ولا يجد فيهم معلمًا واحدًا يستحق حمل رسالة التعليم.

ففي تلك اللحظة

أمام النافذة

سيتخذ آخر قرار تربوي في حياته

في صالح آخر طالب اكترث وإن بنزر يسير لحاله.

حسافة!

أستاذ عاصم أرادها نهايةً كويتية تحرق نيرانها المستعرة السماء.

غسان أرادها نهايةً فلسطينية تخضب أرض الشتات بالدماء.

هي مشيئةُ المنتصر،

فلتكن لغسان نهايته التي يشاء.

(٢)

ساعة أبيه حول رسغه، ما انفك يسترق النظر إليها بين الفينة والأخرى، ومع دخول الحصة الثالثة، بات يسترقها بين اللحظة واللحظة، وكأنَّ بيده أن يعجّل من عقاربها نحو وقت الفرصة، فرصته التسلل وتدخين السيجارة التي دسها غسان في جيبه دقائق قبل أن ينعس وينام مع بداية الحصة الأولى.

بات يعاني من الأرق، كذا قالت له آنتي غادة في اتصالٍ من اتصالاتها الليلية به. اتصالاتها أمومية تطمئن فيها على ابنها عن طريقه، تلك كانت حجتها لدى خطف عمته السماعة من يده وسؤالها عما تريد أول مرة اتصلت به ليلًا أول خميس من كل خميس سيقضيه غسان في بيته. كادت عمته تقفل السماعة في وجهها لولا أنه انتزعها من يدها ونهرها. فوجئ لتصرفه معها وتوقع من عمته أن تعاقبه أشد العقاب، إلا أنها وقفت مشدوهة معقودة اللسان. اعتذر من آنتي غادة وطلب منها معاودة الاتصال بعد دقائق، نزع السلك من المقبس وحمل الهاتف إلى غرفته حيث يوجد مقبس

لسلك الاتصالات وركبه. جلس على حافة سريره قبالة مكتبه، منتظرًا رنين الهاتف، عيناه على عقارب ساعة الحائط، الدقائق تمر ولا رنة. أتراها تراجعت عن معاودة الاتصال بعد سماعها زجره عمته، فمن يفعل فعلته هذه ليس بالصديق المثالي لأي ابن. لكن بعد عشرين تكة، ها هي الرنة، ملهوفًا يرفع السماعة، وحتى قبل أن يتيقن أنها هي، يهمس اسمها، *آنتي غادة*، ويسمع اسمه عذبًا على لسانها. ولا كلمة نطقتها من بعد اسمه فقه معناها، لأنها لم تكن تنطق، بل تغرد، تهدهد قلبه، تدفئ صدره، رأسه ينوس، أنفاسه تتثاقل، يضطجع على جنبه، عيناه تغمضان، شبه نائمٍ يهمس لها *وانتِ من أهله*، السماعة تنسل من يده، وكما الحلم، يجد يده وكأنما تقمصتها روحٌ تائهة، تنسل دون علمه وفهمه، إلى سرواله الداخلي، ليغرق من بعدها في سباتٍ عميق.

إلا أنَّ الهدهدة الحنون استحالت مع الليالي الأخيرة استنجادًا فزع. تطمينه إياها ما عاد يهدئ من روعها ويستجلب رضاها عنه. غسان ما عاد ينام، بالكاد يأكل، هزيلٌ حدَّ نتوء عظامه، ومع ذلك يطيق الثرثرة بلا توقف، يهذر على مسامعها ومسامع أخته حكايات أبيه، ليس بفخر كما اعتاد أبوه أن يرويها، بل ساخرًا متشككًا. يعرض عليهما ملاحظاته، يبين لهما التناقض بين حكاية وأخرى، التعارض في الحكاية نفسها كل مرة رواها أبوه. باتت تشك في صحة عقل ابنها إذ أن بعض تلك الحكايات لم تسمعها على لسان زوجها، فلا بدَّ أنها صنيعة خياله. ولدى مواجهتها إياه، أكد على خطئها، هي لم تستمع لكل الحكايات، هي نسيت أنها لم تقضِ معه

سنة الغزو، في تلك السنة كل حكايات أبيه كانت جديدة، وسيرها العجائبي دائمًا ما انتهى بتتويجه لا بطلًا فلسطينيًّا وحسب، بل بطلًا عراقيًّا.

إلا أنَّ اتصالها به فجر اليوم، على غير موعدها، كان الأشد فزعًا، سمع نحيبها ما إن رفع السماعة. حاول تهدئتها كي يفهم منها، فراحت تسرد عليه في نشيج متقطع كيف أنَّها كانت نائمة في غرفتها حين فوجئت بغسان يهزها من كتفيها، راجيًا إياها أن تمضي معه نحو غرفته. قلقة وثبت من على فراشها، لم يمنحها فرصة سؤاله عما انتابه، من يدها جرها إلى غرفته وأشعل الإنارة.

حائطٌ بأكمله ألصق عليه رسومات طفولية، حين سألته عمَّن رسمها أمسك بها من كتفيها، دفع بها نحو الحائط، محاصرًا جسدها بذراعيه وساقيه كي ترى ما يراه. كان يهذي خلفها، يروي لها بحماس حكاية جنة السنافر حيث لهما أن يعيشا معًا بعيدًا عن هنا، وسيصحبها في زيارة إلى كوخ الساحرة الشريرة، فهي ليست شريرة، هي مثله، ويعرف ما أصابها، من لعن عينيها الفرحتين، من أحال كوخها اللذيذ المشرق المبهج بألوان الحلوى إلى غرفة معتمة تفوح نتانة آسنة، فقد قرأ التعويذة، لا..لا.. هو سمعها، سمعها في حكاية أبيه، لكن لم تكن حكاية أبيه.. بل حكاية عبدالله.. لكن عبدالله لا يعرفها.. لأنها ليست بحكايته وحده. ما إن رأى الدموع في عينيها حتى انهال عليها يقبل وجنتها ويطمئنها، مشيرًا لها على لوحة أعلى يمينها لطائر أحمر بجناحين كبيرين ينفث سحبًا سوداء

في السماء، هامسًا في أذنها ألا داعي للخوف من التنين الذي يحرس الغابة لأنه قتله، قتله فجرًا برصاصة في رأسه، هو وحاملو القناديل الصغيرة قتلوه، وعند قدميه الهامدتين رموا بالشمس.

بات عصيًّا عليه فهم بقية كلامها، ما استشفه من أنينها أنَّ غسان دفع بها على الأرض لأنها ما كانت لتسايره في قصته، صرخ فيها طاردًا إياها من غرفته، ألّا فائدة منها، لن يتوسل عونها، هو وحده سيحرر نفسه من الحكاية الأخيرة ومن أعماق البئر سيمسك بالشمس. صفقت السماعة دون انتظار ردٍّ منه، ليتها منحته الفرصة لأخبرها بمصدر اللوحات، أنها هدية من ولد يشفق عليه غسان، يصغي إلى قصصه الطفولية ويسايره في خلق أحداثها، ويعود الولد ثاني صباح راسمًا إياها له.

ليس غسان وحسب من يسايره، هو أيضًا، لا سيما قصته عن الساحرة الشريرة، شخصيته المفضلة من بين كل تلك الشخصيات، إذ دائمًا ما تخيَّل نفسه يتناول معها أخاه الميت على مائدة العشاء. لكنهما بالتأكيد لا يصدقان أيًا من حكاياه، فكم مرة ضحكا في الفصل كلما استرجع أحدهما تفصيلًا مما رواه وتشاركه مع الآخر. ليتها منحته الفرصة لشرح لها، لقدم لها النصيحة التي استقاها من خبرته الطويلة في التعامل مع المجنونة في بيته، في التعامل مع طيف أبيه، لأكد لها أن التفسير لما حدث بسيط، أنَّ غسان كان ليلتها تائهًا بين عالمين، بين اليقظة والمنام، لكنه لم يجن، حتمًا لم يجن. مجرد كابوس رآه، وبدل أن يعيشه وحده جرَّ أمه من عالم اليقظة وأقحمها فيه.

هو أدرى بذلك لأن غسان أسرَّ إليه بالكابوس بينما كان مستلقيًا جانبه على فراشه مساء خميس، كل منهما سيجارته بين شفتيه. غسان وأمه أمام مرآة كبيرة، في بيتهما القديم، تضم قنديلًا صغيرًا بين يديها وهو واقفٌ خلفها، يتأمل على انعكاس المرآة عينيها وعينيه، يمشط شعرها الطويل الناعم، يده هي المشط، الغرفة تتوهج، المرآة مشعشعة ببريق الشمس الحبيسة في القنديل حدَّ باتت تحرق مآقي عينيه، فيرجو أمه دامعًا أن تطلقها، إن لم يكن شفقةً بالشمس فشفقةً بعينيه، إلا أنها تأبى، فإذ بغضبٍ جامح يجرفه، يدفعها نحو المرآة، صورتهما على المرآة تتشظى، يحاصرها بجسده محاولًا انتزاع القنديل من يديها، لاهثًا في أذنها كل مرة يضرب بجسدها المرآة حتى يفك أصابعها المتشابكة، أنه سيعيد بيديه كل شظية محلها ما إن تعود إليه عيناه، إلا أنها تظل على عنادها، أغادير دافئة تسري على جلده البارد، تهمد خاضعة بين يديه، يقلبها على ظهرها، فلا يجد أمه ولا القنديل، بل الشمس، كما يرسمها أيمن، في ثوبها الأزرق السماوي، بشعرها الذهبي، بعينيها الزيتونتين، ممزقة إربًا، مضرجة بالدماء، كل عينٍ من عينيها مفقوءة بشظية زجاج، أنفاسها الأخيرة الحارة تتصاعد غمامًا أبيض في عتمة الغرفة، على صور تنانين وسنافر وساحرات. يصغي عبدالله إلى المنام ويفاجأ ببردة فعل جسده، كفا يديه تتعرقان، قلبه يخفق ويرف، فيسرع إلى الحمام، رغبة تجتاحه في الحلول محل غسان المستلقي على فراشه، أن يكون هو من يمشط شعر آنتي غادة بأصابع يده، هو من يدفعها نحو المرآة، من يقبض على لحمها وعظامها وعبيرها بين ذراعيه. تمنى لو أنَّ وسادته تخطف

الكابوس عن ذهن صاحبه وتعيره إياه ليلة واحدة، يختلي بها وحده على سريره بعد اتصال آنتي غادة، إلا أنه حين عاد وجد غسان قد غادر غرفته قابضًا على كابوسه.

يسترق نظرة إلى ساعة أبيه، دقائق وحسب. الأجدر به أن يوقظ غسان الآن، فلا داعي لإضاعة دقائق ثمينة من وقت الفرصة. برفق يربت على كتفه هامسًا *غسان.. غسان.. يلّا قوم* لكن لا فائدة. لحظات ويعيد المحاولة، ومرةً أخرى لا يستجيب. يفكر بتركه نائمًا متى ما رن الجرس، فالسيجارة والولاعة في جيبه. لكن كيف له أن يتجاوزه، فغسان من يجلس على الطرف الخارجي، الحائط من خلفه، وسيصعب عليه أن ينزاح بجسده من الدرج واثبًا نحو الدرج الأمامي، فقد يكسره. وإذ برنين الجرس العالي يخزق فقاعة أفكاره، وكما الزنبرك يثب رأس غسان عن الدرج مفزعًا إياه.

خلينا نطلع.. بسرعة..

بالكاد سمعه، لكن هذا ما يراه غريبًا في حديث غسان في الأيام الأخيرة، كلما اشتعل حماسًا تشوّش صوته. وميض البرق في عينيه يسطع في خيال وجهه الذابل. نهوضه السريع وقفزه فوق الحقائب المرمية بين الأدراج يتناقض مع هزال جسده، مع نومه ثلاث ساعات في الفصل في وضعية لا بد يبّست عظامه. ينادي عليه، بالكاد يلحق به على درجات السلالم، يراه يدفع بالصبية، وحتى المعلمين، يزيحهم يمينًا وشمالًا وكأنما تأخر على موعدٍ مهم، والجميع يقف في طريقه إليه.

الساحة مكتظة. يبحث عن وجه غسان في هذا الجمع من وجوه الطلبة والمعلمين التي ما عاد لها من ملامح تميز الواحدة عن الأخرى. لا يلمحه، لكنه يعرف وجهته، فيمضي نحو صف أيمن، ويجدهما هناك يتحادثان. عينا أيمن مشرقتان على مرأى غسان، وما إن تلمحاه حتى تكفهران.

يصل إليهما ودون تبادل كلمة يمضي الثلاثة نحو المقصف، غسان لن يأكل شيئًا، فقد أسر له هذا الصباح أنه يشعر بالغثيان. هو حتى لم يدخن بعد، احتفظ بسيجارة الصباح في جيبه لعله يجد في نفسه الرغبة لتدخينها في الحمام. وعبدالله لم يجد متعة في تدخينها وحده تحت عمود الإنارة، فقرر الانتظار معه حتى وقت الفرصة. ليته لم يفعل. يشتري غسان كيس شيبس لأيمن. يتناول أيمن الكيس، يفتحه ويمد يده نحو غسان محاولًا إقناعه أن يشاركه، يصده بلطف، لكن مع إصرار أيمن يطيح غسان بالكيس من يده ويمضي مندفعًا نحو الحمام لا يلتفت حتى إلى صياح الولد يناديه باسمه.

يحاول أن يتدارك الوضع، يحاول طمأنة أيمن أن غسان متضايق بعض الشيء، ردة فعل أيمن تفاجئه، يحدجه بنظرة غاضبة وكأنما الخطأ ليس في تصرف غسان بل في تصرفه، ويلحق بغسان جريًا مناديًا عليه. غسان واقفٌ أمام رواق الحمام، ما إن يصل أيمن إليه حتى يربت غسان على رأسه، وسرعان ما يعانقه كعادته. يميل غسان نحوه، يهمس في أذنه ومعًا يدخلان الحمام، يدًا بيد. ويرتئي

أن خيرًا له، رغم لهفة قلبه على تدخين سيجارته، ألا ينضم إليهما. سيدخل لاحقًا بعد خروجهما ويدخنها وحده.

ينحني عبدالله ويلتقط الكيس والوجوه الضاحكة المرمية، يستدير إلى الخلف ماضيًا نحو صندوق القمامة في الزاوية، ويفاجأ بوجه مكفهر مألوف يرقب رواق الحمام من على درجات السلم المعتم. هذه المرة لا يحمل تحت ذراعه إضبارة كبيرة من الأوراق.

هي ورقة واحدة وحسب، قابضٌ عليها كما القابض على النار.

(٣)

كلما رآهما معًا شعر بدائرة وجوده في حياة غسان تضيق، تطبق عليه، بكسوفٍ عملاق يعزله عنه.

في مستهل صداقتهما لم يرَ تهديدًا في وجود عبدالله، لكن مع الأيام، أحاديثهما الجانبية في حضوره ما عاد عقله قادرًا على ملء الفراغات بينها. نظرات عينيهما، تخزيرهما، تدخينهما، رفع حاجبيهما، أنصاف الكلمات، يتبادلها الاثنان فيدخلان فجأة في نوبة ضحك، ما يضطر أيمن إلى الضحك معهما جاهلًا علام يضحك. وإن توجه بالسؤال إلى غسان كي يساعده على ملء الفراغات، قاطعه عبدالله وردّ عليه بأن تلك أحاديث كبار وهو لن يفهمها. هي نفس الحجة واللعنة. الثلاثة يمضون صباح كل خميس معًا، في التنزه والتسكع في الجمعية وشوارع حولي، أما الظهيرة والمساء فهو مقصيٌّ عنهما لأنه *ولد صغير*.

إلا أنه وجد طريقة يستأثر فيها بغسان وإن لبضع دقائق. فرغم تخليه الكليّ عن جنة السنافر، اكتشف أن حكايتها هي الحديث

الوحيد الذي يضمن انتباه غسان الكامل له. حين حدثه عنها أول مرة في الباص، حين أراه كراس أحلامه حيث رسم وأمه خطة هروبهما، كان يمني النفس بتطهير روحه من تلك الحكاية. سردها متأملًا من غسان أن يدحضها ويستهزئ بها، أن ينتشل الكراس من بين يديه، يمزق أوراقها ويرمي بها على أرض الباص كي يدوس الجميع عليها وأولهم أيمن، ولوطئ عليها بقدميه بلا ذرة ندم. لكن حدث ما لم يضعه في الحسبان، غسان آمن بالحكاية، كما آمن بها هو وأمه في ماضٍ بعيد.

يومها، لدى دخول الباص الساحة الترابية، طلب غسان منه أن يهديه الورقة التي رسم عليها الخريطة، بدربها المتقطع بين الشوارع والعمارات ووصولًا إلى أشجار الغابة وعلامة الإكس الزرقاء الكبيرة. نزعها أيمن من كراسه وأهداها غسان، وغسان طواها وطواها ودسها في جيبه. ومذ ذاك الصباح، وفي كل لقاء لهما على الباص، يتناول غسان الكراس من المقعد ويضعه على حجره، يتصفحه معه. كل مرة، لوحة تأسر اهتمامه، فيسأله عن تفاصيل أكثر، ثم يطلب منه ورقة الرسم التي سأل عن تفاصيلها. لدى اقتراب الرسومات على النفاد، وخشيته من فقده غسان، ما إن عاد إلى البيت حتى تناول كراسًا جديدًا وراح يرسم عليها تفاصيل حكاية الساحرة الشريرة، دوامها المكتبي الطويل وكوخها الصغير، صداقتها مع عدوتها اللدودة الشمس، تناولها الأطفال على مائدة طعامها كل مساء، دعوات العشاء التي لا يستجيب لها أحد.

تلك القصة لم تثر اهتمام غسان بقدر ما فعلت مع عبدالله الذي ما فتئ يقاطع بتعليقاته السخيفة طاغيًا على غسان فيخفت وهج حديثه الصباحي معه، حتى وإن كان لا يزال يصغي إليه وهو يروي حكاية الساحرة. البارحة ختم حكايتها مع لوحة تنزهه برفقة الشمس على الدرب الأخضر الموشى بالمشروم الأحمر وبالأزهار من كل الألوان، وانتظر من غسان أن يطلب منه الرسمة، إلا أنه لم يفعل. فنزعها أيمن بنفسه وكاد يهديه إياها، إلا أنَّ عبدالله انتزعها منه مطالبًا بها، فليس من العدل أن يحظى غسان وحده بكل الرسومات. انتظر من غسان أن يعترض، إلا أنَّ عينيه كانتا ساهيتين عنه في تيهٍ يعرفه، تيهٍ غشِي عينيْ أمه. الرجفة في قلبه تنبئه بفقدٍ جديد. لكن لا، ليس غسان. لذا قضى البارحة يرسم رسمة خصيصًا له، لوحة تضطره إلى السؤال عن تفاصيلها وهكذا سيتذكر حكايتهما، لوحة تحفظ صداقتهما إلى الأبد. هديةٌ ليست له وحسب، بل لنفسه في عيد ميلاده الغد، خامس خميس مذ يوم التقائهما.

كان قسَّم ورقة الرسم البيضاء أربعة مربعات: في المربع الأول رسم الباص وعمود الإنارة، في الثاني رسم عمارتين مع سيارة تنطلق على الشارع بينهما، في الثالث رسم وجوهًا ضاحكة تتساقط من السماء، وفي الرابع رسم ولدًا من دوائر وخطوط، ساقاه ضلعا مثلث منقطان بالأحمر، تبرز من رأسه دائرتان صغيرتان، يمسك بيد ولدٍ أكبر يحمل في يده قلب حبٍ كبير. وكما علمته أمه، كتب اسمه وتاريخ اليوم في الزاوية اليسرى لأنه صاحب الرسمة، وفي الزاوية اليمنى إسم المهدى إليه.

كان سيهديها إليه هذا الصباح ما إن يصعد الباص، لكن في اللحظة الأخيرة، قبيل وقوف الباص أمام عمود الإنارة، تردد عن إهدائها إليه أمام عبدالله، فطواها وخبأها ناحية الشباك. أراد لهذه الرسمة أن تخصهما هما وحسب. لذا انتظر خروجهم من الباص، استغل فرصة تقدم عبدالله أمامهما فأهدى الرسمة مطويةً إلى غسان، عانقه وركض يسبقهما نحو مدخل المدرسة.

على مدار الحصص الثلاث تلذذ أيمن بخيالاته، سعادة غسان لدى فرده اللوحة، شرحه المستفيض تفاصيل كل مربع لعبدالله والذي سيدرك أخيرًا أن صداقته لأيمن هي الأهم في حياته، لا صداقتهما. نشوة حماسه انعكست على أدائه في الفصل، جلس متنبهًا لكل ما يقوله الأستاذ، مستعدًّا للمشاركة والإجابة على أي سؤال. نبرة صوته العالية وهو ينادي على أستاذه كي يختاره للإجابة تخبئ منية قلبه الوقوف أمام الفصل، تناوله الطباشير البيضاء والملونة من يد أستاذه، رسم اللوحة بمربعاتها الأربعة على السبورة، ومشاركة حكايته وغسان مع الجميع.

يقف متلهفًا أمام الباب، يلمح غسان يقبل عليه مسرعًا، إذًا لا بد قد رآها. لا ينتظره يصل باب فصله كما المعتاد، من لهفته يقطع المسافة الفاصلة بينهما. *عيد ميلاد سعيد أيمن معروف* حب الدنيا بأسرها ضمه غسان في تلك الكلمات وإليه أهداها. لم يتوقعها منه، جناحا قلبه يطفقان جذلًا، عقله يخشى منها عليه، وخشيته كانت في محلها.

«بعرف إنه بكرة ميلادك مو اليوم.. مو ناسي.. بس حبيت أهنيك اليوم لأنه احتمال ما أشوفك بكره.. تعرف ليه.. لأنه بكره الشمس راح تصير حرة.. تدخل وين ما بدها.. ومن بعدها أنا وماما راح نهرب.. إختي ما راح تطلع معنا.. هي مكانها هون.. مع خالي.. بس أنا لأ.. وماما أكيد.. أكيد هالمرة راح تختارني أنا.. بس بالأول لازم أروح على بيت الساحرة الشريرة حتى تكسر ضلوعي بأسنانها.. حتى تنزع قلبي من صدري وتبلعه وتريحني منه.. بعدها بس فيني أروح عجنة السنافر».

عينا غسان تلمعان، عينا أمه حين دخلت غرفته وودعته إلى الأبد دون قبلة واحدة *الله معك.. دير بالك على حالك* قبل هروبها من بيتها، قبل لجوئها إلى عائلة ذاك الرجل الملتحي الذي اقتحم بيت أبيه ليلًا. لكن لم عليه أن يفرَّ إلى جنة السنافر؟ لم لا يود البقاء معه هنا؟ ألا تكفيه صداقتهما، ألا يعي أن مرآه منية عينه العزيزة، بهجة قلبه الوحيدة، ولا جنة هناك في عرض الأرض ولا في السماوات يأوي إليها سواه؟ لكن لا، لن يجزع، هو من ابتدع بيده الحكاية، وبيده أن يصيِّرها رمادًا، وسيقنعه بأن جنة السنافر ما هي إلا الجحيم. لكن ها هي الأرض تنشق بينهما على خطى عبدالله الثقيلة، لا طائل في وجوده من أي حديث. لذا يلتزم الصمت، ويمضي معهما إلى المقصف حيث يشتري له غسان شيبس الوجوه الضاحكة.

ما إن يتناول الكيس حتى يفتحه ويمده نحو غسان كي يشاركه الوجوه، فلربما إن رآها تذكر هديته، تذكر خميسهما الأول، فينسى

أمر جنة السنافر. مع كل خفقة قلب لا يمد فيها غسان يده، يأسٌ موجع يتملك صدره، عليه أن يتصرف، عليه أن يفعل شيئًا، فيمد يده الأخرى في الكيس ويتناول حفنة من الوجوه يدسها في جيب غسان ويمازحه *الفلسطيني ما يرد الضيافة* فينتفض غسان غضبًا ويطيح بالكيس من يده، ويمضي مبتعدًا.

يجمد في محله، صرخةٌ من قلب قلبه تنادي عليه ولا يلتفت، وجوه الشيبس الضاحكة المبعثرة تستهزئ به. يحاول عبدالله طمأنته، يفسر له تصرفات غسان بأنها تصدر أحيانًا دون تفكير أو مراعاة لشعور من حوله، لسان حاله وكأنما يقول *أنا أدرى به منك.. أنا أقرب إليه منك*. وها هو وجهٌ ضاحكٌ آخر يهوي كاشفًا وجه عبدالله الحقيقي، هو يسعى لإبعاده عن غسان، يزكي شرارة الغضب في قلبه كي يحطم صداقتهما فيحتفظ به لنفسه. لا! لن يقع ضحية خدعته. لن يقف ساكنًا مكتَّف اليدين ويدعه يسلبه غسان كما سلب الكويتي الآخر أعز ما على قلب أبيه.

هو ليس أباه.

لن يبيع غسان، أبدًا لن يبيعه، لا بالغالي ولا بالرخيص.

وأيًّا يكن المكان الذي سيهرب إليه، هو سيلحق به.

سواءٌ لديه إن نحو الجنة يصعد

أو يهوي في غياهب الجحيم.

(٤)

ما عادت تتمالك نفسها؛ مذ ذاك اليوم الذي تركت فيه باب غرفتها مفتوحًا. ما إن وطئت قدماها الغرفة حتى تيقنت أنَّ أحدًا دخلها، سلبها غرضًا من متاعها. اللص واحد ولا أحد غيره. ما ينفك يرمقها بنظرة الشامت. يستعلي عليها برفعة المنتصر. يزجرها بأوامره.

عطيني مفتاح غرفتي

من اليوم التلفون يظل عندي

كل خميس رفيجي راح يزورني

عطي أمي حبوبها حتى تنام وما تفضحني

لكان بيدها استرجاع ما سلبه منها. لكان بيدها فتح الباب بنسخة مفتاحها متى ما كان في المدرسة، فهي عمته، الراشد الوحيد في هذا البيت. لكنها ليست بوريثة، لا حق لها بموطئ قدم في بيت أخيها، ليس بوجود ابنٍ حيّ، ابنٍ ما إن قرأ الورقة المطوية حتى

سلبها آخر شذرة من كرامتها، صيَّرها خادمة له جبرًا لا برضاها. حتى أنه لم يقرأها ويتركها خلفه، بل سرقها كي يعلمها أنه قرأها وما اهتزت فيه شعرة، أنها لهذا الحد رخيصة في عينيه، بل أرخص من التراب الذي يطأ عليه.

العلبة الأخيرة في يدها، تفرغ جعبتها من الحبوب في المرحاض وتسحب السيفون. انتظارها هذا اليوم مذ أربع أسابيع طال وطال وها قد انتهى. زينب أفاقت تشتهي إعداد غداء حبيبها المنتظر. وسيجري كل شيء كما المعتاد، مع اختلافٍ بسيط، روحٌ أخرى ستزهق في هذا البيت، ابنٌ يقتل أمه، يكسر عنقها، أو يرطم رأسها بطرف طاولة أو بجدار فيهشمه، وإن خطأً، محاولًا السيطرة عليها، في نوبة من نوبات جنونها الفجائي، ولا أحد كان معه يعاونه عليها، العمة كانت في حجرتها تبحث يائسةً عن حبة مهدئ، واكتشفت أن لصًّا حقيرًا دخل غرفتها، أفرغ علبة الدواء تاركًا إياها خاوية. *ومن عساه يكون؟* لا تدري، لا أحد غريب دخل بيتها عدا جارها الفلسطيني.

تعيد العلبة الخاوية -الوحيدة التي احتفظت بها- وتدسها في الدرج السفلي من مزينتها، تغادر غرفتها وتترك الباب مغلقًا دون أن تقفله. تهبط درجات السلالم في طريقها نحو المطبخ حتى تتأمل زينب تطهو مائدة الغداء الأخير، وإذ يرن جرس الباب مرةً.. مرتين.. رنينٌ متعجل. تقرر ألا تجيب، فلا أحد من أقربائهم وجيرانهم بات يزورهم، وعبدالله لديه المفتاح. لا بد أنه عامل

مخطئ في العنوان وسيغادر ما إن يسأم. وإذ بالرنين يستحيل طرقًا على الباب، طرقًا قويًّا يكاد يكسره، وقد يكسره ويقتحم عليها البيت. تصعد أدراجها مذعورة عائدةً إلى غرفتها، تفتح دفة خزانتها الوسطى وتتناول المسدس من الصندوق وتهرع نزولًا نحو الباب وتفتحه مصوبةً المسدس في وجه الطارق.

والطارق تعرفه، تعرفه جيدًا.

وهو كذلك يعرفها، يعرفها جيدًا.

يقف أمامها لاهثًا

قميصه الأبيض مبقعٌ بالعرق

عيناه محتقنتان

كان يبكي

وها هو يعاود البكاء

يرفع لها قبضة يده

يفتحها وإذ بغرضها المسلوب هناك

قد قرأ المكتوب على سطورها، وسمع ما لم يكتب عليها.

سمعه على لسان أبيه

على لسان صديق أخيها

والقائد العراقي.

المسدس في يدها، إصبعها على الزناد، الطارق لا يكترث لرجائها المرتعش بالابتعاد، يرتمي على صدرها وبكلتا ذراعيه يضمها، كل الجدران من حولها تنهار، أبواب خزانتها الثلاث تشرَّع، أرففها تهوي، البيت المعتم من حولها يغصُّ ضياءً، الشمس تعمي عينيها، تخزق الصقيع على شغاف قلبها وتذيبه من على نافذتي روحها.. دمعة تنساب على وجنتها.. مفجوعًا يردد عليها.. فتواسيه بقبلة دامعة على جبينه مثلما واساها:

مو بس إنتِ.. وأنا كمان.. وأنا كمان..

(٥)

المرة الأولى التي يتشاركان فيها المقعد دونه. الحيز الخاوي يفصل بينهما وكأنما صاحبه موجود. لا أحد منهما يمد يدًا عبره، يبعث بكلمة، بنظرة، بابتسامة. أيمن ما انفك يحدق إلى الشباك، لم يلتفت إليه لدى صعوده وما التفت لدى جلوسه. ليته واصل الخطى وجلس في مكانه القديم، هناك بعيدًا في الصف الأخير. لكن أملًا غبيًّا ما لبث يحدوه مذ فرار غسان من المدرسة وقت الفرصة أنه سيجده في انتظاره ههنا. فليهرب لأربع حصص، فليهرب لسبع، لكن فليعد، فليعد ويتشارك معه شقاء رحلة الباص.

ما عساه يقول لآنتي غادة، كيف يبرر لها إضاعته ابنها طوال تلك الفترة، جلوسه مطمئنًا هانئ البال لأربع حصص دون أن يفعل شيئًا، دون أن يتصل بها حتى من مكتب المشرف. أكان لزامًا عليه الفرار هو الآخر وملاحقته أينما يذهب، مثلما لاحق أباه في كل ما يفعل. لم يسأله أبوه يومًا إن كان خائفًا، إن كان يؤثر البقاء في البيت على المخاطرة بحياته كل مرة يخرج فيها معه. لم يسأله إن كان

يزعجه أنين الجرحى من خلف خزانة الحائط، دماؤهم على فراشه، لم يسأله إن كان يحب هذه المدرسة اللعينة التي لم يجد نفسه يومًا فيها، إن كان يستمتع برحلات الباص المقيتة، إن كان يود عوضًا عن ذلك الجلوس بين أناسٍ ينتمي إليهم وينتمون إليه.

كل هذا حتى يغرس فيه القومية العروبية؟ لكن ما الذي منعه من غرسها في أخيه، لماذا أدخله المدرسة الحكومية دون تردد، لماذا هو وأمه توليا توصيله من المدرسة وإليها بالتناوب، على صوت هدى حسين تنشد أروع أغانيها. كلما روى عليه أخوه أحاديثه ومزاحه مع أمه وأبيه في السيارة، المرور السريع على بقالة الإيراني صباحًا وظهرًا مكافأةً له، الغصة تقبض على قلبه. آخر مرة رأى فيها أخاه، كان قبيل خروجه للمدرسة، يجلس جذلًا على المائدة، يؤرجح ساقيه، يدندن *قطاري*، وتصوَّره يغنيها صادحًا بعد دقائق في السيارة بينما يقف هو وحيدًا أمام البيت في انتظار الباص يمر على الجميع قبل أن يصل إليه. أمه تنادي عليه، فينهض من كرسيه ويلوح له مودعًا، تمتمها في قلبه ولم يعنها، وسيقسم ألف مرة بالله العظيم أنه لم يعنها. *الله ياخذك*. كان غضبًا عابرًا وحسب، وما توقع أن ينبثق من غضبه جناحان مدججان بالشوك فيطير يطفق جناحيه المسخمين ملاحقًا أخاه، وما إن ينزل عن السيارة حتى يحط بمخلبيه على رأس سائق فيدهسه كما القطار السريع أمام عيني أمه.

أتراها تعرف أنه من قتله. ألهذا أفزعته من منامه وطردته خارج البيت. *ابن الحراام ما أبيه في بيتي ما أبييييه* تصرخ ملتاعة في وجه

أبيه، لكن أباه ما كان ليقبل بأي رجاء، سدَّ فمها براحة يده وزعق في عمته آمرًا اياها أن تأخذه إلى غرفتها وتقفل عليه دونها اكتراث لصياحه وبكائه. تالي صباح فتحت عمته الباب وراحت تتصرف كأن أمه لم تحاول حرقه فيها البارحة؛ ذهب إلى مدرسته وعاد، ولم يجد أمه.

ها هو بيت غسان، وبعد ثوان سيعلن صرير الباص وصوله محطته الأولى. يلتفت نحو أيمن، هاجسٌ في قلبه ينبئه أنه الوداع، أنه لن يرى الصبي ثانية، لن يجلس على هذا المقعد ثانية، ولا على أي مقعد في هذا الباص. ولأنه الوداع،

فلا بد من كلمة أخيرة.

دير بالك على نفسك

ينهض دون انتظار رد منه، يترجل عن الباص، حملٌ ثقيلٌ ينزاح عن كتفيه ما إن يطأ الأرض. يحث خطاه، البوابة مشرَّعة، على غير العادة، يصعد الدرج الرخامي، يتناول من جيبه المفتاح، يدخله القفل، يسترعي انتباهه وجهان ضاحكان.

وجهٌ مرمي على العتبة، ووجه أمه واقفة بثوبها الزهري في الانتظار.

(٦)

لحق بها إلى المطبخ، توقع رؤية عمته هناك لكن لم يجدها. لم عساها تترك أمه وحدها، ليس أبدًا من عادتها. هي أحرص منه عليها وعلى سلامتها. يتمهل قبل سؤال أمه، إذ لا يود تعكير مزاجها. لعل عمته في الحمام وستعود فورًا، فيسحب كرسيًّا ويجلس عليه. هو في أمس الحاجة إلى محادثة عمته، إلى سؤالها عمَّا أتى بغسان إلى بيته، أتراه توقع هروبه ولحاقه به ما إن يدرك غيابه، وحين لم يجده عاد إلى بيته خائب الأمل؟

يتأمل ساعة أبيه، الساعة التي صاح في وجه عمته قبل أيام كي تنتشلها من غرفتها وتحضرها إليه. وصاغرةً أحضرتها إليه. لسبب غريب باتت تستجيب لكل طلباته، مذ سلبها الألبومين. استقواؤه عليها يتضخم كل مرة تخضع له ولا تصيح في وجهه. حتى النظرة الحانقة ما عادت ترمقه بها. تمشي في الأروقة والمطبخ والصالة وكأنها طيفٌ ميت يحوم في هذا البيت. أجل كان غاضبًا عليها، فليس بيده تنفيس نار غضبه على أمه وأبيه، لكنه يريد عودتها، وسيراضيها،

حتى أنه سيعتذر عما بدر منه بشأن ورث البيت ويقسم لها أنه لن يكرره، وسيعيد إليها الساعة وحتى الألبومين وكل ذكرى يحملها، لا يريد شيئًا منها، فلتسلبه كل ذكرياته، فلتعرِّي البيت من كل أثر، فقد قرر أن يبدأ من جديد، وأول قرارٍ له هي الوحيدة التي بيدها أن تعينه عليه. تحويل أوراقه إلى مدرسة حكومية.

الوقت يمر، أمه تعد المائدة، ترتب الآنية على نفس المشهد. أين تراها عمته؟ لا يعقل أن تقضي كل هذا الوقت في الحمام. وها هي أمه تأخذ مكانها على الكرسي، واللحظة وحسب يتنبه للتغيير. لم تسأله ولو مرة واحدة عن أبيه. لم تقف للحظة تتأمل ساعة الحائط. اليد لا تعتصر الأخرى، اليمنى لا مبالية تدق بأصابعها الطاولة، واليسرى متكأٌ لها، لوجهها الضاحك الذي ما فارقها، وجهٌ طفوليٌّ يحدق إليه بعينين شامتتين. والأطباق، هناك طبقٌ خامس.

«عمتك عندها ضيوف». قالتها مزقزقة ما إن لمحت عينيه على الطبق.

«ضيوف؟» ويدب الذعر في عروقه، إذ يجد نفسه أمام خيالٍ جديد، وحيدًا دونما عون. ما عساه يصنع؟ لا علم له البتة بدوره في هذا المشهد.

«مو ضيوف.. ضيف». وترفع له إصبعًا واحدًا.. تميل برأسها تجاهه.. وتهمس، «في دارها» وتصفق كفيها وتنفجر ضحكًا.

«يمه.. يمه.. أبوي جاي في الطريق» يلقنها في صوتٍ خفيض

علّه يوقظها، علها تنتبه إلى مخالفتها النص المتفق عليه، أن ارتجالها هذا سيعود عليها بالأذى. فجأة تكف عن الضحك وتشير إلى الباب، مشدوهة العينين. أتراه أبوه، هل أخيرًا قرر زيارته مذ اختفائه في بيت أيمن؟ يلتفت مفعمًا بالأمل وإذ بقلبه يهوي. هي عمته، وإلى جانبها غسان.

«مو قلت لك». وعادت إلى زقزقتها.

غسان، يكاد يقول شيئًا، لكن عمته تلتفت إليه، تضع يدها على ساعده، بكل حنان، وتطلب منه الانضمام إلى المائدة. غسان ينظر إليه وكأنما ينتظر منه ترحيبًا، إلا أنَّ عبدالله يبقى على صمته. تجلس عمته جانبه وغسان مقابله. تبدأ عمته في صب الطعام، لا صوت سوى زقزقة أمه وقرقعة الآنية، وما إن تصب للجميع، تجلس وتستهل حديثها موجهةً كلامها إليه.

«عبد الله.. ما عندي دوا اليوم.. قطيته كله.. وما راح أجيب غيره.. زينب مكانها مو عندنا.. لازم ترجع على المستشفى».

كيف تتجرأ وتحادثه عن أمه أمام غسان. كيف قلبت مقامه من ابن الشهيد إلى ابن المجنونة في لحظة. أهذا انتقامها منه على إهانته لها الأسابيع الماضية. أهذه صفعتها التي خبأتها له، وأمام من، أعز صديق، صديقه الوحيد.

«مو بكيفچ.. أمي ما فيها شي.. فترة وتعدي».

تمد يدها وتضم يده برفق:

«ما راح تعدي.. ما راح تعدي على خير.. كانت راح تموت المرة اللي طافت».

ما بالها تحادثه وكأنها تكترث، من أين استحضرت هذا الأداء العاطفي، النبرة المتحشرجة العذبة، اليدين الدافئتين، وما بال عينيها، ما بالهما محمرتان، محتقنتان، هي عينا أمه بعد أن تنهمران في البكاء. ما الذي فعله بها غسان؟ أي حماقة ارتكبها مع عمته في غرفتها؟ أصنع بها ما يتخيل صنعه مع آنتي غادة، أتراه مساء غادر غرفته قابضًا على كابوسه، سلب عبدالله مناماته أيضًا، وها هو، أجرؤ منه وأرجل منه، اقتحم بيته في غيابه وعاشها مع عمته.

«غسان يدري بكل شي.. أنا قلت له.. بكل الأحوال كان راح يعرف.. لأنه من اليوم راح يعيش معانا.. فترة ليه ما يحل مشكلته في البيت مع أمه».

أخٌ آخر. أخٌ حظي بقلب عمته، من لا قلب لها تمنحه، وها هو يحظى أيضًا بقلب أمه، تجلس الآن إلى جانبه، تداعب شعره، تدني الطبق إليه كي يأكل.

«فترة؟» يسحب يده من يد عمته ويلتفت إلى غسان، «وشكثر هالفترة غسان.. يوم.. أسبوع.. شهر.. شهرين.. سنة.. عشر سنين.. عشرين سنة.. عطني فترة محددة.. عطني التاريخ اللي راح تحل فيه مشكلتك وتطلع من بيتي».

«قلت لك.. راح يظل ليه ما تنحل مشكلته».

«أبي أسمعه.. أبي اسمعه.. شفيك صرت أطرم مرة وحدة.. ما

عندك شي تقوله؟ وشنو مشكلتك مع آنتي غادة اللي مو عاجبتك؟ اللي تخليك ما تتحمل تقعد عندها وتقعد عندي؟ إنت شايف أمي بعينك.. هه.. وشايف عمتي.. والظاهر شفتها عدل.. وشكلك راح تظل هني ليه تشبع منها أو هي تشبع منك».

الصفعة على وجهه، وبقدر ما تؤلمه، إلا أنه توقعها.. ويستحقها. ليت بيده أن يقول الشيء ذاته عن ألم الطعنة في ظهره.

«اطلع على غرفتك فوق.. أنا أدبر أموري مع زينب..».

ينهض من المائدة على وقع تهليل أمه، لاعنًا في قلبه كل الجالسين عليها، أولهم هو. غسان ينهض من الكرسي مناديًا عليه إلا أن عمته تمسكه من يده:

«تركه.. أنا أرجع أكلمه».

لكن غسان.. غسان الذي يعرف ويحب.. يفلت يده من يدها ويقف أمامه.. صادًّا طريقه.. مشرعًا جسده.. عالمًا أنَّ بيده أن يهمده اللحظة على الأرض ويحطم ما تبقى فيه بركلة واحدة على صدره.. هذا ما يريده.. ولكان لبّى تمنيه، لولا ما رآه في عينيه، نفس ما يراه في عيني أمه في نوبات جنونها. الألم. ألمٌ لا تسعه المحيطات وتسعه مآقي العين. ولو أنه حضن أمه كل مرة تجن بدل أن يتلعها من عنقها لبكت على كتفه.. لانساب الألم دمعًا بدل أن يتفجر كرهًا بغيضًا تقذف حممه على نفسها وعليه.

ولو كانا وحدهما.. هو وغسان.. لربما.. لربما كان سيحضنه..

لربما كان سيتركه يبكي على كتفه.. ولرحب به في قلبه قبل بيته.. لكن الصفعة جرحت كبرياءه.. هروبه من المدرسة من دونه خذله.. ائتمان سره لدى عمته لا لديه زلزله.. لا شيء بات بيده فعله الآن سوى هذا.

يضع يده على ساعد غسان، برفق يزيحه عن طريقه، ويمضي متجاوزًا إياه.

(٧)

فوجئ بقدومه الساعة. أبكر بكثير من موعده، وإن بوجه ممتقع كما العادة. عيناه محمرتان، ينظر بهما نحوه وكأنما يراه للمرة الأولى في حياته. لم ينكز كتفه مزيحًا إياه عن الكنبة كي يعود إلى غرفته، بل وضع يده على كتفه، برفق، سائلًا إياه:

«كيفك ابني؟».

«أنا! أنا منيح».

يستغرب أيمن سؤال أبيه عن حاله، هو من لم يكترث يومًا لسؤاله. ليس بتلك النبرة التي توحي أنه حقيقةً يهتم.

«انت متأكد؟ كل شي منيح معك؟».

«آه بابا.. كل شي منيح».

ما باله لا يزال واقفًا، أينتظر منه أن يزيح نفسه بنفسه؟ يد أبيه الأخرى تمتد نحوه، تحمل له كيسًا أسود من البقالة.

«جبت لك علكة وشوكولاته معي».

يتردد أيمن إن كان عليه أن يقبلها، ليس قبل أن يستمع إلى شرط أبيه بمسح الابتسامة الغبية عن وجهه، وإن لم يكن مبتسمًا لحظتها. لكن أباه لا يعرض عليه أي شروط، يده تظل ممتدة نحوه، فلا يجد خيارًا آخر سوى أن يخاطر ويقبل بها.

«شكرًا».

يد أبيه التي كانت على كتفه، تربت الآن على شعره، وها هو يجلس جانبه.

«طيب بابا.. أنا رايح على غرفتي». ويهم بالنهوض إلا أنَّ أباه يستوقفه:

«وين رايح؟ خلينا نقعد مع بعض شوي.. قبل ما ست سلوى تبعت الغدا».

لا رغبة لديه في الجلوس معه، ومذ هروب أمه وهو يتجنب القرب منه. إذ مع غيابها ألن يبحث له عن رأسٍ آخر يرطمه بالباب، عن صدرٍ آخر يرفسه، عن ظهرٍ آخر ينهال عليه صفعًا. ولا يظن أنَّ جسده سيحتمل نزرًا مما احتمله جسد أمه.

«حاضر بابا».

يضع الكيس الأسود من يده على المنضدة. لا يعود محله، بل يجلس على الكنبة الصغيرة الأقرب إلى الرواق، في حال اضطر إلى الفرار بجلده. أبوه يربت بكفه على الحيز جانبه، داعيًا إياه إلى العودة والجلوس معه.

عقله وقلبه يرددان متفقيْن، مهزومين: *ما من مفر. ما من مفر.*

ينهض ويجلس جانبه، يداه مضمومتان بين ساقيه، ورغمًا عنه ترتسم على شفتيه الابتسامة الغبية.. وليته.. ليته كان سنفور غبي.. لكنه ليس بسنفور غبي بل إنسان.. ومن ذا الذي سيهب الآن إلى نجدته من قبضة شرشبيل.. هل سيكسر عبدالله الباب.. هل سيرفع غسان مسدسه الخفي ويطلق الرصاص الفارغ في الهواء.

«اليوم كنت عندك في المدرسة. الوكيل اتصل عليّ ليشوفني».

يرى من ملامحه أنه يترقب ردة فعله، وكأنما توقع من ابنه معرفة السبب الذي دعا الوكيل إلى الاتصال به. أيمن يعرف سببًا واحدًا لاتصال المدرسة بوالديه، وقد مر ردحٌ لم يرتكب فيه ذاك السبب.

«خبرني إنه علاماتك متحسنة كتير الفترة الماضية، الوكيل وأساتذتك كلهم فرحانين فيك».

«عن جد!».

«عن جد».

ينحني أبوه ويقبله على رأسه. دفءٌ يغمره، يعانقه، كلُّ قبلات الشمس تهوي ذابلة على ملمسه.

«إنت ابني.. وكنت أعرف إنك ولد شاطر وذكي ومنيح.. بس.. بس أنا قصرت معك كتير».

عينا أبيه تدمعان. يشيح بوجهه عنه ويكمل حديثه مطرق الرأس:

«إمك هي السبب.. كان لازم تدير بالها عليك أكتر... بس

عقلها راح على محل تاني.. وهلق هي كلها راحت.. بس قبل ما اطلعها من حياتنا لازم تدفع تمن اللي صار معك.. مو بس هيِّ.. هُمِّ الاثنين راح أدفعهم التمن غالي».

وهل يقصد أبوه بالاثنين أمه وبابا سنفور؟ أم أمه والله؟ فأمه سعت إلى الفرار من قلعته بمعونة أحدهما، نحو جنة أحدهما. لكن اليوم، في هذه الساعة، يدرك الفرق بين أمه وأبيه. فأبوه لم يهرب يومًا من مصيره، لم يسعَ إلى الهرب يومًا والبدء من جديد، حتى حين وصل الأمر إلى فقدانه كتابه الأول، قَبِلَ أن يبيعه برخيص كي لا يترك كتابه وحده بين يدي الغريب. وها هو اليوم معه، يحتمل مكرهًا الجلوس إلى جانبه، رغم الخزي الذي ألحقه به كل تلك السنين. أبوه من بقي، ولا ثالث بينهما.

بعد برهة من الصمت، يرفع أبوه عينيه، ينظر إليه نظرة غريبة، وكأنما يشفق عليه:

«أيمن».

«نعم بابا».

«بدي اسألك سؤال.. انت ولد شاطر وراح تفهمني.. وأكيد راح تجاوب عليّ بصدق».

«أكيد بابا.. أكيد».

يجيبه بكل اللهفة.. وسيعود يقولها بكل اللهفة ألف مرة حبًّا بأبيه.

«إنت عندك رفيق في المدرسة تلعب معه؟».

«آه عندي.. عندي رفيق في المدرسة أحبه كتير».

قلبه يخفق جذلًا، فأخيرًا سيتسنى له أن يشارك خبر رفقته لغسان مع أبويه، أحدهما على الأقل، وكم سيفخر به إن علم أنه اختار فلسطينيًّا مثلهما.

«وشو اسمه.. رفيقك؟».

«اسمه غسان.. تعرف بابا انه من فلسطين.. إحنا نعمل الكنافة في نابلس وهو يزرع البرتقال في يافا!».

يقولها متحمسًا، متوقعًا من أبيه أن يعجب بمعرفة ابنه ما يفترض بكل فلسطيني أن يعمل لو كان لا يزال يعيش في قريته. لكن خطبًا يلم بأبيه، عيناه تجمدان، ولوهلة، ظنَّ أن النفس انقطع عنه، قبل أن يعاود حديثه بصوتٍ أخفض:

«هو معك في الصف؟».

«لأ بابا.. هو ولد كبير.. لأ مو ولد.. هو رجّال.. يعني مو رجّال متلك... بس كبير.. وعقله كبير.. وقلبه كبير.. أنا وياه نحكي مع بعض في الباص.. ووقت الفرصة ناكل مع بعض.. مو بس في المدرسة.. حتى يوم الخميس أطلع معه.. يمر عليّ هون في البيت وياخذني من الباب نروح على الجمعية.. يشتري لي شيبس وشوكولاته ونحكي عن السنافر وعن غراندايزر والمصارعين وعن أخته اللي ما يحبها.. هو ما يحب النسوان.. ههه.. تصدق مرة

حكي إنه العالم لو كان فيه بس رجال يصاحبوا بعض.. متل قرية السنافر قبل ما يبعت لهم شرشبيل سنفورة.. كان راح يكون أحسن بكتير..».

الجزئية الأخيرة لم ينطقها غسان يومًا، ولا يدري أيمن لم قالها، لم شعر لحظتها بضرورة أن يشاركها أباه على لسان غسان، كأنما قلبه انتهز الفرصة وأطلقها في الهواء في غفلة من عقله. لكن يبدو أن أباه لم يتقبل ما قال، فقد دفن رأسه بين كفيه. لا يدري إن كان يتنهد بعمق أم يبكي.. لكن في الحالتين.. في الحالتين هو ليس بغاضب عليه، لربما استغرب وحسب حديثه الحماسي عن غسان. فيقرر المسارعة في تصحيح الوضع كي يطمئن لصداقته:

«بابا... ليش ما تقعد بكره الصبح في البيت وتشوفه.. راح تحبه كتير... متل ما أنا أحبه كتير».

يبدو أن خطوته كانت موفقة إذ يرفع أبوه رأسه، وجنتاه محتقنتان، عيناه جامدتان:

«أكيد راح أشوفه.. أكيد.. هو رفيقك ويهمني أعرف مين هو رفيق ابني.. لأني ما بدي حدا يجرحك».

«غسان! غسان عمره ما راح يجرحني! هو يحبني.. هو ما يرضى حتى يزعلني.. تصدق بابا اليوم.. اليوم وقت الفرصة قبل ما ياخدني على الحمام خبرني في إدني انه يحبني ولمَّا ضرب إيدي ما كان قصده أبدًا يزعلني».

يبلع أبوه ريقه، ولولا حماسته التي غشت عينيه لاستوعب

أيمن نظرة أبيه التي يعرفها جيدًا لكن لحظتها تاهت عنه لأنه ما كان ليسمح لعقله أن يريه إياها:

«أكيد.. كل الناس تحبك.. إنت ولد طيب.. بس أنا أبوك ولازم اطمن.. هاد واجبي.. واجبي إني أحميك».

يحميه! ليته كان يعلم من قبل أن أباه سيحميه، حتى وإن كان لا يحبه، لكان سيكفيه أن يعرف أنه سيحميه لأنه واجبه وسيؤديه. لو كان يعلم لما استيقظ كل صباح بقلبٍ ينشب أظفاره في أضلعه محاولًا الفرار، لما فتح عينيه على شفير الهاوية في انتظار من سيدفع به اليوم في ظلمتها، فيجد يديْ أبويه من تدفعان به نحو جوفها. لكنه بات يعلم الآن، بات يشعر بذراعي أبيه بدل أن تدفعا به تحضنانه، تحضنانه بدلًا من ذراعي غسان. ذراعا أبيه أقوى، ذراعا أبيه لا تكتفيان بالوقوف معه على شفير الهاوية كذراعي غسان ومعًا يتأرجحان أمام الريح، بل تحملانه عن الصخور المتساقطة من أسفل قدميه، يبتعد به خطوةً خطوة عن الظلمة الموحشة.

«ابني.. رفيقك غسان عمره لمسك؟».

يجفل أيمن على السؤال، إذ لم يفهم المغزى منه، فكيف لغسان ألا يلمسه، هو صديقه، فكيف لا يلمسه؟!

«أكيد لمسني!».

ويضع أبوه يديه على فخذيه، يشعر برجفتهما، أتراه يتفقد بنطاله ليرى إن كان مبللًا، أيظن أنه لا يزال يتبول على نفسه؟

«عمره.. عمره لمسك هون؟».

يحتار في الإجابة التي يريد أبوه سماعها، فغسان لمس فخذيه، أول مرة حين التقيا في الباص، وثاني مرة حين بدَّل ملابسه. وكلتا الذكريان تعنيان له الكثير. بعد هنيهة التردد يجيبه:

«آه».

رجفة يدي أبيه تزداد، تدنوان أكثر نحوه، تستقران فوق يديه المضموتين بين ساقيه، الدموع تحتشد في عينيه، تأبى التساقط على خديه، سائلًا إياه:

«وهون؟».

على مرأى دموع أبيه، لدى سماعه حشرجة الرجاء في صوته، يدرك أيمن ما استحال عليه إدراكه حتى في أسعد أحلامه وخيالاته، أنه الأعز على قلب أبيه، أعز من كتابه الأول الذي لم يذرف دمعة واحدة عليه، فالذعر لم يخنق صوته يومها حزنًا على فقدانه من بين يديه. هو انهال ضربًا على أمه لأنها هي من استفزته. والخطأ كله خطؤها. لأنها تعمدت أن تشعر أباه أنه غبي ورخيص. هو لن يفعلها. لن يستفزه ويعارضه، سيجاريه. وها هو، دامع العينين، يمنحه الإجابة التي يريد:

«آه بابا.. هون كمان».

وفي طرفة عين يجد نفسه مغمورًا في حضن أبيه وبذراعيه يطوقه، يجهش ببكاء لم يعهده ودونما وعي يقبّله، يعتذر ويعتذر،

يرجوه الصفح عن خطيئته. وأي خطيئة يعني، خطيئة تركه وحيدًا، تحطيمه أشلاءً الكرة تلو الكرة كل مرة يدفع به من حافة السماء فقط حتى يمتحن صلابته، ثباته على لملمة كسر قلبه وعظامه من الأرض ولصقها بعضها ببعض والنهوض من جديد، ليرى بعينيه أنَّ ابنه *رجّال*.

وما كان عساه سيفعل أمام توبة أبيه سوى أن يغفر له ذنبه؛ وكذا سيغفر لأمه ذنبها لدى استعطافها إياه على فراش موتها في رسالة صوتية بعد تسعٍ وعشرين عامًا. سيغفر لهما كل ذنبٍ بحقه ارتكباه، وسيغفر لهما هجره واكتفاء كلٍّ بزوجه وأولاده. لكن مهما استعطفته وتوسلت غفرانه، لن يغفر لنفسه جبنها الذي حال بينه وبين سؤال عقله أن يملأ الحيز الفارغ من حكايته مع أبيه ذاك النهار.

تسعة وعشرون عامًا تمر متوالية على مقتل غسان

على سقوطه وحيدًا في جوف الهاوية

شمسٌ تشرق في سماء الكويت

وشمسٌ تشرق في سماء فلسطين

لا شمسٌ منهما ذرفت دمعةً على ابنها الذي مات

ولن يسأل أيمن نفسه المسكينة

لن يسألها إلا مع أفول شمس يومه الأخير

برصاصة واحدة في رأسه

كيف لها

كيف لها أن خانت صاحبها الوحيد غسان.

(٨)

ما إن تطأ قدماه خارج البيت لا يهتدي إلى وجهة. كأنما الأرصفة ذابت. كأنما شعاب الأسفلت وغدران القار امتزجت بعضها ببعض. ما كان ليعود إلى حيث يفترض به أن يعود، وما كان ليبقى حيث يجب عليه البقاء. أترى هذا ما رآه أبوه في ذاك الفجر المشؤوم، لدى وقوفه أمام البيت الذي عاش فيه ضيفًا مقيمًا؟

يأخذ الخطوة الأولى، إذ أليست هي الخطوة الأهم، أليست تلك هي النصيحة التي أسبغتها عليه خالتو فاطمة في غرفتها حين فرد اللوحة المطوية بمربعاتها الأربعة، وتناولتها هي منه، حتى ترى كل شيء بعينيها، وأبقتها لديها. نحن الآن على عتبة حياة جديدة. خذ الخطوة الأولى وسيتدبر الله بقية الطريق. وماذا إن تاه، هل له أن ينادي على الله ويسأله عن الإرشادات؟ أجل، سيناديه، سينادي عليه بين الخفق والخفق، وإشفاقًا بقلبه المخلوع سيسمعه، وسيشق الطريق أمامه من جديد؛ سينصب السلالم، يدججها بأسهم عملاقة تنأى به عن الوقوع في فك الأفاعي، وسيصل به، مع كل ضربة نرد

تهوي من يده، إلى المربع الأخير، إلى حيث سيلقي بجسده المنهك على فراشه ويخلد إلى نومٍ عميق. وها الله يحقق وعده، ويجد نفسه على بادئ السلم الأول، يتوهج برتقاليًّا في ضيِّ الشمس الآفلة.

يقطع الشارع، يقطع الساحة الخاوية، لا يلتفت نحو صدى المنادي الهائم فيها. يصعد درجات السلم مندفعًا نحو الطابق الثالث، إلا أنَّ المنادي يتمكن منه ويقبض على ذراعه قبل أن تطأ قدماه الدرجة الأخيرة.

«لا ترن عليه.. أبوه موجود».

الصدى البعيد بات هسيسًا، مشيرًا إليه بسبابته أن ينزل معه.

«بكرة ترجع له الصبح.. تع هسه».

وها الأفعى تلقفه وينزلق عليها نحو الدرجة الأولى، وتصحبه إلى بيت السلم؛ عيناها تلمعان في العتمة.

«ما عرفتني.. عادي.. منّي زعلان.. أصلًا صرت أحس حالي متلي متل البسس.. إنت فيك تفرق بين البسس؟ لأ.. ولا فيك تفرق بيني وبين أي ولد فلسطيني يلعب طابة في ساحة عمارة أو يرمي حجارة على دبابة». لم يقلها ممتعضًا بل بارتياح المؤمن الذي تقبَّل أخيرًا حقيقة وجوده. ثم مال برأسه إليه، «بس أنا بعرفك غسان.. وفيني أميزك من بين ألف ولد فلسطيني.. متل ما فيني ألقط فضولي من أول نظرة».

يبتعد غسان عنه خطوة، ظهره يصطدم بالجدار:

«ليش ناديتني؟».

يستدير الولد ويتكئ بظهره على الجدار ملاصقًا إياه:

«ناديتك حتى لا تنضرب.. إنت ما تعرف أبوه لأيمن.. أنا بعرفه.. إيده تقيلة.. وإنت مبين عليك ما راح تتحمل كف منه».

«لا تخاف عليّ .. وبعدين أنا مو أول مرة انضرب!».

يقولها فخورًا، مشيرًا إلى أثر الجرح على جبينه، وسام الشرف الذي يرميه في وجه كل من يشكك في رجولته، في فلسطينيته.

«صدقني الغرز اللي على راسك ولا شي قدام ضرب أبوه لأيمن.. لو شفت إمه كنت عرفت.. وبعدين.. بعدين أنا غير عنك.. إنت.. إنت شكلك يعني.. غريب شوي.. افتكرتك سوري والا عراقي.. أنا من كلامي بعدين مع أيمن لعرفت إنك فلسطيني.. ههه.. مع إنه من كلامك خليني أخبرك.. إنت ما بتحكيهاش صح.. حتى لو تحكيها صح .. تضلها مو صح.. مو لسانك وحده اللي يفضحك.. كل شي.. كل شي فيك يخليني أعرف إنه ما فكش تتحمل الضرب الحقيقي متلنا.. ما فكش تكون معنا.. قلبك رقيق كتير على عيشتنا».

أهلس على تلقيه التقييم النقدي الأول على أدائه دور الفلسطيني، فقط ليكتشف في النهاية أنه لم يكن موفقًا فيه. أتراه رأي الجميع؟ هل رأوا في أدائه كلَّ الأخطاء السبعة الفاضحة، لكن خوفًا على مشاعره الرقيقة تجنبوا نقده؟ ليته حادث الولد الفلسطيني سابقًا، لكان تعلم منه تصحيح عيوبه في اللهجة والتمثيل.

«شكلك زعلت مني.. لا تزعل.. أنا ما بعرفك.. ولا بعرف شي عنك غير اللي خبرني اياه أيمن قبل كم يوم.. خبرني عن أبوك وكيف انقتل على إيد الكويتيين.. كان يخبرني إنه كلامي قبل التحرير كان صح.. أنا خبرته وقتها إنه الفلسطينيين راح يتقتّلوا متل ما تقتلوا في كل أرض هربوا عليها.. خبرته عن صبرا وشاتيلا.. وحتى يشوف بعينه فرجيته صور الجرايد اللي أبوي خلاها عنده وما رماها كل هالسنين.. وحالف إنه ما يرميها.. خبرته كيف حاصرونا وقتلونا.. كيف حق الرصاصة استرخصوها فينا.. تعرف.. تعرف هالمجنون شو مفتكر.. مفتكر إنه أبوك وقت ما مات.. فدا بموته كل الإمهات والأولاد الفلسطينية.. إنه لما واحد من الكويتيّة سحب مسدسه وقتل واحد فينا خدوا حقهم وارتاحوا.. ما صار في داعي يقتلوا البقية.. ولأنهم بعدهم متحملينا عطونا حق الموت برصاصة حتى لا تكون ميتتنا رخيصة».

«أيمن حكي هيك؟».

«آه والّا.. مع إنه هالولد فيه يقعد ساكت أسبوع كامل وما ينطق بحرف.. بس إمتى ما فتحت الباب لأيمن يضلّه يحكي ويحكي ويحكي.. هالولد مجنون رسمي.. خياله واسع كتير.. فكل ما زهقت من عيشتي بعمل حالي صاحبه واتحركش فيه لحتى يحكي لي أي شي.. خبرني إنه وحدة عايشة لحالها في عمارة من هالعمارات عزمته على العشا عندها من بعد ما إجت تعبانه من شغلها.. وهي اللي حكت له عن قصة أبوك الفلسطيني اللي فدا بموته كل

الفلسطينيين.. والقاتل الكويتي اللي حمل بجريمته ذنوب كل الكويتيين.. كانوا وقتها يقطعوا خضره وياكلوا شوكولاته.. ههه.. والأهبل مصدق».

«الساحرة الشريرة معها حق».

ويصفق الولد كفيه متصنعًا تفاجؤه:

«آآااه.. هو خبرك بقصة الساحرة.. يلعن أبوه.. هالولد ما بيخاف يجي يوم ويرموه في مستشفى المجانين على قد ما يحكي هالقصص لكل واحد غريب... اسمعها مني.. أبوه أكيد راح يعملها.. أبوه ما بطيقه.. بيخجل منه.. أصلًا هو ناوي يسفره على سوريا لعند عمته الكبيرة.. هيك حكى لأبوي في الشغل.. حجز التذاكر ورتب كل شي.. راح يسافر فيه السبت ويرجع يعيش لحاله هون.. لأنه ما فيه يترك شغله..». يتنهد في زفير عميق ويردف، «يمكن.. يمكن عشان هيك أيمن.. يعني.. يحب يصاحب الأولاد الأكبر منه».

عينا الولد الفلسطيني الآن في عينيه، تحملان سؤالًا تردَّدَ لسانُه قبل طرحه:

«إذا يحكي لك قصص.. معناته.. يرسم لك؟».

فيجيبه ساخطًا:

«وانت شو دخلك؟».

«خلاص.. خلاص لا تزعل.. بس حبيت أشوف إذا رسوماته

إلك تشبه الرسمة اللي عطاني اياها السنة الماضية... وقت ما تصاحبنا أنا واياه وقت الغزو».

«هو خبرني إنه عمره ما تصاحب مع حدا.. عمره ما كان عنده أصحاب قبلي».

وعلام نبرته المستهجنة؟ علام استياؤه من معرفة وجود صديق آخر وإن من الماضي في حياة أيمن؟

«ههه.. لازم تعرف انه اللي عنده خيال واسع مو بس فيه يخلق قصص جديدة.. فيه كمان يمحي قصص قديمة.. يرجع يرويها على كيفه... الحقيقة انه تصاحبنا أنا وياه فترة.. بس مع الوقت حسيت من الطريقة اللي يتطلع فيها عليّ.. من الطريقة اللي يضمني فيها عالنازلة والطالعة.. كأني.. كأني أكتر من صاحبه.. كأني حدا راح ياخده على محل بعيد.. ما كان منتظر مني إني أدخله معنا يلعب كرة وأسمع له بالساعات وبس.. كان منتظر مني إني أخلصه.. إني أعيش معه في الوهم اللي هو عايش فيه.. شوف.. أنا كان فيني أسايره حتى لا أكسر بخاطره.. بس أنا ما عملت هيك.. لما كان يحكي لي قصصه الغريبة كنت أجمع الاولاد وأرجع أحكيلهم اللي حكاه وكلنا نضحك عليه.. كنت أسأله عن التفاصيل قدامهم لأكشف غباء قصصه.. وما يرتاح قلبي لحد ما يبكي.. لحد ما أشوف الوجع في عيونه كأنه بإيدي هاي عم بخنقه.. وأوقات بضلني اتمسخر واتمسخر لحد ما يعملها على حاله قدامنا.. لا تتطلعش فيني هيك.. أنا منيش شرير.. ما عملت هيك لأني بكرهه.. بالعكس أنا بحبه..

ولهيك كان بدي أعلمه.. بدي أرجع له عقله وأبعده عن الطريق اللي ماشي فيه.. بعدين إنت طلعت في حياته ما بعرف من وين.. إنت شجعته.. هو خبرني إنك طلبت منه لوحاته اللي يرسمها عن قصته الغريبة مع السنافر.. إنك.. على عكسي.. مصدق كل حكيه.. تسأله عن التفاصيل لأنك مهتم تعرف أكتر.. إنك مستعد تضرب أي حدا يفكر حتى يتمسخر عليه.. طبعًا الضرب مو على إيدك على إيد الغوريلا اللي ماشي معك.. ههه.. الله يلعنه رجله تقيلة.. لهلق بحلم فيه هاجم على دارنا ويرفسني قدام أهلي وما حدا فيهم يعمل له شي».

«تستاهلها.. انت اللي بديت».

قالها فخورًا بصديقه، رغمًا عنه.

«هه.. شفت.. عشان تصدقني لما احكي لك انه ما فكش تكون معنا.. مهما حاولت تقلدنا.. لإنك راح تضل دايمًا في قلبك مصدق حالك واحد منهم مش منا.. إنت هلق بس زعلان منهم.. وإمتى ما صفت الميّ وبرد دم أبوك في تربته.. وبرد في قلبك ..راح تلف وترجع لعندهم متل الولد الشاطر.. يلعنك قد ايش إنك محظوظ متل أهل إمك.. من بين كل الأولاد الفلسطينية في الكويت.. واللي كل واحد فيهم كان راح يكشفك من أول نظرة وببوطه يشحطك عن طريقه.. ما وقعت إلا على أيمن لتعمل فيه هيك.. وكرمال ينجح دورك قبلت تكون الصاحب اللي أيمن يتوسل ربه حتى يبعته إله.. حتى يحمل عذاب حياته كفلسطيني معه.. وحتى..

وحتى يحمل معه عذاب..». ويشعر بأنفاس تنهيدته تمس ثغره، يسر هامسًا، «انت أكيد تعرف عن شو عم بحكي».

أجل، هو يعرف تمامًا عمَّ يحكي الولد الفلسطيني. أدركه لحظة وقعت عيناه على أيمن حين التقيا أول مرة في الباص. أدركها من الرجفة التي سرت في جسده وجسد الصبي حين لامس شعره وراح يلهو به. لأحرق الباص والمدرسة والبيت والكويت وفلسطين والدنيا الملعونة بأسرها بالشرارة التي سرت فيه ما إن لمس جسد الولد المرعوب الجالس جانبه. لكن عينيه، عينيّ أيمن العسليتين حالتا بينه وبين إشعال النار خشية أن تمسه بسوء. وما كان لغسان أن يقتل فلسطينيًّا مرتين. ولا أن يخلص فلسطينيًّا من عذابه مرتين. مرة واحدة تكفيه.

«راح تجي عنده بكره؟».

«ما بعرف.. مو أكيد».

يغمر الارتياح ملامح الولد الفلسطيني، يميل نحوه وبقبلة يافعة خشنة يلثم وجنته، يبارك قراره الحكيم.

«بعرف انك مثلي تحبه لأيمن وخايف عليه.. بس هيك أحسن صدقني.. حرام تخليه عايش بهالطريقة.. حرام عليك تخليه يمشي معك بهالطريق.. لازم نمنعه.. حتى لو انكسر.. لازم نمنعه.. ينكسر وهو صغير حتى ينصلح حاله وهو كبير.. والا صدقني راح يتعذب بحياته وآخرته.. ويعذب كل اللي حواليه.. صدقني.. أكتر بكتير ما هو متعذب هلق.. إنساه وروح لإمك..شو بدك بأيمن..

شو بدك بأبوك.. شو بدك فينا كلنا.. أبوك مات.. ومعه مات نصك الفلسطيني اللي لا إنت تفهمه ولا هو يفهمك.. أنا عن نفسي.. باسم كل الفلسطينية باعتقك.. ما بدناش منك شي.. إنت اعتق ولدنا وروح على دار إمّك.. كِنّ تحت جناحها.. هي تحبك.. هي ما هربت منك متل ما هربت إمه لأيمن.. بعدها موجودة معك.. روح لإمك وخلي أيمن لربنا.. هو وحده يصطفل فيه ويهديه».

يربت الولد الفلسطيني على ساعده، يشدُّ عليها ويمضي.

وحيدًا

في بيت السلم

شابكًا يديه خلف ظهره

يبصر غسان مربعات طريقه

جليَّة كما عين الشمس.

وها يمناه الآن في جيبه

تقبض على مفتاحه.

أجل، هو ليس فلسطينيًّا.

وما كان يومًا فلسطينيًّا.

إذ كيف يكون فلسطينيًّا

وها هو يملك في جيبه مفتاح العودة إلى بيته

العودة إلى ما كان قبل الغزو

قبل العام ما قبل الغزو

بقرارٍ واحدٍ منه

باستسلامٍ واحدٍ منه.

يغادر الساحة.

الشمس الآفلة تدنو إلى غيابها.

يقطع الشارع دونها لفتة يمينًا أو يسارًا.

يحثُّ خطاه

يطوي من خلفه المربعات

طائرًا نحو بيت أمه

نحو حضنها الذي إليه اشتاق.

(٩)

حقيبتا السفر في غرفتها. جاهزتان منذ الصباح. حقيبتان صغيرتان. إذ لا تتوقع أن يطول غيابهما عن البيت لأكثر من نهاية الأسبوع.

غسان سيقضيه لدى عبدالله، ودانه لدى خالها. هكذا رتبت الأمر مع أخيها، وسترتبه في اتصالها الليلة بعبدالله، ستطلب منه أن يقنع غسان متى ما رافقه صباح الغد بالمبيت لديه، وبنفسها ستحمل الحقيبة إلى بيته. عقد قرانها في المحكمة جاء متعجلًا، كان من المفترض بعقد قرانها أن يتم في بيت أخيها بعد أسبوعين على يد الملّاك، ومن بعدها تمهد الأمور لغسان، غسان وحسب. فدانه على علم بزواجها، وكما توقع أخوها، رحبت به أيما ترحيب وأظهرت مودتها *لعمها* بطل المقاومة أمام خالها وعائلته. قلبها انفطر على ابنتها وهي تراها تتباهى به، عمياء عن ازدرائهم إياه. غير أنَّ حال غسان لا يحتمل، ساعةً بساعة يسوء، وعليها أن تحمي نفسها وابنتها منه، عليها أن تحميه من شيطانه، ولا أحد سيعينها عليه سوى خالد.

يقف بالجمس الأسود أمام بيتها، بيتها الثاني، وتضحك في قلبها. زوجان، بيتان، وفي كلتا الزيجتين هي صاحبة المال والعيال. تهمُّ بالنزول لكنه يمسك بيدها:

«ممكن أدخل؟».

تزفر في ضيق، إذ يجدر به أن يكون أدرى من أن يسألها طلبًا كهذا.

«مو قصدي اللي في بالچ.. أبي أروح الحمام».

علام هذا الخدش الذي أصاب كبرياءها ما إن سمعت الجفاء في صوته. فقرارها الزواج به لا تشوبه ذرة رغبة، حتى أنها رتبت لقضائهما زواجهما في غرفتين منفصلتين، هي شرطت عليه، وهو فورًا وافق. فعلام خيبة أملها إذن.

«بس غسان موجود».

«وإذا؟ عادي. إنت قلتي له الصبح إنچ ودانه معزومين على الغدا عند خاله، إذا شفناه نقول له إني وصلتچ البيت حتى تاخذين جنطة هدوم حق دانه لأن خالها عزمها تبات عندهم»، قبضة يده تشتد على يدها، «صدقيني.. ما راح يقول شي إذا شافني».

كان بيدها أن تصرفه، فكلاهما أعلم لمن السلطة المطلقة في هذه العلاقة، لكن مذ وقعت ورقة زواجهما، كفة الميزان اختلت تحت قدميها. لا يشبه في شيء فورة القوة التي اعترتها بزواجها من منصور والتي صيّرت كفتها أبدًا الغالبة.

«زين.. بس بسرعة ومن غير حس..عقبها اطلع على طول وانطرني على ما أجيب الجنطة».

تسحب يدها عن يده وتترجل. لا تنتظر نزوله بل تتقدمه، بروية تفتح الباب بمفتاحها ومن خلف خالد تغلقه. تخلع عن قدميها الكعب العالي وتشير له، دونما كلمة، على حمام الضيوف، ثم تصعد الدرجات إلى الأعلى، القلق يعتريها من وجود ابنها. تطرق على بابه، وحين لم تسمع جوابًا، تفتحه على مهل. لا أثر له. لا بد أنه في الحمام. تطرق باب الحمام، تفتحه، ولا أثر، لا له ولا لزيه المدرسي. أتراه قرر قضاء العصر في بيت عبدالله بدل أن ينتظرها. تهم بالخروج من الغرفة وإذ تجفل على وجود خالد منتصبًا عند الباب.

«غسان وينه؟».

يسألها في نبرة أقرب إلى الزجر، وكأنما يحاسبها على غياب ابنها عن البيت. فتجيبه مثل مراهقة تردأ تهمة عن نفسها:

«وانت شعليك؟».

يدخل الغرفة غير آبه لها، ويقف يتأمل الجدار المعلّق عليه الرسمات، مشدوهًا بما يراه. هي تجمد في مكانها، خجلة من ابنها؛ فبرؤيتها شخصًا آخر يرى ما اعتادت هي رؤيته، ينجلي لها مدى الدرك الذي هوى إليه، ومدى فداحة مسؤوليتها. يدنو نحو الجدار، يتأمل الرسومات واحدة واحدة، أنامله تتنقل عليها، يتتبع الصور، على الأرجح يجمع خيوط ما قالته غادة عن هذيان ابنها

وبين ما يراه. يتوقف عند رسمة التنين، يمعن النظر في تفاصيلها، ينزعها بحرص عن الجدار، ويرفعها:

«هذا هو تنين الغابة اللي غسان قتله؟».

من المفترض أن تسعد لاهتمام خالد، إذ أليس هذا الهدف من زيجتهما. لكن أن يضع أولوية البحث في هذيان ابنها، في شؤون ابن رجل آخر، على أن يبدي أوهى محاولة يغويها بها، رغم اتفاقهما، فهو ما لم تتوقعه.

«نتكلم في الموضوع بعدين.. أنا أروح داري أجيب الجنطة.. وإنت إطلع».

نظرةٌ غضوب تبرق في عينيه وتختفي، يبتسم ويشير إليها بأن تدخل الغرفة، ومرةً أخرى، كما في الجمس، تجد نفسها تخضع لإشارته، وبذراعه القوية يطوقها:

«لا تحاتين غادة.. أوعدچ إني راح أكون أبو زين لغسان.. راح أعوضه عن كل شي صار معاه في الغزو.. ووعد مني.. ما تعدي السنة إلا وغسان اللي نحبه يرجع مثل أول وأحسن».

هي المرة الثانية في حياتها التي تهب بها نفسها لرجل مقابل وعد منه أن تجد فيه من تحب. في الأول بحثت عن نفحاتٍ من روح، بضعٍ من كلمات، لعلها علقت على جسد صديقه، في متاهات قصصه. وها هي في الثاني تبحث عن أمل عودة ابنها سالمًا إلى بيته بعد أن أضاعته بعنادها.

يرفع يده عن زندها ويمسك بيدها، يتوجه بها نحو فراش غسان، يفك تشابك يديهما حتى يزيح صدر البيجامة المرمية عن جهته من السرير، ومعًا يجلسان على حافته. صدر البيجامة في يد، ورسمة التنين في يد، ومحتارًا بهما، يضعهما على حجره.

ضيقٌ يقبض على قلبها، لكنها تلزم الهدوء، فهي لا ترى خيارًا آخر أمامها، وإن أراد خالد الحديث أكثر عن غسان ستسايره، بضع دقائق وحسب، إلى أن تستعيد ثباتها، ومن بعدها ستأمره بمغادرة الغرفة والبيت. الوقت يمر، لا هو نطق بكلمة، ولا هي. تلحظه يفرك يديه المتعرقتين، وجهه يشحب ونفسه يضيق. أتراه يراجع نفسه، شرطها الذي وافق عليه؟ هو لم يسبق له الزواج، وقد بلغ الرابعة والثلاثين. والآن وحسب تسأل نفسها السؤال الذي كان ينبغي أن تسأله إلا أن غرورها أعماها: لم عساه قبل بها؟

يداه تكفان عن الفرك، يرفع عينيه المترددتين نحوها، ويدس يده بين فخذيها، ضحكة تفلت منها، رغمًا عنها، إذ عادت واستذكرت برعونته هذه صورته كصبيٍّ أحمق، تلهو هي وأخوها بأعصابه عند كل زيارة له. وها هي القوة التي كانت تبحث عنها عادت وثبَّتت كفة ميزانها، فتمسك بيده وتلقيها عليه، وباستهانة تزجره.

«روح بيتكم».

تنهض من السرير، قلبها منتشٍ بانتصارها، وما كادت راية النصر تعلو ثغرها، وإذ به يطيح بها على فراش ابنها. جسدها لا يدرك بعد ما أدركه عقلها، أنفاسها تصارع تحت ثقل جسده، جذعها

محاصر بين ركبتيه، بيد واحدة يقبض عليها من معصميها ويثبتهما خلف رأسها، تصرخ باسمه، تارةً آمرة وتارةً راجية، تستعطفه، تثنيه عن إتمام فعلته على فراش ابنها، التصميم في عينيه يرعبها، يائسةً تثب بجذعها كي تلكمه برأسها وبالكاد تلمس ذقنه.. اليد تفلت معصميها وتسدد لكمةً قوية على وجهها فيهوي رأسها وكأنما انفلق نصفين، يعقبها بلكمة أخرى.. تشهق النفس وتغص بدمها.. جسدها يثقل.. ساقاها تهنان.. دفٌ ينسل من بين فخذيها.. بولها.. تنوح خزيها.. كفة الميزان الثقيلة من تحت قدميها تهوي عنها وتحط أسفل قدميه.. والآن يرزح بكل ثقله أسفل بطنها.. تسمع نخيره.. وسرابٌ واهم يخيل إليها.. لعله اكتفى.. لعله فرَّغ غضبه.. أدرك سوء صنيعه.. وسينهض عنها.. ويفر مذعورًا منها ومن أخيها.. يرتفع عنها.. لكنه لا ينهض.. تشعر به يميل قليلًا على عقبيه.. وها هو السراب يتلاشى... يعود وينقض عليها.. بيد يزيح خصل الشعر من حولها.. يلفها ويربطها بإحكام بين أصابعه خلف عنقها.. ويشد رأسها إلى الخلف.. تكاد تختنق بدماء فمها وأنفها.. وها هي اليد الأخرى.. تكتم فمها بصدر البيجامة.. رائحة ابنها.. عيناها المذعورتان تأبيان الإغماض.. عبثًا تحاول أن تحرك إصبعًا.. هي دمية الآن.. ولن تنجو إلا برميه إياها ما إن يبلغ شهوته منها.

يرفع يده عن صدر البيجامة، وبإصبعيه يجسها خلف خصر بنطالها، يفك الزر والسحاب ومتعجلًا ينزعه عنها.. جسدها يذعن له..ردفاها يرتفعان يسهلان عليه مهمته.. يرمي بالبنطال على الأرض.. بشراسة ينتزع سروالها الداخلي ويرميه. تتوقعه سيواصل

تعريتها، نزع قميصها الأبيض وحمالة صدرها فيكتمل غزوه، غير أنه لا يفعلها. للحظة تتحرر منه، وها هما يداه تقبضان على عظمتي حوضها ويقلبها على بطنها.. يرفع ردفيها إليه.. ويقحمه.. وكلها ينتفض على وقع ألمها.. ألمٍ لم تعش لذته من قبل.. تتشبث بصدر بيجامة ابنها.. تعضها بأسنانها.. تحاول كتم عوائها.

خَزْيا

تتدارى الشمس وراء الغياب

متقززة

تصم الجدران آذانها عن العار

مرتاعًا

يقف غسان على عتبة الباب.

(١٠)

وقف يتأمل تلك الرسمات، وللوهلة الأولى كاد يضحك، فعلام كل القلق على رسومات طفولية هالجة. ما ميز فيها شيئًا من وصف غادة، الألوان والدوائر والمستطيلات والخطوط والمثلثات والخربشات لا معنى لها. لكن واحدة، لوحة واحدة، انجلت معالمها: فتاةٌ صغيرة يجتاحها موجٌ عارم من القناديل، وتنينٌ أحمر ينفث النار في وجهها. وإذ بالخوف يقبض على قلبه.

أتراه تأخر؟

مذ مقتل منصور وخالد يتحاشى الإجابة على سؤال ما انفكَّ يجوس في خاطره، *من قتله؟* ليس بمقاوم من فعلها، فما كان سيقتله في بيته ويترك جثمانه، بل لاختطفه ورماه وألقى به جيفة في جوف الرمال. وما كان ليكتفي برصاصة واحدة. ما كان ليشفي غليله جرحٌ واحد وحسب يشوه جسده. ويقينًا ما كان ليترك المسدس وراءه. يرميه عرضًا عند رأسه ويمضي. لا، الرصاصة بين العينين قتلٌ رحيم، منح الابن حق النحيب على صدر أبيه فعلٌ رحيم. وما

كان لكويتي أن يرحم منصور ولا ابنه، ليس فجر التحرير. من قتله فلسطيني، من قتله تنينٌ أحمر نفث النار من هوَّة فاجعته، حبًّا فيه.

ما إن وقعت عيناه على منصور جثة هامدة على الأرض ما اكترث له. مثله مثل أي قطة دهسها عرضًا بسيارته، ولكان واصل طريقه متخطيًا إياه كي يحمي البيت والولد، فقط كي يتلذذ في معايرة غادة وأخيها بجبنهما مقابل بطولته في صون الأرض والعرض. لكن شرارةً في قلبه اتقدت على مرأى الطيف الناحب على صدر أبيه، والشرارة اشتعلت لهفةً على انتشاله، على ضمه إلى صدره وحمايته من أي خدش. انتشله، ومن كفه انتشل المسدس المضرج بالدم.

«هذا التنين اللي غسان قتله؟».

يتوجه إلى غادة بالسؤال ولا يرتئي إجابة، بل انتظر جوابها على سؤاله الضمني، *تدرين انه ولدج قتل أبوه؟*

ويستشف من تململها وإجابتها أنَّ الحقيرة لا علم لها. يتأملها تسند ظهرها إلى الحائط، يداها متشابكتان خلف ظهرها، ساقاها متلاصقتان، قدماها الحافيتان منبسطتان على الأرض. أثار اهتمامه شكل ساقيها دون ارتدائها الكعب العالي، كيف فقدتا رشاقتهما من دونه، كيف فقد ردفاها وحوضها انحناءاته من دونه. كانت ترتدي بنطالًا أسود يطوق الخصر ويتسع نزولًا، قميصًا فضفاضًا أبيض يحجب حتار نهديها، عيناها عاريتان من الكحل، وغيابٌ كامل لأي أحمر شفاه. ارتداء غادة تلك الملابس لحضور عقد قرانهما أغضب

أمه، لكن بدا له اختيارًا مناسبًا. لولا شعرها الطويل لكان أعجب بها. أتراها محبطة منه؟ أتراها في هذه اللحظات تراجع صحة قرارها الزواج منه، إن كانت قد تعجلت، ومتى ما غادر البيت ستتصل بأخيها وتطلب الطلاق؟ القلق يدب في صدره. ربما إن ذكَّرها بالسبب الحقيقي لزواجهما، سيهون عليها تقبله زوجًا.

يمد يده نحوها، تستجيب له وتتهادى نحوه، يطوقها بذراعه ويواجهان الجدار معًا:

«لا تحاتين غادة.. أوعدچ إني راح أكون أبو زين لغسان.. راح أعوضه عن كل شي صار معاه في الغزو.. ووعد مني.. ما تعدي السنة إلا وغسان اللي نحبه يرجع مثل أول وأحسن».

أجل، سيتولى المهمة الصعبة في إعادة غسان سالمًا إلى بيته، إلى هذه الغرفة بالذات، خاضعًا مطيعًا لإرادة أبيه الجديد. وإن لمح أوهى أمارة ثورة عليه سيلوي قلبه بهذه الرسمة. أبدًا لن يشي به، أبدًا لن يعرضه لأي أذى ولو على حساب سعادته، لكن غسان لا يعرف ذلك، وجهله بمدى محبته له هو سلاحه. ليت غسان يدرك التضحية الكبرى التي أقدم عليها بمجرد وقوفه الآن جنبًا إلى جنب مع أكثر مخلوق يمقته.

ويخطر إليه اللحظة أن تضحيته مهددة، وستظل مهددة طالما هي ناقصة. دقات قلبه تتسارع، الآن وإلا أبدًا. وكما الطيار الذي يقذف نفسه من طائرة هاوية، فلا بد له من لحظة يستجمع فيها رباطة جأشه. يرفع ذراعه عنها ويمسك بيدها، يتأمل أناملها،

أظافرها عارية عن الأحمر إكمالًا لمشهد الأرملة التي لن تكلف نفسها عناء إغراء الذكر الذي أحضرته إلى بيتها. ليست بلون أنامل ابنها، لكن لهما نفس الطول والنحافة، يشبك يده فيها، فيسر لمعرفة أن الأم وابنها يتشاركان نفس اتساع الفجوات. حتى حين كان غسان ممتلئ الجسد، أنامله كانت نحيفة، كأنما تأبى مذ مولده سمنة الأولاد المترفين، كأنما مدركة أنها موعودة بحمل السلاح، أن سبابته ستطلق يومًا الزناد.

يتوجه بها نحو الفراش، صدر بيجامة غسان مرمية على وسادته، يا ترى إن رفع الوسادة هل سيجد القميص الأبيض لا يزال مخبأً هناك؟ يفك يده عنها، يتناول صدر البيجامة، ويجلس. تحذو حذوه، تلتفت نحوه بيد أنه يعرض عنها، يدعي انشغاله بما يحمل في يديه، لكن كفيه المتعرقتين تضطراه إلى وضع الغرضين على حجره خوفًا أن يلوثهما.

ذاكرته تعود به إلى مرتهما الأولى.

خالد يفتح الباب بعد انتصاف الليل.

يتسلل نحو الفراش.

غسان غارقٌ في سباته، في كامل بيجامته، مستلقٍ على جنبه الأيسر.

خالد يخلع ملابسه.

يرفع اللحاف.

يندس عاريًا في الفراش ويتكئ بظهره على رأس السرير.

يميل ويتناول يد غسان اليمنى.

يشبك أصابعه بيده.

دافئة، أثرٌ رطب للعاب على ظهرها.

يمسحه بإبهامه.

يضع إبهامه في فمه

ويمص اللعاب عنه.

يمرر كف غسان على صدره العاري، بطنه، خصره، شعر عانته، عضوه.

أنفاس خالد تغرق في شهوتها.

مرة واحدة، مرة واحدة، لن يعرف بها الصبي الغارق في سباته.

ولن تضره بشيء.

يقذف.

تخبو أنفاسه وينسل ناعسًا على الفراش، ينوس يمينه ويراهما، مفتوحتين، ناعستين، هائمتين، وعلى صفحة مرآتهما المجلوّة يرى نفسه. نارٌ تحرق جسده وعقله وقلبه، لكن ما هي بنار الخطيئة التي عهدها منذ سنوات وتهبُّ في صدره مع كل ولد من أولاء الأولاد، كل تلك الوجوه التي لم يأبه إلى تذكّر ملامحها، تلسعه بلهيبها لحظات وتعلّم ندبتها عليه قبل خبوّها نثارًا من رماد. لا.. النار المضطرمة

في صدره نار جحيم أبدية تحرق اللحم وتفتت العظام؛ وغسّان هو الماء.

فليكن.

يستجمع شجاعته ويمد يده، متعجلًا كما الصبي الأحمق الذي يود الانتهاء من فرضه.

وها هي تستهزئ به

بألمه

بتضحيته

برجولته

روح بيتكم

لا

لن تحرمه ماءه

لن تنفضه عن يديها وتمضي

هو في عقر بيته وحلاله

وسيغرس رايته عليها وفيها

فمن ذا الذي سيجرؤ من جيوش الأرض على تحريرها

إن كانت هي بيدها وقَّعت إعلان تسليمها.

(١١)

الشمس غابت

الظلمة حجبت عيني السماء

وغسان لم يعد.

بات مستاءً من نفسه أكثر مما كان مستاءً من غسان، فهو العاقل بينهما، هو من عليه أن يحتويه ويتقبله، لا أن يغضب عليه. أليس هذا هو معنى الصداقة؟ وما أدراه؟ كل ما عاشه من قبل لا يتعدى حدود الزمالة، فلا أحد من زملائه في الفصل دخل بيته. لا أحد منهم اطّلع على تفاصيل حياته. ولا مرة أقيم له حفل ميلاد يعزمهم عليه.

أبوه كان صديقه الأول.

صاحبه الوحيد.

يتأمل صورته الآن بين يديه. صورة البولارويد التي عجز غسان عن العثور عليها، وادَّعت عمته جهلها بمكانها، وما تزحزحت عن

موقفها أمام كل صياحه في وجهها. وجدها على طاولة مكتبه ما إن صعد إلى غرفته.

لم تكن وحدها على الطاولة. بل بقية ألبومات الصور، أشرطة الفيديو العائلية، شهادات الشكر والتقدير والصور منزوعة الأطر، علب ذهب أمه المخملية، الحمراء والزرقاء، قلم أبيه الباركر، وكاسيت أغاني هدى حسين.

الآن وقد باتت كلها لديه، أدرك لم عمته سلبتها. لأنَّ لا قيمة لها. لا قيمة لها دون أصحابها. هي النثار الرخيص الذي يبصقه الموت في وجهك ما إن يسلبك أغلى ما لديك. ما تراه سيصنع بها؟ ما تراه سيصنع بهذا البيت الموحش دونما أبيه؟ بهذا الوطن الغريب فيه؟ هو كان وطنه، وباستشهاده سلبه إياه. فلتحترق الكويت بمن فيها، فليغزوها كل غازٍ وينهبها كل ناهب ولا يتبقى منها سوى العصف اليابس، وليعد أبوه إليه.

فليعد إليه غسّان.

الجدران في غرفة عمته تردد صدى صفق أبواب خزائنها الثلاث. جلبة عارمة في غرفتها مذ غادر غسان بعد تكسير أمه كل الأطباق على المائدة وفي الخزائن بكل راحتها دونما أحد يمنعها إلى أن سئمت ومن نفسها عادت إلى غرفتها وصفقت الباب. لكن جلبة عمته لا تشبه في شيء الجلبة المعتادة منها. فهناك أصوات أكياس، وأصوات نزع اللاصق عن البكرة. صمتٌ يخيم دقيقة، ويسمعها تفتح الباب. ومعها يسمع صوت كيس، يعقبه آخر

وآخر. عدَّها. خمس أكياس في المجمل. يسمعها تجر إحداها نحو السلم، أحشاؤها تقرقع على الدرجات، ويسمع صوت الباب الأمامي يفتح ويغلق. ينهض عن كرسيه ويتأملها من النافذة. على ضوء عمود الإنارة يراها في عباءتها تجر كيس قمامة أسود ممتلئ حتى آخره، فوهته محكمة الإغلاق بشرائط من اللاصق، نحو مستوعب القمامة الكبير طرف الرصيف المقابل. يراها تحمل الكيس الثقيل وترميه داخل الصندوق، العباءة انزاحت عن رأسها واستقرت على كتفيها، يراها تقف ذاهلة ثواني، تأخذ أنفاسًا عميقة، قبل أن تدير ظهرها وتعود. يراها تطأ الشارع وفجأة تلتفت صوب بيت غسان، يراها تجمد في مكانها، صرير احتكاك عجلات، جمس أسود منطلق كاد يدهسها. يراها تقطع المسافة المتبقية في هرولة، يسمع الباب الأمامي يفتح باستعجال ولا يغلق، يسمع خبط خطاها السريعة على الدرجات، اندفاعها نحو غرفتها، باب خزانة يفتح، شيءٌ يرمى بقوة على الأرض، يسمعها تجري إليه، وها هي تفتح الباب، شاحبة كما الأموات، الشّرر في عينيها، وفي يدها مسدس.

«تعال معاي! الحين نطلّع غسان من بيته!».

لا يسألها. لا يخطر له حتى أن يثنيها عمّا تنوي عليه. بل يرمي بالصورة من يده على المكتب ويلحق بها، كما المجنون يلحق بها. وفي أقل من دقيقة مرت دهرًا عليه، يصلان باب البيت الموارب، وعن القفل تتدلى ميدالية غسان الخشب، النثار المتبقي من أبيه، ويدفع بالباب، لا نور مضاء، لا شيء سوى ظلمة باردة، ورائحة دم.

يضرب مفاتيح الإنارة الأربع المتلاصقة بحافة يده ولمبات الثريات تشعشع. يسبق عمته نحو الأعلى، يهرع مندفعًا متخطيًا الدرجات، يكاد يغص بأنفاسه. بابان مفتوحان. الغرفة على يمينه مضاءة فيدخلها. الفوضى تعمها، مكياج وقناني عطور مرمية أسفل طاولة الزينة، المرآة أعلاها مهشمة، ألحفة الفراش والوسائد مبعثرة، وحقيبة سفر صغيرة واحدة. عمته الآن إلى جانبه، «راحت معاه،» صرَّحت وكأنما تتوقعه أن يقرأ الغرفة كما قرأتها هي. وقبل أن يسألها، أنينٌ مخنوق يتناهى إليهما من الغرفة المظلمة خلفهما ومنقبض القلب يلحق بها.

في اضطرابه، في الظلمة الخانقة بعبق السجائر والأجساد، يتوه عن عينيه، عمته من فورًا تراه وتهرع إليه. مدَّ يده يتحسس مفتاح الإنارة، صرخت عليه لا لكن إصبعه سبقت صرختها. ورأى كل شيء.

يده تتحجر على الحائط، كله يتحجر. حتى عيناه تحجرتا. يبغي الفرار لكن ما من مفر. يبغي الصياح لكن ما من نَفَسٍ فيه يجرؤ. طائر غضبه الأسود حطَّ على غسان وبمخالبه الوحشية نتف ظهره نتفًا، فيه أقحم منقاره الحقود وأسال دمه بين فخذيه. ومن كل شيء عرّاه، من كل شيء، وعلى الأرض لفظه.

عمته تسارع إلى تغطيته بعباءتها لكنها لا تدنيه إلى حجرها ولا تقلبه. ما كادت تلمس كتفه حتى راح ينتفض ويتحشرج، تهمس اسمه *غسان يمه غسان* علّها تهدئ روعه لكن لا يهدأ. الحياة دبَّت في

يده الجامدة وفي أوصاله المتحجرة ما إن رأى أباه مقرفصًا عند رأس غسان، من حوله مسدس أخته وأعقاب السجائر والعقال الأسود المرميّ والقميص الأبيض الممزع.

يحرك قدميه ويدنو إليه، يضطجع جانبه، عيناه في عينيه الرماديتين الجزعتين، *لا تخاف غسان لا تخاف أنا صاحبك عبدالله وعمري ما راح أتركك* يردد عليه في نبرة واثقة *راح أظل أحميك.. أحميك منهم كلهم.. اقعد في بيتي قد ما تبي وأوعدك ما راح أطلعك منه أوعدك.. لو شنو ما تسوي ما راح أطلعك منه.*

الجسد يكف عن الانتفاض، الحشرجة تكف يدها عن أنفاسه، وكل الفزع والألم ينسل من لحاظ عينيه. يسمع هسيس عمته *عفية عليك* قبل أن تنهض، باب خزانة يفتح، صنبور ماء يفتح. لا تغلق أيهما. فوطة مبللة في يدها اليسرى، راحة يمناها تمسح بمنتهى الحنوّ على رأس غسان، يدها ويد أبيه، تسمّي وتستعيذ، كأنما تهيؤه لمنامٍ عميق، كأنَّ كل ما أصابه ليس سوى كابوس وسرعان ما سينساه ما إن يعود ويغمض عينيه. وها هي يسراها الآن تنسل أسفل العباءة ويلحظ دنوها وابتعادها على ساقيه.

يمد يده وبحنان يقبض على يد غسان الباردة فتذوب بين أصابعه مثل مكعب ثلجٍ منسيّ.

(١٢)

يده تنزلق.

يسقط

ويسقط

ويسقط

السواد في عينيه قاتمٌ كما الليل.

الخميس

عبَّ أيمن الماء عبًّا.

قطرة واحدة ما تبقَّت في القدح الزجاجي الأخضر. يضعه جانبًا على كمامته الزرقاء المثنية جانب صحن منقوشة الزعتر التي بردت وتيبست في انتظاره يمسها، وعاد ينظر أمامه.

عيناها ما تزالان تحدقان إليه، جالسة قبالته، تسند رأسها إلى راحة يدها اليسرى. أظافرها موشاة بألوان الأبيض والزهري والأخضر على التوالي وقلب كل ظفر مرصَّع بحباب من كريستال. شعرها الكثيف الأسود معقوص، ينسدل متشلشلًا لامعًا على كتفها الأيسر وغرتها على جبينها العريض المجلوّ مزويّة، عيناها السوداوان اللوزيتان كحيلتان والبياض فيهما يفيض يفاعةً وحيويّة، وجهها الحنطاوي آسرٌ مثل وجه غزالٍ مسحور، أميرة مكبَّلة بتعويذة ساحرة شريرة، وها هي، ها هي ابتسامتها تعود إليها، صوتها يعود إليها، الحركة تدب فيها دونما تشويش، وتنقل إليه آخر سؤال.

«أحد الحضور يسأل إن كان تسفيه السيرة الفلسطينية إلى قصة رومانسية مشبوهة بداعي الخيال آخر ما نحتاج إليه الآن في خضم هذه المرحلة الجديدة من صراع الهوية والأحقية التاريخية في العودة؟ يعني ألا ترى أنَّ التمسك بالذاكرة الآن هو فعل المقاومة الذي يؤكد على وجودنا التاريخي ونضالنا الجمعيّ كشعب ويضمن حقنا في أرضنا أمام محاولات المحو والتسفيه وتغيير قصتنا حتى على يد الأقربين؟ أليست روايتك بنهاياتها «السعيدة» (تيمم علامتي التنصيص) بحبكة مغامراتها وأحداثها الأقرب إلى الهوليوودية والتقاء صديقيّ الطفولة المولودين في الكويت قبل أن يفرقهما الغزو، والتقائهما في كهولتهما المتأخرة في يافا إيفاءً لوعدٍ بينهما، وما انطوت عليه هذه السعادة من تنازلات فادحة على طريقيهما، رآها البعض خضوعًا للمتغيرات السياسية وفي مساق يراه الكثير من القراء العرب مساقًا سرديًّا كولونيوليًّا تطبيعيًّا، مع كل شخصيات «الفيمينست» و«الآكتيفيست» و«الكوير» و«اليهود الطيبين» (أظافرها الملونة يممت تنصيصها جميعًا)، أن اختيارك العنوان **أرض البرتقال السعيد** وتسميتك إحدى الشخصيتين الرئيستين **غسان** ما هي إلا خيانة فلسطينية قبل أن تكون أدبية لروح غسان كنفاني وإرثه؟».

عيناه تتسعان.. ليته فتح النافذة قبل اللقاء.. لأنعشته هبَّة هواء في غرفته الصغيرة الضيقة.

«خيانة! أنا روائي ولي مطلق الحرية في كتابة ما أريد واستلهام

العنوان من موروثي الأدبي والذي بالمناسبة ليس حكرًا على فئة فلسطينية دون أخرى، ولا أظن روايتي الأولى هي ما ستطيح بالذاكرة المتجذرة في شعب فلسطين فما بالك بقضية عادلة وتاريخية كقضية فلسطين.. أنت من الجيل الفلسطيني - الأميركي الثالث في كاليفورنيا، صح؟ وأنا لاجئ فلسطيني من سوريا في بروكسل، ومن مواليد الكويت، اِسألي حالك، ما الذي يجمعني بك الآن، ليست الذاكرة لأن ذاكرتي مختلفة عن ذاكرتك، مساري التاريخي والجغرافي كفلسطيني منذ النكبة مختلف عن مسارك التاريخي والجغرافي كفلسطينية منذ النكبة، حتى أوراقنا الثبوتية مختلفة أيَّما اختلاف، لكِ أن تعودي إلى فلسطين سائحة كما تشائين، وشاركتِ معنا قبل قليل أحداث رحلتك إليها كأميركية، لا مرة بل مرات، بينما آلاف آلاف الفلسطينيين من يعيشون في مخيمات لا تبعد سوى كيلومترات معدودة عن قراهم ما عادوا حتى يحلمون برؤيتها.. فهل من شأن هذا أن يجعلك أقل فلسطينية منهم.. أقل استحقاقًا للحديث عن القضية والنضال منهم؟ على الأرض وفي الواقع أنا وأنت لم يتقاطع مسارانا إلا هذه اللحظة، على هذه الشاشة، في مربعين منفصلين، حتى أننا لا يجمعنا الوقت ذاته، إحدى عشرة ساعة تفصل بيننا، الشمس قبالك وعاطيتني ضهرها، لذا أعود وأكرر أنا عليك السؤال: ما الذي يجمع بيننا؟ ما يجمع بيننا خارطة الحكايات، الأدب الفلسطيني الذي صاغته كل مسارات الذاكرة في نسيج واحد متراصّ يحملني ويحملك ويحمل كل فلسطيني في فلسطين وفي كل بقعة على أرض الشتات أيًّا تكن كل الهويات

المتعددة المنضوية في فلسطينيته وفي ميوله... (تقع عينه على فراشهما الذي تعجل في ترتيبه ..على اللوحة بمربعاتها الأربعة التي لصقها على الحائط خلفه قبل أشهر وميدالية الخشب على خارطة فلسطين المعلقة جانبها على مسمار..مذ استلامه إياهما في طردٍ بريديّ) أنا وحسب.. وين المشكلة في النهاية السعيدة.. غسان كنفاني نهايته سعيدة.. صار فيه يعيش بطل للأبد.. بس مو كل فلسطيني مات عاش للأبد.. مقابل كل غسان كنفاني ألف غسان مات هدر.. مقابل كل محمود درويش ألف محمود عاش هدر.. ما صح له حتى يكتب أول حروف القصيدة باسمه.. أوراق خضراء ساقطة عن غصون الشجر يجرفها الزمن نحو النسيان.. مثلهم مثل غثاء السيل.. ولا ملحمة هومرية تكفيهم.. ترثي بأسمائهم الحقيقية شبابهم الضائع.. فأين هي الخيانة إن انتشلت ورقة من تلك الأوراق.. إن أهديت غسانَ منهم نهاية سعيدة، فرصة يقف فيها بقدميه الثابتتين على أرضه وأرض أبوه وأجداده.. بكل عزته وكرامته.. إيده في إيد صاحبه .. بين حقول البرتقال اللي ينتمي إلها بدل الميتة الشنيعة اللي لاقاها في طلعة عنفوانه.. وحده.. وحده عند الغريب.. على أرض منها أرضه.. قولوا عني خاين لكن ما راح أتخلى عن ذاكرتي.. عن حكايتي.. ما راح أتخلى عن..».

ملامح وجهها تتبدل على انفعاله ونشيج صوته المفاجئ؛ صورتها تتشوش في الدمع الذي يترقرق على غشاء عينيه.

«أعتذر أستاذ أيمن، ما كان القصد. أعرف إنك في حداد على

وفاة والدتكم في الأردن ومقدرين عدم إلغائكم للقاء حتى في هذا الظرف..».

يبلع ريقه ويقاطعها:

«ما في داعي للاعتذار.. الوالدة الله يرحمها كان مُناها تكون عند ربنا.. كانت سيدة ورعة وتحبه كتير.. وكان عندها الشجاعة إنها تترك كل شي وراها وتسعى إله وتتحمل كل شي في مقابل رضاه.. وهلق هي عنده في جنته.. سعيدة ومرتاحة... هي وبابا عنده..».

الحشرجة تعود وتقبض على صوته. يطرق برأسه. ذراعاه تطوقان صدره. كيف لها أن تنتأت بأظافرها كلَّ جراح الفقد فيه.

الروائي أيمن معروف يسمعها تشكره على اللقاء في نبرة يشوبها الإشفاق بعد ساعتين مضنيتين على صفيح حوارها الحماسيِّ والتقاطه التعليقات من على قائمة المحادثة - الكثير منها كان في مديحه لكن عينيه ما التقطتا إلا *المخلنج ابن الشرموطة*، *تع حسابي حتى أنيكك على الأصول*، *رواية نتفلكسية بامتياز*، *شغل مراهقين وتقليد أجانب* وما عاد يرى سواها - متمنية لروايته الأولى نيل الجائزة بعد وصولها القائمة الطويلة (تصوّرها تيمّم تنصيص *«الجائزة»* وكأنما تقول *مكافأة على خيانتك وتماشيًا مع اللحظة السياسية*). على وقع صمتها يرفع عينيه. الشاشة أمامه بيضاء خلا رسالة مكتوبة بالأزرق تعلن إقفال المضيف المنصة.

فورًا الآيفون يرن. رسالة واتساب تظهر على الشاشة. «طمني كيف اللقاء (إيموجي قلب أحمر)؟». لا بد كان يتابعه رغم أخذه

وعدًا منه ألا يفعل. يتناول الآيفون ويجيب، «منيح (إيموجي قهقهة إيموجي دموع غزيرة)». رنّة. «كيف المنقوشة؟» ويجيب، «يسلموا (إيموجي وجه متلذذ إيموجي قلب طاير)». رنّة. «لا تنسَ الليلة عازمتنا حنين على العشا عندها (إيموجي وجه متحمس)»، ويجيب «(إيموجي تعبان)» تليها رنّة، «هاي تالت مرة تعزمك (إيموجي عينان جاحظتان) حرام تردها (إيموجي قلب مكسور) يا زلمة المرة عاملة لك وليمة على شرف روايتك». لا يجيب. رنة. «عشان خاطري (إيموجي وجه دامع)». لا يجيب. رنة. «طيب براحتك.. دير بالك على حالك».

صرير مصراع يتناهى إليه بينما يجيب؛ يضع الآيفون جانبًا حيث الرسالة عالقة تنتظر الإرسال، وينهض عن الكرسي. يمشي نحو النافذة ويسند جبينه الموجع على زجاجها علَّ لمسة شمس كانون الآفلة تواسيه. وها هو ذا، أخيرًا عاد وفتح الدكان بعد إغلاقه طوال الشهور الماضية. كل الدكاكين عادت فورًا إلاه. لربما آثر الاختباء في قريته في أقاصي الريف إلى أن تعود الحياة طبيعية ويعود اقتناء دمى السنافر وتماثيلها ومجسمات قراها وكل تذكارات ماضيها وحكاياها مطلبًا حياتيًّا ضروريًّا للغرباء الزائرين. يراه يغادر الدكان وفي يده مكنسة، يقف خطوتين أمام عتبة بابه، يتخصر بيده الخاوية جسده القصير المجحدر يتأمل السابلة العائدين في خطى حثيثة إلى بيوتهم. وها هو، ها هو يرفع عينيه الفرحتين نحوه، ملوحًا له؛ ينتزع من وجهه الكمامة ويبتسم له ابتسامته العريضة المعتادة، شعره الأشيب ولحيته الكثيفة أنصع بياضًا من ذي قبل.

وابتسامته تبهجه

تبهجه

لكن لا تواسيه.

النهاية

إيمان أسعد

الكويت - ٢٠٢٠



"مات! كيف مات؟"

بجذعه مال غسان إلى الأمام، وبأصابع يده اليمنى ميّم مسدسًا وصوب فوهته تُجاه رأس أيمن:

"برصاصة وحدة بين عيونه."

أيمن ما جفل. عيناه واثقتان، متشوقتان:

"ومين قتله؟"

بوووه..ومرةً أخرى لم يجفل، عيناه حتى ما طرفتا. مال غسان إلى الوراء على مقعده رافعًا المسدس مع فوهته إلى الأعلى. نفخ عليه مثلما يفعل أبطال الكاوبوي في الأفلام، وأعاد كف يده إلى صورتها الأولى، مفرودةً فارغة.

زفر نفسًا عميقًا وألقى برأسه إلى الخلف. عيناه تحدقان إلى لمبة النيون المثبتة في السقف:

"ما بعرف."

حذا أيمن حذو صديقه وألقى برأسه هو الآخر إلى الخلف وحدق إلى لمبة النيون المتقطعة. كان يعلم أن غسان يكذب عليه، أن غسان يعرف تمامًا مَن قتل أباه. لكن أيمن سمح لصاحبه بهذه الكذبة، سمح لصديقه الوحيد بتأجيل اعترافه بما هو معروف لدى الجميع.



إيمان أسعد

لن تجد الشمس في غرفة مغلقة





منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 723946
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com